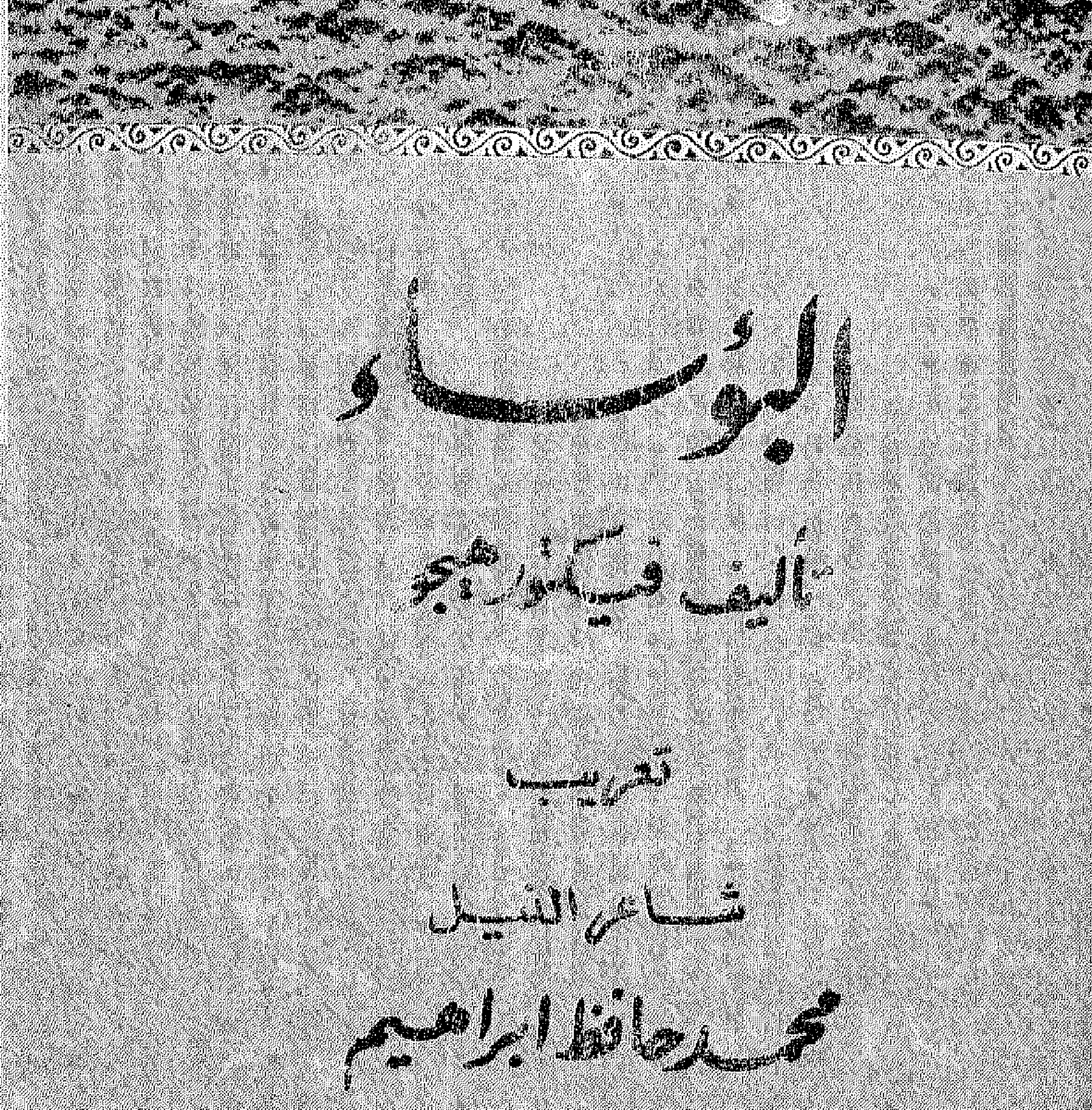
كتاب الهلال



البؤساء

تأليف فيكتور هيجو

تعريب

شاعر النيل

محمد حافظ ابراهيم

العدد ٧٨

قروش ١٠

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٧٨ ــ صفر ١٣٧٧ ــ سبتمبر ١٩٥٧

No. 78 — September 1957

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشــــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ــ مصر والسودان ١٠٠ قرش صاغ ــ سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا ــ السعودية والعراق والاردن وليبيا ١٣٠ قرشا صــــاغا ــ الامريكتـــين ٥ر٥ دولارات ــ ســــائر أنحاء العـــالم ١٧٠ قرشــا صــاغا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

البؤساء

تأليف فيكتور هيجو

تعريب
شاعر النيل
محمد حافظ ابراهيم

اهداء الكتاب

الى الأستاذ الإمام

انك موئل البائس ، ومرجع اليائس .. وهذا الكتاب – أيدك الله – قد ألم بعيش البائسين : وحياة اليائسين . وضعه صاحبه تذكرة لولاة الامور ، وسماه : كتاب « البؤساء » ، وجعله بيتا لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة : « الرحمة فوق العدل » ..

وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار ، ورأيت أن أرفعه الى مقامك الاسنى ورأيك الاعلى لاجمع فى ذلك بين خلال ثلاث : أولاها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك ، وثانيتها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذى يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الافهام ، وثالثتها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق (١)

فليتقدم سيدى الى فتاه بقبوله ، والله المسئول أن يحفظه للدنيا والدين ، وأن يساعدنى على اتمام تعريبه للقارئين

---

(١) صدر هذا التعريب قبل أن يتوفى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ ، وكان شاعر النيل من خيرة مريديه وأصدقائه فصدره بهذا الاهداء البليغ

كلمة فى التعريب

بقلم محمد حافظ ابراهيم

هذا كتاب « البؤساء » ، وهو خير ما أخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه صاحبه وهو بائس ، وعربه معربه وهو بائس فجاء الاصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة ، وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه ، وعربه كاتب هذه الاسطر وهو فى بلواه

ولولا أننى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم ، لما وصـــل مبلغ علمى الى مبلغ علمه ، ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . ولو أن لى قلما من أعواد أشجار الجنة ، وصحيفة من صحف ابراهيم وموسى ، وقد تلقتنى البـلاغة من كل جهة بفضلها ، فسموت الى لبـــاب مصاصها ، واخذت منها حاجتى ، لما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب ، لولا اتحادنا فى الالم وتشابهنا فى الشقاء

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم فى الميقات ، واستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى اذا نفذ الفكر الى ما وراء سطوره ، واهتدى الخاطر الى مكامن حكمه ، دعوت أم اللغات ، وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية ، وعمدت الى مد صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت اليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج ، فاذا شمست احداهما وازور

جانبها ، أغريت بها سلطان العقل ، فلا يزال بها يروضـــها كما يروض الراكب المطية الصعبة ، حتى تسكن الى أختها وترتاح الى جوارها . ولم تزل تلك حالى : أدخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن ، وأمشي بينهما مشية الحـكيم فى الصـــلح بين القوم والقـوم ، حتى أئتلف الذوقان وامتزج الروحان، وضمت شمسيهما طفاوة(١)، واحتوت بدريهما هالة، وخلعت الاولى على الثانية جلالها ، واعارتها الثانية نضارتها وجمالها ، واصبحت تلك المعانى الافرنجية بعد أن صـقلها اللسان المبين ، وجندرها (٢) الذوق الشرقى ، تســكن فى هذه المعانى العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم ، وهم أحوج الناس الى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفكر ، الذى كنت بينا أراه يسابح الاجرام فى أفلاكها اذا هو يدارج النمال مدابها ، وبينا المحه بين ذروة العـــلم وشرفة القصر ، اذا هو بين قاع البحر وعميق النهر .. فكم افلت من هجيرة واختبأ فى خميلة ، فمن تلهب جمرة القيظ فى صميم القائلة ، الى تراوح النجم فى الروضة ، ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته ، الى التمشى بين نفس الحبيب وريقته

ولا يزال الكتاب فى كل أمة يتلمســـون أن يعقل عنهم ما ألهموا أن يدخلوه فى مؤلفاتهم من الحكم والامثال، فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح (٣) المطـر ، ويستهبطـون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم ، وينشـــدون

---

(١) الطفاوة : دارة الشمس وهالة نورها

(٢) وجندرها : اى هذبها الذوق الشرقى

(٣) أخرجها مثـــلا . وكان من وساوس العرب ـ اذا خشوا سقوط المطر ـ ان يعمد احدهم الى خيمته او عطفه ، فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها ، رجاء ان يخطىء المطر فى سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبى على تأييد دعواه فى النبوة

لذلك الامثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الاقاصيص التى تدعو الى العظة ، وتصفح النفوس عن ركوب سبل الغواية

ومن تلك الاقاصيص ذلك الكتاب الذى أعانى تعريبه اليوم فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص ، فكان مثله فيه كما قال عن نفســـــه : مثل المنجم الذهبى لا تصــل الايدى الى تبره حتى تكاد تحصى ثراه عدا

وقد خار الله لى أن اعربه ، فاستمنته فأعاننى ، واستهديته فهدانى ، وسلخت اثنى عشر هلالا فى تعريب تلك الصفحات التى ترونها اليوم . وحاولت أن أصل بها تلك الرحم ، التى قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال ، الذين تجردوا لتعريب اساطير الاولين فوفوها قسطها من الاتقان ، وألبسوها من البهجة لباسا ترضاه اللغة ويرضاه ابناؤها

ارأيتك أيها الناظر فى كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم وأنت تذوق حلو تركيبه ، وتستمرىء لذة أسلوبه ، أن عبد الله بن المقفع قد عربه عن الفارسية ، لو لم يصل خبر ذلك اليك ؟ فسقيا لتلك الاقلام التى عربت فأعربت ، وسطرت فأعجبت وواها لهذه اللغة التى أصبحت بين أعجمى ينادى بوادها ، وعربى يعمل على كيدها . .

ومن نظر فى بطون تلك الكتب التى تترجم اليوم ، رأى هذه الغادة الشرقية وهى على فراش موتها تندب خدرا قد ابتذلته الاقلام ، وسترا قد هتكته الاوهام ، وقد فتحوا لها فى بطون هذه الكتب قبورا ، وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانا ، وهيأوا من هذه الاقلام أعوادا ، وما هو الا أن يثنى ذلك الغربى بدعوته حتى يسرع الى جنازتها أهلها وذوو قرابتها . .

اللهم أنت تعلم أننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم ان هذا خــذلان منك فأدركنا برحمتك وهيىء لنا من أمرنا رشدا

أيكون بين أبناء اللسان العربى مثل من أرى اليوم من فحول

البلاغة وملوك الكلام ، وانا لا أعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير اسماء معدودات ، ولا أكاد اجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من الاختراعات الا ما وقع تحت نظر العرب فى تلك الجزيرة الجرداء ، وماسمت اليه حضارتهم فى عهد الدولة الاندلسية ؟

اى رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأى غيث سقاه ، وجو حواه ، حتى أدخل فى لغته من الكلمات مايخطئه العد ، ووقف فى وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور فى وجوه الطامعين فى هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليس رجالنا بقادرين على ان يأتوا متساندين بمثل ما آتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت اسماؤك اللهم .. أيدعى البعير – وهو ذلك المركب الخشن – بهذه الاسماء التى تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لاسمائها مرادفا فى هذه اللغة ؟ فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربى الذى يقول فى وصف عيشه :

الابيضان أبردا عظامى — الماء والفت بلا ادام (١)

وهو فوق راحلة ظالع على قتب (٢) يكاد يدمى عجانه تحت شمس لا تكاد تأكل ظلها فى مفازة

تمشى الرياح بها حيرى مولهة — حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

اذا أردته على أن يصف تلك الراحلة العجفاء فأرهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الاعجاز ، وأردتنا على أن نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ، ونتبوأ أريكة « الاوتومبيل » تحت ذلك الظل الظليل ، فى مخارف (٣) ضفاف النيل على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ،

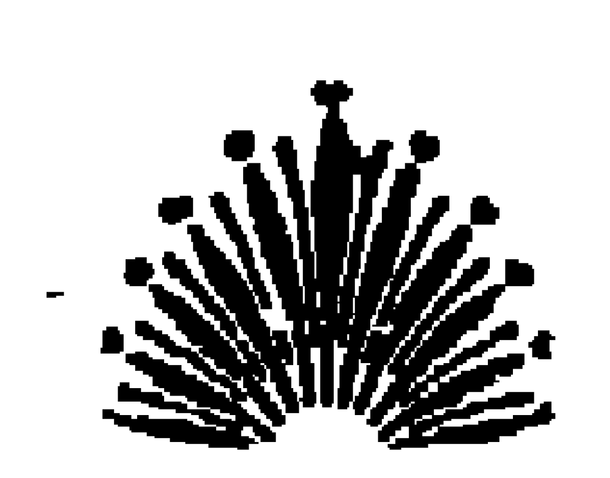
---

(١) تقول العرب : الابيضان عن الماءوالفت ، والاحمران عن اللحم والخمر
(٢) القتب هو ما يجلس عليه راكب الراحله
(٣) جمع مخرف وهو المتنزه

بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذى لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسما يدل على مسماه ، ولا مرادفا فى اللغـــة يؤدى معناه ؟

فخذوا أيها القادرون على الاصلاح بيـد اللغة ، وانظروا كم أدخل فيها آباؤكم الاولون من كلمة فارسية

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليـه . وهذا باب الاشتقـــاق وباب النحت لا يزالان بحمـــد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد ، فادخلوا منهما آمنين





شاعر النيل : محمد حافظ ابراهيم

كلمة فى المؤلف

بقلم محمد حافظ ابراهيم

ولد « هيجو » والقرن الغابر صبى فى مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرق بين امســـه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيــا شيــخين فانيين فاذا الاول سيــد القرون ، واذا الثانى نادرة البطون ، هذا يمشى على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذلك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبــار ، ويرتدى بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الاول على سرير دولة الايام ، وأخــذ الثــانى بصولجان دولة الاقلام ، فالتقت دولةالعجب ، بدولة الادب ، واجتمعتبدائع الاختراع ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتــد من المغربين الى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ونعيم المــدنية ..

سبحانك اللهم ، هل كانت تعقل هذه الذرات ـ وهى فى عالم السديم ـ أن سيرتقى بها الحال الى العيش فى هــذا النعيم ؟ فتبارك الله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم

ولد هيجو واللغة الفرنسوية بمنزلة بين الضعف والحاجة، والقوم بين أسر التقليد وذل التقييد ، والادب لم يبق منــه

الا الدماء ، فأنبته أبوه نباتا حسنا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعا حتى تحركت نفسه الى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، ورددها لسان الكون ، رفعها الى المجمع العلمى فاهتزت جوانبه عجبا ، وكادت تطير أعضاؤه طربا ، ولولا انه كشف عن سره ، وأوضح عن بيان عمره ، لاجزلوا ثوابه ، ورفعوا جنابه ، ولكنهم قارنوا بين شعره ، وعمره ، فاستنزروا أيامه واستغزروا بيانه ، فظنوا انه يسخر منهم ، فلم يجيزوه الا يسيرا . وهبت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية القوافى ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح فى ملكوته ماشاء الفكر ، وما زال يتنقل فى تلك العوالم الخيالية حتى نودي به أميرا على دولتى النظيم والنثير ، وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف ، فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ، ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم ، ورفع للشعر منارا أطلت منه الحقيقة بجلالها ، واشرفت منه الطبيعة بجمالها

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحه من سجن التقييد وقد وقف اذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فاذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الاطمار ، لاخذ رجاله بأسباب التقليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوه من الاقاصيص التى تمثل ادوار تلك الازمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيه لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى الى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينهما حرب عقدت عجاجها الاقلام ، وادارت رحاها الافهام فمازال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمه ، وساروا تحت علمه

ولاحت بعد ذلك تباشير الاصلاح فى سماء الادب ، وظهر كتابه الذى سماه نتردام دوبارى Notre Dame de Paris فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر ، حشرت له فيه

اللغة جنودها من الالفاظ والمعاني ، فاستعرضها صفاصفا ، وتفقدها حرفا حرفا ، ثم أبرزها الى ميـــدان التحرير على أحسن تعبئة وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير

ولما قضى من الادب لبانته ، وأخذ من الشعر حاجته ، هجر الشعر الى السياسة ، وما هي الا جولة من جولات الفكر حتى دعته السياسة الى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الافئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتهـا في اكتشاف مايستكن في قرارة النفس وخلجات الفؤاد

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها (١) فركب سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفى به من بحر الى بحر ، وترمى به من عبر الى عبر ، وهو على ظهـرها يطالع فى أفق الدهـاء صحيفة الرجاء ، وقد وضع أمامه ابرة الامل ، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلغته شاطىء آماله ، وحمد مغبة أعماله

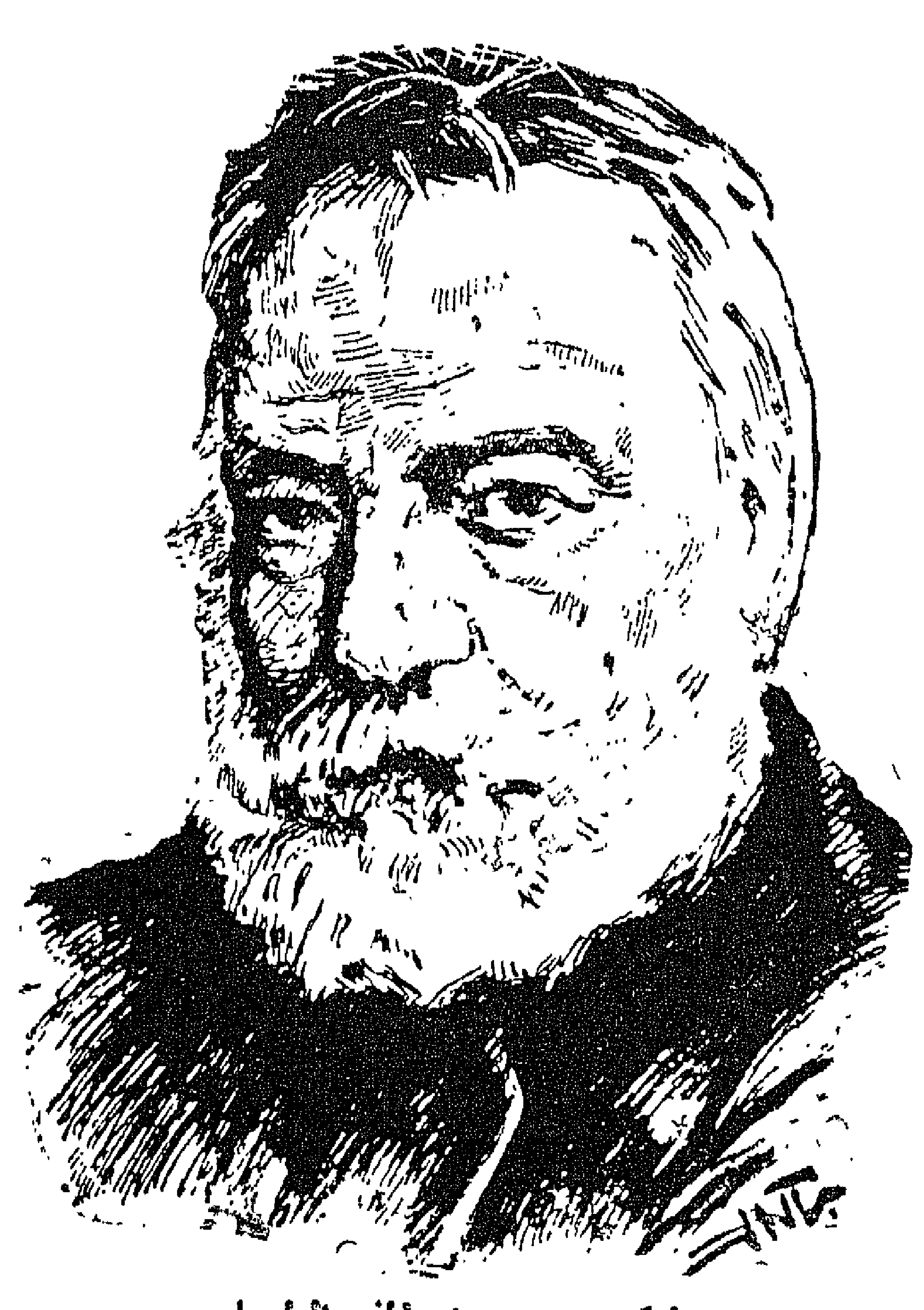
وما كاد يتنسم الافرنس نسيم الحـرية حتى هبت ريـح الاستبداد من رقادها ، وصـفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على أكتافها واندفعت به ، حتى اذا بلغت سماء بروكسل عاصمة البلجيك ألقت به هناك فى منفاه الجديد

فنزل الرجـل متماسكا لم يعتره الدهش ، ولم يتطرق الى عزمه الخمول ، وغادر باريس وقد أقسم أن لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيهـا ، وبرت يمينه .. فانه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الالمان فى حرب السبعين

ولبث هيجو في منفاه ، وكانت أيامه فيه أخصب أيام حياته فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمه ، فوضـع كتابه الذى سماه « نابليون الصغير » ، ونظم بعده كتاب «العقوبات» فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينله منه زوال ملكه ، وكان

---

(١) كوكب الشيء معظمه



فيكتور هيجو : مؤلف البؤساء

عليـه أشد غضاضـة من تسليم سـيفه الى يد عدوه في يوم خذلانه

وجاء ذلك الكتاب مثال مايملىالحق على القريحة . وتوحى الموجدة الى اليراع ، ووضع بعده كتاب «المشاهدات» وكتاب « البؤساء » الذى نعربه اليوم ، وكم له غيرها من مؤلفـات جليلة ، ومنظومات بديعة ، منها ما صنعه فىصباه كـ «أوراق الخريف » و « أناشيد الشفق » ، ومنها ما وضعه بعد عودته الى الوطن ككتاب « العام الاسود » ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد



كلمة فى البؤس

بقلم فيكتور هيجو

مثل البائس الذى سجلته يد المقادير فى سجل العناء ، وطوحت به فى ظلمات هذا الوجود ، فمضى يتخبط فى ديجور الحياة ، يؤمه النحس ، ويمشي على أثره الشقاء ، تلعب به الايام لعب النكباء بالعود ويدب فى نفسه اليأس دبيب الآجال فى الاعمار ، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج فى يوم ريح صرصر عاتية ، فلبث معلقا فى خيط من الاجل تحت شقى مقص الفناء ، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبرا ، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحرا ، يطفو به القدر ويرسب به القضاء ، فتلتقفه الموجة بعد الموجة ، وتلتقمه اللجة بعد اللجة ، وقد درجه البحر فى كفن من الزبد ، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق أمواج كالجبال ، تعلو به تارة الى مجرى الافلاك ، وتسفل به أخرى الى مسبح الاسماك ، حنق عليه الماء والهواء ، وزهدت فى وجوده الارض والسماء ، وكلما هم بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء فجعل يجالد تلك الامواج الثائرة ، ويصارع ذلك الجبار العنيد ، حتى اذا نزح التعب قواه ، طواه البحر فى جوفه طى السر فى الفؤاد : ذلك مثل البائس فى هذه الحياة الدنيا

اما ذلك المجتمع الانسانى فمثله كالسفين اخذت فى ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الاعاصير واصطلحت عليها الانواء، وألقت بها فى تلك اللجج التى تضل فيها الظنون والاوهام سبيل النجاة ، يدنو منها القضاء فيفرق ، ويسبح فيها الخيال فيغرق ، اذا تدجت فهى ليالى الشقاء ، واذا ثارت فهى براكين الماء . ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء ، الى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها اليه مرة بالنداء وأخرى بالايماء ، لتستل حياته من يد الاجل . وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح ، أو أشار قام بينه وبينها سد من الامواج ، فهى لاتسمع نداءه ، ولاتنظر ايماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين

الجزء الأول

من البؤساء

الفصل الأول

جان فالجان

أشرف على مدينة «دينى» رجل يضرب فى الارض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان (١) النهار واكتهل اليوم الاول من شهر اكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليه عامة يومه فما ادركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طول الشـــقة (٢) وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأ وجمع فى منظره بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة اليه تدعو الى الريبة فيه . لذلك مانظره أحد من سكان تلك المدينة الا ومرت به خلجة شك فى أمره

وكان ربعة فى الرجال بادنا (٣) شديد الحول يضرب لونه الى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض ، نيفت أعوامه على الاربعين ، عليه أسمال بالية وبيده عصا وقد احتقب (٤) خرجا ملأه بحاجه ولباناته

دخلها وهو أشعث أغبر ، وقد انتشرت على أديم وجهه طبقة نسجتها يد السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه ــ وكذلك ينكر ابن السبيل ــ واخذ سمته الى دار المشيخة ، فمضى (٥) قدما فى

---

(١) مالت الشمس الى الغروب . (٢) السفر الطويل .
(٣) ذو البدن السمين . (٤) اى حمل . (٥) اى سار الى الامام

احدى سبلها ، حتى اذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة ، وخرج فمر بجندى فحياه فصعر(١) الجندى خده وتثاقل فى رد تحيته ، فمضى الرجل فى طريقه ونظر الجندى يترسم (٢) مواقع أقدامه ، حتى غاب عنه سواده

ولعله كان قادما من الجنوب ــ فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذى ركبه نابليون الاول قافلا من «كان» الى «باريس» منذ سبعة أهلة ــ وكأنه منذ أصبح ما تبلغ (٣) فما هو الا ان أفلت من دار المشيخة حتى تيمم المنزل ، فلما دلف(٤) الى حيث يطبخ ألفى رب النزل هناك ، فسأله رب النزل وقد احس بقدومه وان لم يمد اليه بصره : «ما سؤل الطارق ؟» فقال الرجل : «اكلة ونومة» ، قال : «لك سؤلك» ثم التفت اليــــه فما كاد يأخذه نظره حتى أخذه الشك فيه فعطف قائلا : «أو تصل يدك الى وفاء حق ما تطلب ؟ » فضرب الرجل بيده الى جيبه وأخرج كيسا فهزه حتى أسمعه وسوسة (٥) ما بداخله، وجلس الى النار يصطليها ــ وقد كان مقرورا(٦) وولى ظهره الباب . وجعل رب النزل يخالسه النظر فى الجيئة والذهوب ، والرجل غافل عنه ينكت الارض بعود فى يده حتى كاد يأتى عليه(٧)الجوع فصاح بصاحبه : «اما آن أن آكل وليس هنا من هو أحوج منى الى الطعام وما لى بد من تناول ما أمسك به النفس ؟» فقال له رب النزل : «انى ليحزننى ان تنصرف عنى وانت طاو ، فلقد سبقك الى شراء ماترى قوم نزلوا بنا منــــذ اليوم ، وما منهم الا من هو أحرص منك على الطعام» فقال

---

(١) شمخ بأنفه وتكبر .
(٢) ترسم الاثر اقتفاه .
(٣) تبلغ أكل الخبز .
(٤) دلف مشى .
(٥) يقال وسوسة الحلى ووسوسة الدراهم صوتها .
(٦) المقرور الذى اصابه القر وهو البرد .
(٧) اتى عليه اهلكه

الرجل : «لن أبرح الارض حتى أصيب ما اتبلغ به ، فلقد سايرت الشمس من شروقها الى غروبها وقضيت يومى طاويا وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدمى ، ومن العجز ان أبتغى عنه حولا» . فقال له صاحبه وهو يحاوره : «لقد بالغت فى محاسنتك كى لا أجبهك (١) بالرد ، وكرهت ان أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع ، فأبيت الا الاصرار فأغرب عنى أيها الرجل ولا تلحف (٢) فى السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك فقد زهدنى فيك ما اقرأ عنك فى تلك الرقعة التى تراها بيدى وصاحبها لاتغيب عنه وساوس صدرك وانك لقريب العهد به ، ذلك رب الدار التى عرجت عليها حين أحلتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك ما سمعت يا جان فالجان» فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليه لفرط الدهش ، فأهوى بيده الى متاعه فاحتمله وخرج يتعثر فى ذيل الخيبة ، وركب الطريق الاكبر ومضى على وجهه يقتاده القضاء والقدر

ولوأنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوما تكاد تنهبه أبصارهم ، وما منهم الا من قاف(٣) أثره بنظرة من الشك ، ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين الى تلك اللفتة التى تريه النحس على عقبيه ، فواصل السير وقد انساه طريف الحزن تالد التعب ، ولكنه ما لبث أن تنبه فيه هاجع الجوع ، فأشفق أن يدهمه الظلام قبل أن يبلغ مكانا يعصمه من القرة(٤) ويذود عنه الطوى ، فما زال يتيامن ويتياسر حتى لمح ضوءا فقصده فاذا هو على باب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره ، الجوع يدفعه والخوف يمنعه ، حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها ، صاح : «من الطارق؟» فقال: الرجل : « عابر يطلب قوتا وكنا » ، ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوما جلوسا ينتظرون نضج الطعام ، وشم ريح القتار

---

(١) جبهه بالرد واجهه به . (٢) الحف فى السؤال اى الح .
(٣) قاف بمعنى اقتفى . (٤) القرة البرد

فكادت تثب أحشاؤه الى القدر ، فقال له صاحبه : «دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام» . فانتحى ناحيتها وجلس اليها ومد امامها قدمين أدماهما التعب

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلاً ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقا حزينا اذا امررت عليه النظر امرارا رأيت فيه سهولة السطيع ، واذا ادمنته فيه تبينت فيه الجفاء

وكان بين أولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهـــار وقد ركب الطريق بين «براسكاس راسكابلون» فرابه أمره حين دنا منه وهو فارس فطلب اليه ذلك البائس أن يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه أن استحث جواده هربا من شر تلك الطلعة وقد أراد الله أن يكون ذلك الفارس بين اولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الاول وقوفا يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة «الفوتوغرافيا» عن تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم امره فى النزل الثانى ، فأومأ الى رب النزل فلما دنا منه همس فى أذنه بكلمات ملأته نفورا من ذلك القادم فانفتل اليه ، وقال له : «ما كان أخلقك بالتحول عن هذا المكان» فأجابه الرجل : «أو قد علمت بحادثة ذلك النزل ؟» قال : «نعم وسنشفعها بأختها» فاستقبل الرجل الباب ولما صار بالطريق اذا هو بصبية يرجمونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة ، فخشى أن يصيبه عنت منهم ان هو تغافل عنهم ، فأشار اليهم بعصاه يوهمهم بالاذى ، فنفروا عنه نفور القطا ، فانطلق حتى اذا صار امام السـجن خطر له أن يأوى اليه ليلته وقال لن أجمع على نفسى بين الجوع والسهاد ولقد أرانى الى الراحة أجوع منى الى الطعام وهـذا جو خليق أن يهلكنى قره ولن أعدم أن أجد فى هذا السجن مكانا يعصمنى منه

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان : «من

الطارق ؟» قال : «غريب لا مندوحة له عن الالتجاء الى السجن» قال : «ومتى كان السجن دارا للضيافة ؟ فان كنت أمسيت وقد أعياك الامر فهذا باب اقتراف الجرائم لايزال مفتوحا وهو لا يلبث ان ولجت فيه أن يقتادك الى هنا » فانصرف الرجل مخذولا وليس وراء ما به من البؤس غاية ، وتغلغل فى المدينة فمر فى طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفى وسط احداهما دار صغيرة تعلو الارض بطبقة ، باحدى نوافذها سراج يضيء الليل .فما هو الا أن رآه حتى أسرع اليه فلما بلغه نظر من تلك النافذة فاذا رب الدار بين زوجه وولده وهو أهنأ مايكون بالا ، فقال أستضيفهم فلعلى أن أصادف منهم جانبا رحيما ، ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعه على زجاج النافذة نقرة الجبان ، فلم يسر اليهم الصوت ، فخلع عن منكبيه رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة ، فقالت المرأة لزوجها : «كأنى أسمع نقرا على زجاج النافذة» فتسمعا جميعا فسرى اليهما الصوت فقام الرجل الى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلا تذعر منه الابالسة ، فقال رب الدار : «من الذى أرى ؟» قال : «غريب يستضيفك ولك الحكم فى الاجر» ، فقال له وقد دب الشك فيه : «ان كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك أن تغشاها» ، قال :«غشيتها فلم أجد فيها مكانا» . فقال له وقد تملكه الشك : «ان ماتقول لشبيه بالباطل وليس هذا بابان المواسم ، وانى لارى رجلا غير ميمون الطلعة ولقد راعنى منك ما يروع المرء من قاتله وكانى أسمع صوتا يقطر منه الدم وأكبر ظنى أنك ذلك الرجل» فقال له :«لاتعجل فى الحكم على ماليس لك به علم ، فما أنا الا ابن السبيل قطعت فى يومى اثنى عشر فرسخا وقد أجهدنى الكد والنصب ، وهدنى التعب وأخذ منى الطوى ، فهل لك فى أن تسعفنى بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين ، فان لم تفعل ، فشربة من الماء ؟» فقال : «بل شربة من حميم» واغلق فى وجهه الباب ، فوقف

الرجل وقد كاد يأتى عليه اليأس لولا أن بصر فى ضوء الشفق بشىء شبيه بالكوخ فى وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال : «ما لهذا الكوخ بد من ساكن ولكنى آتيه فلعلى أجده خاليا فأفنى فيه دولة الظلام واستجن (١) فيه من ذلك البلاء المتساقط» فقصده فاذا هو وجار (٢) لكلب وقد غاب عنـــه صاحبه ، فانبطح فيه الرجل على وجهه واستحالت عليه الحركة لضيق المكان ، وكان متاعه لايزال على ظهره ولم تقو يده على ازالته لفرط ما ناله من الاين والنصب ، فلبث قطعا من الليل وليس به حراك حتى اذا أمله حمل ما على ظهره عمد الى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وانه ليفعل ذلك اذ فاجأه رب الوجار ، فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق أن يثير غضبه بتثاقله عن الخروج فينشب فيه أنيابه وهو فى ذلك المضيق لايستطيع دفعا عن نفسه ، وخرج من البستان وهو أشد مايكون جزعا من الحياة شريدا يطويه البرد وينشره الطوى، تعذر عليه حتى الوصول الى السجون وعزت عليه حتى مراقد الكلاب

فلما صار فى الطريق قال : «لقد قصدت الفنادق فذادونى عنها ، فالتجأت الى السجن فكذلك ، فاستضفت الناس فكذلك، ولقد زهدت فى حتى الكلاب ، فليس لى الا التحول عن هـــذه المدينة»

ثم سار مقنع الرأس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليله بهيما ضرير النجم شديد القر ساقط النواحى متهم الصباح فانطلق حتى اذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسه ومد بصره فاذا ظلمات يقصر فيها قاب العين، وقد زاد فى ظلام الليل ما تلبد فى سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الارض . فانقلب الرجل على عقبيه وأم المدينة

---

(١) استجن اى استتر .
(٢) الوجار الجحر

وكانت ذات سور وأبواب فرأى الابواب وقد اغلقت فحاول التسور فأعياه الامر ، فما زال يطوف بالسور حتى عثر على ثغرة فانحدر منها الى المدينة ، ومضى على وجهه تترامى به الطرقات وتتقاذف به الازقة حتى مر ببيعة فوجد على بابها مقعدا من الحجر فسقط عليه لايعى من فرط التعب واضطجع عليه . وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممددا كالجذع : «ماخطبك أيها النائم ؟» فقال لها : «وهل يدعو ما أنا فيه الى السؤال الا ترين انى أنام ؟» فقالت له وقد أخذتها رأفة عليه : «أتفترش الصخر ؟» قال : «مر بى تسعة عشر حولا ولا أفترش غير الاخشاب ، وانا الليلة أفترش الصخور ولولا انني صفر اليدين لاكتريت لي مكانا . على أنني طرقت الابواب فلم أظفر بكريم» . فقالت : «هل أدلك على بيت ماطرقه قبلك طارق وجبه بالرد ؟» ، وأشارت له الى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته اليه

□

وكان هذا البيت لعابد بمدينة «دينى» وقد أفرد له المؤلف فى صدر الكتاب بابا قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ مافيه ان الرجل مسماح كريم عفيف الازار طاهر المهد سريرته فى بياض صحيفته فعال للخير مناع للشر ، وكان يقطن هذا البيت مع اخت له على خلق كريم وهى امرأة نصف لاعجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الاسنان تعد من العمر ستين عاما

وبينا كان الرجل آخذا طريقه الى ذلك البيت كانت الخادم تحدث مولاتها :

«لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد الا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الاندية وولج

الاخبية واجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا فى وجهه سيما الفتك والشرور فلا ينجلى هذا الليل الا عن حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليل فى الازقة والطرقات حتى اذا عن له صيدا أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن فى هذا البيت أن يصول علينا الذئب صولته ، ولا أظن تهاون العسس فى الامور الى هذا الحد الا لما امسكه حاكم البلد فى نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة ، وما وقره رئيس الشرطة فى صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما القاء تبعة الحوادث على صاحبه ، ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل أن يقيم من نفسه حارسا على نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وأنا غادية الى السوق لشراء مزلاج(١)لهذا الباب وداعية أحد النجارين لاصلاح عضادته»

وانها لتحدثها كذلك اذ دخل سيدها وقد الم بطرف من الحديث ، فنظر اليها نظرة المستطلع ، وسألها سؤال المستخبر ، « لقد وعيت طرفا من حديثك فما عسى أن تكون تلك النازلة التى توشك أن تحل بنا ؟» فاندفعت الخادم تحدث مولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل ، وكلما آنست منه ارتياحا الى حديثها تغلغلت فى الاغراق واسترسلت فى المغالاة وقالت : «ولقد عود مولاى طراقه على الدخول فى هذا البيت قبل الاستئذان ، وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب !» . وما كادت تنتهى من مقالتها حتى سمعوا طرقا فقال العابد : «أتيت أهلا أيها الطارق» فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو الى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب . وأن عهدنا بهذا القادم لقريب ، فما هو الا أن تراءى حتى كادت تنقطع نياط قلب الخادم من الهلع ، فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة

---

(١) الترباس عند العامة

الفم غائبة الرشد . اما الاخت فقد حفز الخوف احشاءهاحفزا فنظرت الى أخيها فاذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجاش طلق المحيا ، فثاب اليها رشدها وعاودها السكون ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، وأما ذلك الرجل ،فقد وقف فى صحن الدار وأنشأ يقول :

«انني مجرم طويت فى السجن رداء شبابى ، وسلخت فيه مائة وثمانين شهرا حتى استوفيت عمر العقاب ، ولم تشرق على شمس الحرية الا منذ أيام اربعة ، فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار ، فقصدت الفنادق ، فحالت بينى وبينها تلك الورقة الصفراء التى يحملها حديث العهد بمغادرة السجون ، فطرقت الابواب فلم اصادف رجلا كريما ولا قلبا رحيما . فقلت آوى الى السجن، فأنا أقرب الناس عهدا به فنهرنى السجان،فدلفت الى وجار كلب فطاردنى حتى طردنى ، فقلت أنطلق الى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم ، فتقنعت بالسحاب وكأنها عافت النظر الى تلك الطلعة المنحوسة . واشفقت من سقوط المطر ، فعدت معقبا الى المدينة ، ولم أصب من رحمة فى الارض ولا فى السماء ، فحالت بينى وبينها الابواب حين بلغتها ، فما زلت اطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيه وانحدرت منه الى المدينة وهمت على وجهى فى الطرقات حتى مررت ببيعة فاذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليه،وانى لكذلك اذ مرت بى امرأة من الصالحات فنفضت اليها جملة الحال ، فأرشدتنى الى هذه الدار ، وها أنذا قد بلغتها . ولقد عودنى الشقاء على ان أجتزىء بالشربة وأكتفى بالكسرة ، فهل انا مصيب عندكم ما امسك به النفس ؟ فلقد ظللت يومى طاويا وقطعت اثنى عشر فرسخا وانا راكب هذين النعلين ، فان فعلتم ــ وما اظنكم تفعلون ــ فلكم ما تشاؤون من الاجر ، فانى على الدفع قدير !»

فنظر العابد الى الخادم ، وقال لها «هيئى له مكانا على المائدة» ، ثم اخذ يحد البصر على ذلك الرجل ، كمن يحاول أن

يستشف ما فى قرارة نفسه ، فمضى الرجل قدما حتى اقترب من السراج وضرب بيده الى جيبه فانتزع منـــه تلك الورقة الصفراء «اجازة الاطلاق» وكانه لم يصدق اذنه لقرب عهدها بسماع غير الذى سمعت» فالتفت الى العابد ، وقال له : «دونك الورقة التى ما صحبتنى الى مكان الا سبقنى النحس اليه وانى لاتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة فى مدرسة السجن» .
واخذ يتلوها :

«ان جان فالجان مجرم أطلق سراحه بعد أن لبث فى السجن تسعة عشر حولا ، قضى خمسة منها قصاصا على السرقة ، وقطع الباقى جزاء معالجته الفرار من السجن مرارا وانه لفتاك جسور»

ثم قال :

« لذلك ترانى ما حللت فى مكان الا وانكرنى من فيه واوجس خيفة منى فياليت شـــــعرى أكذلك تكون معى أم أنت من المحسنين ؟ »

فنظر العابد الى الخادم وقال لها : « مهـــدى له سريرا » وخاطب الرجل قائلا : « نزلت رحبا فاجلس الى هذه النار واصطل وما هى الا لحظة حتى يحضر الطعام فاذا فرغت من تناولـه اخذت مضجعك فى ذلك السرير » . فصدق الرجل فى هذه المرة اذنيه وأشرقت أسارير وجهه وسرى عنه ما كان فيه من الغم ، وخرج به فرط السرور الى الهـــذيان فجعل يقول : « اسرير وحشية وغطاء وما لجنبى عهد بها منذ تسعة عشر حولا؟ ولقد كان قائما بنفسى ان لا أرى منك غير الذى رأيت من أصحاب الفنادق ، فما بالك تبالغ فى محاسنتى كأنى بعض بنى الانسان ولقد كنت أنهر الساعة كما تنهر الكلاب ، فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله لاضاعفن لك الاجر . فيا ترى ما اسم هـذا النزل وكم ينبغى أن ادفع ؟»

فقال العابد : « ان الذى يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ،

ولكنه بيت ذلك الذى يخاطبك» فقال الرجل : «لقد خيم الحزن على بصرى فلم ألمح اشارتك التى تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة ، فلا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسرا ، فأنت حقيق بمؤاساة البؤساء»

ثم رد الرجل ورقته الصفراء الى جيبه ، وألقى على الارض متاعه وأسند الى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : « ولا اخالك تكلفنى على ذلك اجرا » . فأجابه صاحبه وهو يحاوره : « لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا فى حاجة الى شيء منها »

وكره العابد الخوض معه فى مثل هذا الحديث فحول مجراه قائلا : « ولعلك ياسيدى مقرور ، فان ليلتنا باردة الهواء » فتمشى السرور فى قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعه ، وتنزهت روحه من داخل الجسد ، واصابت منه تلك اللفظة (سيدى) موقع الماء من ذى الغلة الصادى

ولا يزال المصاب فى شوقه على ظمأ الى نهلة من موارد الاحترام ، حتى اذا ظفر بها أصبح مبرود الغليل

وانتقل العابد من حديثه الى مخاطبة الخادم فقال : « أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور » . فألمت بقصده وأسرعت الى مخدع نومه وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة

فقال الرجل للعابد : « لقد اكرمتنى الكرامة كلها وحادثتنى محادثة القرين وجلست معى على بساط المساواة ، على انى لم اكتمك شيئا من أمرى وعندى ان ما فعلت لكثير على مثلى » فقال العـــابد : « لم تكن الدار بدارى ، ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائنا من كان عن اسمه ، ولكن يسأله عن ألمه وانت رجل قد أضر بك الالم ونال منك الجوع والظمأ ، فالتجأت الى تلك الدار وليس فى ذلك من فضل ، وانما الفضل لله فهيا الى المائدة فقد حضر الطعام

فأخذ الرجل عليها مجلسه وجلس اليه العـــابد يؤاكله ويؤنسه حتى فرغ من أكله وحانت ساعة الانصراف انى النوم فأخذ بيده الى المضجع الذى هياه له ومر فى طريقه على حجرة العابد، فنظر فيها نظرة ألمت بجميع مابداخلها وحين بلغ به رب الدار مضجعه حياه وهم بالانصراف ، فتعلق به الرجل ، وزمهر فى وجهه بعينين نم انساناهما عما كان يخفيه فى قرارة نفسه من الغدر ، فقال له وقد شبك ذراعيه ووقف أمامه وقفة تمشى لها القلوب فى الصدور : « وما يؤمنك ان لا أنالك بسوء وقد جعلتنى بحيث لا يحول بينى وبين الفتك بك حائل ؟ » . فأجابه العابد : « ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئا وهذا أمر قد فرغ الله منـــه ؟ »

ثم غادره وانكفأ الى مخدعه ولم يلتفت اليه . وبعد أن قضى فيه صلاته تحول عنه الى البستان وأخذ يطوف فى نواحيه وهو يتأمل فى نظام الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر فى تلك الاشياء المستسرة فى ضمير الدجى

اما الرجل فما صدق ان يتوارى عنه حتى أهوى الى السراج فأطفأه وانطرح على ذلك السرير ، وليس به حراك وغط فى نومه ، وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتى انقلب العابد الى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبق فى هذه الدار عين لم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها . ولما اكتمل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه !

□

وقد آن ان نسطر للقراء تاريخ هذا الرجل :

كان جان فالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل فى الارض ببلدة (برى) وكان أبوه يشذب الشجر ، ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس فى معهد الجهل ، فلم يجلس الى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر فدما جهولا .

ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكير عن غير حزن ، وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على اثرها أبوه .. هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه ، فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفى المؤونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب وأكبرهم يومئذ فى الثامنة من عمره فلم ير جان فالجان بدا من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح فى طلب الرزق وأجره فى أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلديا ، فاذا انقضت تلك الايام انطلق الى جماعة الحاصدين فى المزارع فأصاب رزقا له ولأهل بيته . وما زال يكافح الايام ويناضل البؤس وهو لا تصل يده الا الى ما تدعو اليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج فى طلب وجوه الرزق ، فأملق الرجل املاقا شديدا ونزلت به الضائقة وحصره العوز ، فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون ، فصاحت تلك السبعة الاطفال من ألم الجوع ، والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى . فكبر الامر على جان فالجان وغادر الدار وخرج هائما على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم فى مخدع له بداخلها ، وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من أثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فاذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه ، وذكر أمر الغلمة فساقه قائد الاضطرار الى ارتكاب جريمة السرقة لأجل أن ينتزعهم من مخالب الجوع ، فصدع الزجاج بقبضته وأهوى بيده الى الخبز . وانه ليحاول اختلاسه اذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومه مذعورا على دوى تلك الصدمة . فتخبل الرجل فى أمره وطرح الخبز وأخذ يعدو طلبا للنجاة . وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق به وتعلق بأثوابه وقد خدشه الزجاج فى يده وساعده خدوشا كانت هى الشهود على

جريرته ، فسيق الى المحاكمة ، وكان كلفا بالصيد في الغابات مدمنا لحمل بارودته ، فلما قبضوا عليه ، وكان محتقبا لها ، شبه لهم انه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم ديني رسخ فى عقيدته يلحقهم بقطاع السبيل ، لذلك وفوا هـذا البائس قسطه من الاذى وزجوا به فى السجن خمس سنين !

وفى اليوم الذى نودى فيه بنصر ديمونتبوت كان جان فالجان يرسف فى قيوده وقد سلكوه مع رفقة له فى سلسلة طويلة الذرع . ساروا به الى سجن تولون وقلبه يقطر حزنا على هؤلاء الذين خلفهم بعده لاترعاهم عين ولاتواسيهم يد ولما وصل الى السجن البسوه ملابس المجرمين ولم يبق له أثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح لايدعى بغيرنمرة ٢٤٦٠١

ولا يعلم الا الله ما الذى حل بعده بتلك الارملة وأولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع بأحشائهم ويلعب اليأس بأرواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسه وهام على وجهه من فرط الجوع وتغلغل فى ظلمات هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا فى البلاد وجر عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم . حتى ذلك السجين فى سجنه أنساه اياهم كر الغداة ومر العشى ، وتتابع البلاء وتوالى الشقاء ولم يجر على لسانه ذكر أخته فى أيام بؤسه وما ذكرها غير مرة وقد نقل بعضهم طرفا من خبرها بعد أن لبث فى السجن بضع سنين لا يعلم من أمرها شيئا ، نقل اليه انه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس فى دار ، ولم يبق لها من أولادها غير واحد وقد انقطعت الى العمل فى احدى المطابع فنظرها وهى مبكرة اليها وفى يدها ولدها وقد بلغ الرابعة من عمره ، وكانت فى دار المطبعة مدرسة للاطفال فأدخلت فيها ذلك اليتيم فهى تغدو به كل يوم اليها وتتركه فى فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق

لمزاولة العمل فى المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم فى فناء الدار وحيدا فينزوى فى ركن من أركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار ، وطالما شاهده من مر به وهو يقضقض من البرد وفى عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه الى كنه حتى يفتح باب المدرسة

هذه هى المرة التى سمع فيها بذكر أخته وآلمته ذكرى تلك الانفس التى كان يحبهــا ولــكنه ما لبث أن عاد الى حاله من النسيان فقد كان فى قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء

وما كاد يطوى أجل السنة الرابعة حتى وقف عليه الدور فى الهروب ، فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالأوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب ، ولما ظن نفسه ناجيا لبث يومين هائما فى فضاء تلك الحرية الموهوبة لا يهتدى الى سبيل

ولم يستمرىء ذلك البائس لذة الاطلاق والحرية ، ومتى كان حرا من بات مقلقل الشخص ، مروع العين ، منزعج الضمير ، طاوى الحشــــا يفرق من الفىء ، ويفزع من لا شىء ، يخيفــه الليل تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشــاوة تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساه أن يكون قد مد له من الشراك ، ويزعجه النهار يغرى به الرقباء ويهدى اليه العيون ؟ فهو ما مر به طير الا وفزع ، ولا نبحه كلب الا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فاذا اغفى سلت عليه سيوفها الاحلام ، واذا تيقظ راشت اليه سهامها الاوهام

فما زال يذوب فرقا بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل الى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب فى يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت أعوام سجنه الى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد ان كان خلقا رديما ، وقد كان غادره ولم

تبق له فيه الا سنة واحدة وعاد اليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثا

وما زال يعالج الهروب فلا يسرح الفرصة اذا عرضت ولا يحجم عن الدور اذا آن ، وهو كلما ظن انه ناج أدركه عثار الجد فرده الى السجن ومد فى أجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولا

وخرج من السجن ، وهو كالحجر الصلد ، لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام ، بعد أن كان ذلك الرعديد الهلوع ، دخل فيه وهو بادى اليأس جزوع ، وخرج منه وهو كظيم

□

وما كان جان فالجان خبيثا ولكنه فدما جهولا على انه ما لبث أن تلقن فى مدرسة الدهر العليا دروسا ألحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها أساتذة الايام والليالى فعلمه القيد السكون ، وعلمته الاغلال الصبر كيف يكون ، وأرشده قرع العصا الى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جبينه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان فى نفسه من الجشع

فجلس الى نفسه يحاسبها ، وجرد من نفسه حكما على نفسه ، وجعل ينظر الى ما ضيه نظرة الحكيم العاقل ، الى ضلالة الاحمق الجاهل ، فعلم انه أتى أمرا نكرا ، وان ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال فى نفسه لقد كانت لى مندوحة عن السرقة فلو انى سألت الناس هذا الخبر لما ابوا على اعطاءه ، ولو انى أخذت بالأناة فى الامر لوجدت لى منصرفا عن ارتكاب هذا العار ، اما بالسؤال وان كان ذلا ، واما بالعمل وان كان عزيزا ، ولكنى تعجلت وكان الاخلق بى أن أعتصم بحبل الصبر

فمن النزر أن يموت المرء جوعا على أنه ما خلق الا ليعيش

بين السعادة والشقاء ، فان كان نصيبه فى الحياة الالم كان حقيقا باحتماله وان عظم ، فما كل الم يكون للموت رائدا

فلقد عققت نفسى وعققت تلك الارملة وأولادها وحاولت الفرار من وجه البؤس فواجهت العار ، وانى وان زلت بى القدم فلست بأول الخاطئين ، فهذا سبيل كل مضطر عديم

ولا ازال ارى انهم نظروا الى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وافرطوا فى العقاب واخذوا جانب شريعتهم فى القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم فى الرحمة ونظروا فى ميزان حكمهم الى كفة الجزاء ولم ينظروا فى كفة العفو عند التوبة

فلسوف يسألونك عن تلك الحظوظ التى رموا بها فى مجرى النحوس ، وتلك الانفس التى القوا بها فى يد البؤس والشقاء

وانى لا أرى مقارنة بين الضرر الذى لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذى نزل بى من وراء ذلك الحكم ، فانه وان لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والافراط

وكان جان فالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد اخرجه حنقه عن حد الرشد ، ولقد يكون الحنق جنونا

وما ظنك أيها القارىء برجل لم يصب من ذلك المجتمع الانسانى خيرا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذى كان يكمن فى أثناء ذلك العدل الموهوم ؟ فهو ما دنا منه دان الا ليدنى اليه اذاه ولامسه انسان الا ليمسه منه الضرر ، ولا طرقت اذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة

فما زالت تهادى به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن ان الحياة حرب وانه وحده هو المهزوم فيها ، وان ليس ما يعتد به من السلاح غير ما أمسكه فى نفسه من الحقد على العالم بأسره ، فهو سلاحه الذى أعده لمناواة الايام ومنازلة الانام وكان يشحذه فى أيام سجنه ويبالغ

فى الحرص عليه ، وقد راى ان قوة ذلك السلاح لا تكون الا فى قوة الذكاء ، فعمد الى الدخول فى مدرسة السجن وقد تفتق العلوم بعض الاذهان الى استنباط وسائل الاذى وطرق الانتقام

وبعد أن فرغ من الحكم على نفسه وعلى العالم بأسره انتقل الى الحكم على تلك القوة التى دفعت هذا العالم الى فعل الشر وكان بقاؤه فى السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت اثقال الهموم يسمو بنفسه آنا الى السماء ويهبط بها آنا الى الارض ، فيرى عن يمينه نور اليقين وعن يساره ظلام الشك . ولم يكن ذلك الرجل خبيثا عند دخوله الى السجن ولكنه أحس بسريان الخبث فى نفسه حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر فى قلبه حين جلس للحكم على تلك القوة السماوية

وهنا يجب أن يقف بنا التأمل برهة ونتساءل : هل يدخل فى باب الامكان أن يخرج الانسان من طباعه دفعة واحدة ، فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ، ويتحول عن جبلته وينزع عن سجيته

وهل لبنى البشر سلطان على النفوس يحولها عن الفطرة التى جبلت عليها ، فيرد منها الى الخيانة ما فطر منها على الطيبة

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فاذا حمق حظ المرء ولج به عثار جده ، خبثت نفسه وساءت فعاله ؟

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضـــوع الاعضاء فتدعوه الى الانكماش أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور الى الانحناء ، وهل لا يوجد فى نفوس البشر نور ســـماوى لايذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة ، فيبقى ساطعا فى تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه أشعة الهدى؟

تلك اسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث فى علم الاعضاء عن الاجابة على آخيرها ، فلو انه نظر جان فالجان وهو فى سجن تولون ، وقد وافت ساعة الراحة من عنـــاء

الاشغال ، فانتقل من ألم الجسم الى الم الفكر لراى رجلا يقطر حزنا ويذوب كمدا ، يزدهيه الصمت ويغوص به الفكر فى بحار من التأمل . أنشبت فيه الشرائع اظفار الظلم فجعل ينظر الى العالم بعين الحقد والحرد ، وأخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر الى السماء بعين السخط

ورأى مريضا داؤه فى النفس لا فى الجسد ، وقد عز عليه الشفاء . ولو وقف عمله عند حد التوجع له ، ولصرف نظره عن تلك القروح التى تسكن فى هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة

ولراى راى ذلك الفيلسوف (دانتى) فعمد الى محو كلمة الامل التى رسمتها يد القدر على جباه البشر

وياليت شعرى أكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذى نحس به له ، وهل سمت مداركه الى معرفة كنه ذلك الشقاء الذى أتيح له

ولما حانت ساعة اطلاقه من القيود ورن فى أذنه قولهم له انك حر منذ اليوم ، دبت فى نفسه الحياة وشعر بأشعة من الامــل تمحو ظلام ذلك اليــأس الذى ســكن فى نفسه منــذ تسعة عشر حولا ، ولكنه ما لبث أن عاودته نزوات الالم حين علم ان اطلاقه سيكون مشفوعا بتلك الورقة الصفراء، وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه أمله ، وأيقن انه لا زال فى قيد لا تصل يده الى صدعه ، وان هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب ، فهو فى أسر السجون مثله فى تلك الحرية الموهوبة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء

وأخذ يفكر بعد ذلك فى الثروة التى جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الاجور على عمله فى السجن ، فظن انه أصبح ربا لثلثمائة وثلاثين غرشا ، ونسى ان أيام العطلة من كل أحد وما يلتحق بها من أيام المواسم قد قرضت من رأس ماله ستة وتسعين غرشا فلم يطــرح من حسابه ذلك القــدر العظيم ،

ولا تسل عما حل بنفسه من الجزع حين ألم بهذه الخسارة وذلك الغبن المبين

وفى اليوم التالى ليوم تسريحه من السجن مر بمدينة (كراس) على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا فى فقر الى المعونة لعدم الفسحة فى الوقت وطلب سرعة الانجاز فى العمل فعرض على رب المعمل نفسه فألحقه بأولئك العملة

وكان جان فالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهارة وسأل فى أثناء ذلك عن الاجر الذى يصيبه العامل فى يومه فقالوا له ثلاثون صلديا ، ولكن رب العمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم انه يحمل تلك الورقة الصفراء

فقال جان فالجان فى نفسه تلك هى الخطوة الاولى فى سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء ، فلعنة الله على كل ذى لون أصفر غير الذهب .

فانى وان كنت قد نجوت من السجن فلا اظن نفسى ناجيا من جور ذلك الحكم

هذا ما حل به من الغبن فى مدينة كراس ، ولم ينس القارىء ما أصابه فى مدينة دينى

▭

ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ، أيقظه لين الفراش ونعومة الملمس ، وقطع غرارة ذلك السرير الذى لم يكن له به عهد منذ عشرين حولا وقد حن جنباه الى مضاجع الخشب واشتاق رأسه تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليل فسرى عنه التعب فهب وقد عاوده النشاط وكانت عادته أن لا يهجع الا قطعا من الليل فلما تنبه أخذ ينظر يمنة ثم يسرة ثم أهوى رأسه الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد

ومن قضى يومه بين الالم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد

ذلك ، كان النوم الى الحلول بمقلته أسرع منه الى سواه ، ولكنه اذا تيقظ فقلما يجد النوم الى عينه سبيلا

كذلك كان جان فالجان فقد استعصى عليه النوم وأدركه الأرق وانتابته الهواجس والافكار وجعل ينتقل به سيال الفكر من مكان الى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة ، وهو كلما نزلت برأسه فكرة أدركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها ، فما زال رأسه مسرحا لسوانح الافكار وميدانا لسوابق الاوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح أرجاءه وكان مبعثه من تلك الاوانى الفضية التى لمحها ذلك الشقى على مائدة العابد عند تناول العشاء ، ولمح الخادم وهى تضعها فى أحد الأركان من مخدع نومه على مقربة من سريره

فسولت له نفسه أن يذهب بها وقد قومها بضعف ما كان يمتلكه يومئذ من المال وكلما حاول أن يثنى عنانه عن ركوب طريق العار ابى طمعه الا أن يقف به على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ، ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة ، حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الأوانى فثار من مرقده وهم بمزاولة ذلك العمل

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه فى حرب عوان ومد يده فتحسس متاعه والتمسه فى الظلام فمسح عليه بيده وقد كان على قيد ذراع منه . ومن رآه وهو على هذه الحال فى جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلا خرج به فرط التأمل عن حد الشعور بما حوله وقرأ على وجهه سطورا من الشؤم رسمتها عليه يد الشر الذى كان يجول فى نفسه

ولولا أن دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التى نزل الى قاعها غواص الفكر ، للبث كذلك حتى الصباح فثار من مكانه وخلع نعليه وكان لم يخلعهما عند النوم

والتمس عصاه واحتقب متاعه وتهيأ للعمل واخذ سمته الى مخدع العابد وعلق انفاسه واخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ البـاب تسمع فلم يسمع شـيئا فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون احتراسا كأنه هرة تحاول غشيان ذلك المكان ، فلان له الباب ودار على عقبه بحركة لم يسر الى السمع صوت لها

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جراة منه فى الاولى فازداد لينا حتى فتح له طريقا يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه ، قد دعته الى طلب الزيادة فى انفراجه

فألم جان فالجان بحرج الموقف ولم ير بدا من الاقدام فدفع الباب مرة ثالثة أشد من أختها وكان الباب على ظمأ الى قطرات من الزيت ، فصر لتلك الصدمة صريرا ، دوى له فى هذه الظلمة صوت جاف فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ فى الصور ، ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحول الى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحا يكفى لايقاظ أهل الكهف ، فكيف بأهل ذلك البيت ، وظن انه لا محالة هالك ، وخال عروقه وهى تنبض فى صفحتيه مطـارق تطرق الحديد وأن أنفاسه تصفر تصفير الرياح فى بطون الكهوف والمغاور ، وأن ذلك الباب قد زلزل الارض زلزالها فزعزع أركان المنزل وأن هذا الصوت النكير قد انذر الناس بالكبسة ، فما هو الا أن يتنبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع فى قبضة العسس فيعيدوه الى سيرته الاولى

ولبث حيث كان لا يقـدر على الحـــركة وهو كأنه بعض الانصاب حتى سكت عنه الروع ورأى الامر أيسر مما كان فى نفسه فمد بصره داخل الحجرة ، فاذا العابد يغط فى نومه ، وأصغى بأذنيه ، فاذا الدار فى سكون الرموس

فخفض من جزعه ودعا اليه الاقدام وخطـا خطوة فاذا

هو داخل الحجرة فجعل ينقل أقدامه باحتراس كراهة ان يصطدم بشيء من الأثاث . وانه ليختلس الخطى اذ برز القمر من وراء غمـامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة فأنارها فنظر جان فالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم

وكأن الطبيعـة لم تزحزح هـذا النقاب عن وجه القمر فى تلك الفترة الا لتوضـح لعيون الكون عمـل ذلك الجانى لعله يذكر أو يخشى ، فلقد كان القمر منـذ زمن لا يتعدى شـطر الساعة مقنعا بغمامة سوداء وقد انجلت عنـه فى اللحظة التى أوشك فيها أن يعثر هذا الشقى بأعواد السرير

ومن رأى ذلك المضطجع على فراشـه ، رأى رجـلا قـد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق فى وجهه نور اليقين ويجول فى محياه ماء البشر وترتسم على وجهـه آيات الرضا والقبول ، وتكتسى شـفتاه بابتسامة الامل الفسيح ، ويتأرجح من أردانه ريح التوكل

وقد راع هذا الواقف جـلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين الاكبار الى ذلك الجسد الذى سـكن فيه التقى ، وتلك الروح التى باتت تسبح فى عالم الاسرار وتسبـح فى ذلك الملـكوت السماوى

وكانت لله مشيئته فى ذلك الراقد ، فقـد أفاض عليـه من أنوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيبا فى اليقظة والمنام ، لذلك كان جان فالجان وهو مقيد فى مكانه بقيد من الخشية ينظر اليـه وقد تمشت العظة فى نفسه وامتلأت عينه جمالا وأفعم صدره جلالا

ولا يعلم الا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر الى ذلك الراقد الذى تنتشر على وجهـه طبقة من النور السماوى تمازجها نفثة من الروح الالهى الذى أنار الله

به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ في وجهه ، والوجه مرآة الضمير

وزادت بهجة البدر في بهجة ذلك النائم فكان يراه جان فالجان في نور فوق نور ولم يزل واقفا في مكانه ولم يحول بصره عنه ، وما شك من رآه في انه يتردد بين أن يهوى بعصاه الى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوى بفمه الى تلك اليد فيقبلها

كل ذلك والعابد غارق في نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من جان فالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومىء الى أحدهما بالوقاية والى الثانى بالمغفرة ، فأغرته تلك اللفتة الى الاسراع فى العمل

فاندفع يمشي الى الامام حتى وقف عند تلك الاوانى الفضية وهى في سفطها فتناوله ورجع أدراجه ومر بجانب السرير بقدم مطمئنة وجأش رابط ، حتى اذا جاوز الباب انحدر الى الحديقة فألقى بالسفط على الارض بعد أن نقل الى خرجه ما كان فيه وتسور الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازى عليه سواد

ولما توفى الليل هب العابد من نومه وخرج يجول فى حديقته وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهى تهرول اليه تنادى : « أيعلم مولاى تولى الله حراسته أين سفط الاوانى الفضية ؟ »

فأشار العابد اليه وكان مطروحا على مقربة منه ، وقال لها « أليس هو هذا ؟ » . قالت : « كأنه هو ولكن أين أوانيه ؟ » قال : « هذا ما لست أدرى » . فصاحت الخادم : « كان الذى خفت أن يكون فلقد فقدت تلك الاوانى وأكبر ظنى أن ذلك الرجل الذى غشينا بالامس هو الذى ذهب بها »

ثم طفقت تجرى الى حجرة الرجل وعادت على الاثر وهى تقول : « نعم ذهب بها فلا بورك له فيها » ، ولاحت منها التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان ، فجعلت تترسمها بالنظر حتى انتهت بها الى احدى زواياه فشاهدت

آثار تسلقه على الحائط ، فقالت : « من هنا أخـذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط »

وما زالت تبدى وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على أن قال : « ومتى كنا نحن أصحابا لتلك الاوانى ؟ ألم تكن هى من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل فى فعلته فان هو الا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها فلاتجزعى فليس فى الامر ما يدعو الى الجزع وهـذه أوانى القصـدير أو صحاف الخزف تكفينا مؤنة الاسف على ضياعها »

ثم غادرها وانكفأ الى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقا على الباب ، فقال : « أتيت أهـــلا أيها الطارق » فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قدأخذوا بخناق رابع بينهم !

فمد العابد بصره فاذا ثلاثتهم من الجندواذا صاحبه بالامس يكاد يذوب بينهم فرقا

فقال لصاحبه وقد هبت من شمائله روائح الكرم : « لقـد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين الى تلك الاوانى الفضية ، وأنت تعلم أنك ربهما منـــذ الامس • وما أنساك أن تذكرهما الا شيطان العجلة • فخـذهما فلعلك أن تصيب من ثمنهما ما تصلح به من شأنك ! »

ثم التفت الى الجند ، وقال لهم : « لقد آذيتمونى فى ضيفى انه خير مما تظنون »

والتفت بعدها الى صاحبه ، فقال له والبشريجول فى محياه: « اذا شئت زيارتنا منذ اليوم ، فلا تجعل طريقك على البستان فان لك لمندوحة عن احتمال مشاق الصعود والهبوط ، وهـذا بابنا لا يغلق فى وجه الطارق ، وما هى الاأن تدفع الباب حتى تكون فى وســط الدار » • ولما تم انصراف القوم ، قال له : « لقدجعلت لى عهد الله أن تنفق ما أخذت فى رياضـة نفسك على البر والتقوى فلا تنكث مع الله عهـدك » • فلبث الرجـل

مبهوتا عند سماع ذكريات ذلك العهد الذى لم يأخذ على نفسه القيام به فقال له العابد : « اعلم اننى اشتريت نفسك بعدأن سللتها من يد الهلاك ثم وهبتها لله فلا تكن عليها من المسرفين»

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ، ومضى على وجهه تقاذف به الطرقات وتهادى به الحقول ولا يشعر لفرط مانزل به أكان يقبل أو يدبر ولا يعلم انه كان يضرب فى قطعة من الارض لا يتعداها

□

وهكذا قضى سراة يومه فى أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وأن كان لم يذق طعاما ، فسار وهو يكاد ينشق غيظا ولا يعلم الا الله على أى شىء قد أمسك هذا الغيظ فى نفسه ولعله سرى اليه من ندامته على ماضيه أو من خذلانه فى حاضره. وكأنه كان يحس برقة قد أدركت فؤاده وأخذت تقرض من أطراف غلظته فتضعضع نفسه كلما شعر بانزعاج تلك الغلظة التى أسكنها فى فؤاده ذلك الظلم الغابر وأيدها فيه هذا الجد العاثر . وجعل يتساءل فى كل آن عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة الى السجون على البقاء على تلك الحال التى لايعلم مأتاها

كان على عطفى طريقه سياج تطل منهـا زهور قد أخطأتها أيدى الجناة فجعلت تهيج فيـه ذكرى الصبا كلما تنسم منهـا ذلك الارج الفياح الذى لم يكن له عهـد به منذ ابتـدأت أيام محنته

وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء

ولما كان الاصيل وقد رسـمت الشمس على سـطح الارض ظلال الحصى كان جان فالجان مضطجعا فى جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مر برأسها طريق معبد ينتهى بمدينة (دينى)

تلك التى لاقى فيها صنوف الشقاء

وانه يفكر فى أمره وفى تلك الاسمال التى كانت مثارالنفور لكل من يراه اذ أحس بوقع أقدام ، فاستوى جالسا فاذا هو يرى سوادا مقبلا فتبينه فاذا هو غلام يعد من العمر اثنتى عشرة سنة وهو يحتقب جرة له ويحمل حيوانا صغيرا جعله وسيلة لرزقه ، وقد شهد ما كان عليه من الاطمار البالية بعراقته فى الفاقة ، وهو يغنى بصوت رخيم ، ويلاعب الجو بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته فى حياته

فانه ليلهو بقذفها فى الجو والتقاطها اذ هوت كبراها الى الارض وأخذت تجرى على رأسها الى حيث كان جان فالجان مستترا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العواسج

فما هى الا أن انتهت اليه حتى كان أسرع من السهم فى ممره الى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذى كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس ، ويترسم أثرها بنظر يكاد ينهبها وهى تجرى على الارض نهبا

ولما علم بمقرها وثب اليه فاذا هو يرى عنده رجلا ، فلم يأخذه الروع ولم يعتره الدهش

وكان الطريق اذ ذاك خاليا من المارة ولا يسمع فى هذا الجو الفسيح الى قطقطة (١) سرب من القطا يسبح فى الجو على قيد مرمى السهم

فوقف الغلام فى وجه الرجل وقد ألقى الشرق (٢) فى شعر رأسه سلوكا ذهبية ونشر على سحنة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع (٣) ، وقال له بصوت يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الابرياء : أين قطتى؟ فمد الرجل بصره اليه وقال: « من أنت ؟ » قال : «أنا (فرجى) الصغير »

فانتهره الرجل ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامه وأخذ

---

(١) صورة لطير القطا (٢) بمعنى الشمس (٣) بمعنى الدم

الاول يلحف فى السؤال والثانى يبالغ فى السكوت حتى ضاق الغلام ذرعا وأهوى الى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية

فزمهر الرجل فى وجهه ، ومد يده ليلتمس عصاه ، فأثارت تلك الحـركة نخوة الغـلام فأغلظ فى القول حتى أحفظ (١) ذلك الشيخ فثار من مكانه وأهابه يكاد يتمزق غيظا وصاح به : « ان لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم ! »

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك وأطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوى على شىء حتى غاب سواده وقد غابت الشمس

ولبث الرجل فى مكانه حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص فى لجج من الأفكار وكأنه كان ينظر الى أصـل شـجرة كانت هناك وقد وقف نظره عليها ولم يتحول، ولولا قشعريرة سرت الى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد الى نفسه من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحس بوخز القر ، هم بالتحول عن هذا المكان فأصلح عليه أثوابه وانحنى ليأخذ عصاه ، فأخـذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ فى الارض فاحتوته الهزة وجعل يغمغم ويهذى وكأن أجفانه قد شـدت الى تلك القطعة بأهدابها وكأنما هى ترميه بنظرات تخترق أحشاءه

ومرت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب اليه السكون فاندفع الى الأمام وانقض عليها انقضاض القضاء

ولما صارت فى يده أخذ يستقرىء بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينيه في أرجائه وما شك من رآه وهو عى تلك الحال فى أنه ضـار من الوحش يلتمس مريضـا يستكن فيه على أنه ماكان يرى فى تلك الانحاء آلا ضبابا قد أعاره الشفق لونه الوردى وقد مد الظلام على الارض رواقا يقصر فيه قاب العين

---

(١) أغضب

فشرع في السرى وقد لبس الدجى وتغلغل فى هذا الفضاء وطفق يهرول فى مشيته وركب تلك الطريق التى نجا منهـا ذلك الغلام المغبون وما هو الا أن خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتة ورفع عقيرته ينادى باسم ذلك الغلام رجاء أن يسمعه فينقلب اليه ، وكان يتسمع فلا يسمع شـيئا فما زال يعـدو ويصيح وقد ابتلع هـذا الظلام شخصه ومزق ذلك السـكون صوته حتى يأس من لحاقه

ولو كان الغـلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن الى اجابته ولضاعف من عدوه وبالغ فى اختفائه طلبـا للنجاة من غائلته

وان اليـأس ليتهب فؤاده نهبـا آذ بصر بشبح يخوض فى أحشاء هذا الليل البهيم ، فدناه فاذا به رجل يحمل شـارة الرهبان وقد امتطى جواداً ، فاستوقفه وسـأله بلهفة الحائر: « ألم تعثر فى طريقك أيها الراهب بغلام صغير؟ » فقال :«كلا» قال الرجل : « انى أنشد غلاما فقيرا وأحسبه يدعى فرجى » قال : « لم أر أحدا » فضرب الرجل بيده الى جيبه وانتزع منه قطعتين من الفضة وقال للراهب : « خـذ هاتين وأنفقهما فى سبيل الله وفى مواساة ذوى المتربة واننى أدعوك بالله أن تقودنى الى السجن فانا بعض المجرمين » فما كادت تستأذن هـذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمر به مرور الطيف وغادر ذلك البائس فى مكانه وهو كأنه بعض الانصاب . فلم تكن الا لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح كأنه خولط فى عقله وجعل كلما مر بجذع أو شجرة مثل له الوهم أنه يرى انسانا جاثما أو واقفا فيعطف عليه عقله عطفة المستخبر عن ذلك الغلام

كذلك كانت حاله حتى بلغ مكانا تلتقى عنده سـبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب فى هـذا الفضاء وقد انقطع عن اجابته كل شىء حتى

الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء به كلكل الفضاء فسقط على حجر هنــاك وقال وهو مكب برأســه على ركبتيه : « أشهد أني بائس » !

وجال الدمع فى عينين لم يسبح انسانهما فيه منذ عشرين عاما ، وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذى صـدعته الخطوب

□

خرج هذا الرجل من عند العابد وقد علمنا ما كان من أمره وانه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله

فما وجدت العظات الى قلبه سبيلا ، ولا كان لتلك الاخلاق الفاضلة سلطان على أخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم الى فؤاده ، ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التى نفرت من الهدى نفارها من طبائع الابرار ، وتحصنت فى معقل من الضلال لا تبلغه العظة ، ولا تعمل فيه الزواجر

وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتي أذنيــه • فى نفسه منها ما يقع ، فيبالغ فى صدها ، وتبالغ فى كيده ، حتى أوشكت أن تأتى على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين

وقد بدأ يشعر فى هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التى خــذل أمامها عناده ، وانه ليجنى على نفســه ان هو أبى الا الاصرار على ذلك العنــاد والحفــاظ والتمسيك لذلك الحقد الذى وقره في صدره على جنس البشر، وقد وجب عليه أن يخرج من تلك الحرب اما قاهرا أو مقهورا، تلك الحرب التىقامت بين نفسين : نفس اتخذت من تقوى الله جندها ، ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الامر ثار من مكانه وأخــذ يسرى على ضوء ذلك النور الذى أوشك أن ينير سريرته

ويا ليت شعرى هل كانت تعاوده اذ ذاك ذكرى تلك الليلة

التي قضاها فى مدينة (دينى) وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوى الذى بات ينذره بعقباه ويكل له الخيـار بين خلتين : آما نزوع عن الغـواية فسمو الى مقام الإبرار ، واما استرسال فى الضلالة فهبوط الى قرار الفجار ، ويوضـح له سبيل الحياة بين أمرين : أما سعادة ذلك العابد ، وأما بؤس خير منه بؤس المصفد فى قاع السجون

وسبيله فى الاولى أن يحلل بحرارة التوبة ما علق بأجزاء نفسه من بقايا ذلك الشر فيصبح ملكا نقيا ، وفى الثانية أن يلوثها بحمأة الغى والضلال فيمسى طريدا شقيا

▭

وهنا نفتح المجال لتلك الاسئلة التى عرضناها على القارىء منذ العهدالقريب ولا زلنا نقول انالخطوب تفتق الاذهان ولكنا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم فى فؤاد ذلك الرجل ولعلها كانت تحضره حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالا

فلقد أحـدث فى نفسه صـنع الجميـل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عينا حديثة العهد بحالك الظلام

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة فى أعلى مجاليها وتراءى له آتيها يرفل فى ثياب البهجة والبهاء ، أزعجه ذلك المرأى فلم يستطع عليه صبرا وقد بهر نورالفضيلة ذلك البائس فرد منه الطرف وهو كليل

وما كان جان فالجان اليوم هو ذلك الغصوب الذى سـلب الغلام قطعته بالامس وغلبه علىأمره ولا هو بصاحب تلكالفعلة الشنعاء

وانما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذى دفعته الفطرة الوحشية الىارتكابها بينما كانت نفسه تسبح فى سماء الحياة الجديدة التى أكبرتها

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقا بقوة الشر التى مزجتها بأجزاء نفسه مخالطته للاشرار فى أيام سجنه ولا يدرى أغيا كان يفعل أم رشادا

وحين أنست عينه بذلك النور وسكنت نفسه الى صحبة التقى وردت الى طبعها رد الحسام الى قرابه علم أنه أتى عظيما وارتكب جسيما فكادت تتزايل أعضاؤه رهبة وتسيل نفسه جزعا

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذى نسجته على بصيرته أيدى الخطوب ، وفصلت فى نفسه بين الحق والباطل فعلت بالاول وسفلت بالثانى كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذى يلقى به فى المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر

وقبل أن يلم بما ألم به أو يدرك مأتى تلك الحال التى وصل اليها طفق يجرى خلف ذلك الغلام ليرد اليه ما سلبه اياه حتى اذا يئس من لحاقه وقف ينظر الى ماضيه فأنكرت نفسه نفسه

أنكرت نفسه الجديدة تلك النفس التى صحبته منذ عشرين عاما ، وشبه له أنه فى عالم الاحلام ، وأنه يرى أمامه طيفا يمثل له انسانا قد نحست طلعته ولؤمت غريزته وخبثت طينته ، قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينه ذلك الاسم الممقوت (جان فالجان)

وخرج به هول ذلك الموقف عن حد الادراك فرسخ فى نفسه أنه يرى ذلك الشبح رأى العين وأنه يرى أمامه (جان فالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر فى مرآة قد رق ماؤها

وأنه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة اذ لمح ضوءا سرى فى جوف ذلك الليل ، فحسبه للوهلة الاولى ضوء مصباح ، ولكنه ما لبث أن رآه ينمو ويتشكل فى صورة البشر حتى

كمل انسانا سويا ثم أخذ يدانيه شيئا فشيئا حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو الا نور الفضيلة قد تمثل فى صـورة ذلك الرجل الكريم

فجعل ينظر بعين بصيرته الى هذين التمثالين القائمين أمامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة أخرى

وبدأ يتضـاءل أمام عينيه تمثال ذلك الجانى حتى انمحى رسمه وبقى العابد وحده فى ذلك الهيكل النورانى

فراع الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة فى عينيه على الخروج

فمـا زال ينتحب انتحاب الطفـل ويبكى بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على أثره تلك الحياة الجـديدة التى لم يستمرىء لها لذة قبـل اليوم ، وتراءت له صحيفة أعماله وقد سـجلت فيها مخازيه ، فجعل يقرأ فيهـا سطور ماضيه فنظرجريمته الاولى وعلىجبينها التوبة والاستغفار وتمثلتله غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذىأضمره للناس فى يوم تسريحه

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام

كل أولئك كان عليـه مسطورا ووجد ما عمـل حاضرا ولا يظلم ربك أحدا

فسرى وهو مأخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدرى له وجهة حتى اذا أفجر (١) وعاد الى رشده رأى نفسه راكعا على عتبة ذلك العابد

ذكرنا فى المقدمة ما كانلفكرة ذلك المؤلف منسرعةالانتقال وقلنا انه بينما نراه يسابح الاجرام فى أفلاكها اذ هو يدارج النمال فى مدابها

---

(١) أفجر الرجل اذا أدركه الفجر

وقد سرت عـدوى ذلك الانتقال من فكره الى يرآعه • فانى لأعانى من تعريبذلك الكتاب ما أعانى ، اذا به قد انتقلطفرا من سرد تلك العظات ، الى الخوض فى السياسة

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع الى فلكالسياسة دائب الرصد لاجرامه ، مسلس العنان لجواديه : فكره ويراعه

فما كاد يأتى على ذلك الفصل السابق حتى تدفق فى سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين بأسـماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد • فرأينا أن نغفل ذكرها وأحببنا أن يكون الكتاب غفلا من تلك الاحاديث المبتورة التى لم يكن لها أثر فى غير ذهن واضعها ، وان القارىء ليخرج من قراءتها ومافىيده شىء منها ما لم يكن ملما بحوادث تلكالسنة واقفا على تاريخ هذه الامة ، ومن لنا بمثل ذلك القارىء الخبير



الفصل الثانى

فانتين

ولدت تلك البائسة فى قرية «مونتراى سيرمير» ولا تعرف لها أما ولا أبا ولا من يمت اليها بحبل القرابة ، ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك، فوردت سجل العناء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سن الطفل الدارج ، وانها لتدرج ذات يوم فى الطريق وهى تنتعل أديم الارض (١) اذ من بها بعض السابلة (٢) وسماها « بفانتين » ومن ثم أصبحت تدعى بذلك الاسم الذى أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهمل جبينها

ولما بلغت العاشرة من عمرها ـ ولا أدرى كيف بلغتها ـ خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت فى ضواحى تلك القرية

فمازالت تكدح فى طلب العيش حتى يفعت أو كادت تيفع ، فعافت نفسها البقاء على تلك الحال ، وساقها قائد الاضطرار الى الانزعاج عن الوطن ، فشخصت الى باريس ، وألقت نفسها فى معترك تلك الحياة الجديدة ، فمازالت تعمل لبطنها ، وهى تطرق أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها الى نهلة من موارد الغرام

وكانت على جمال تولت عفة النفس حراسته ، وقد غنيت

---

(١) بلا حذاء . (٢) عابر السبيل

ببهجتها عن بهجة الحلل ، وامهرها الحسن بما لم تمهر به أترابها ، أمهرها بالنفيسين : العسجد فى شعرها واللؤلؤ فى ثغرها

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد ، حتى وقف بها على منهل قد رق ماؤه ، فاذا بها ترى فيه وجه ذلك الانسان الذى غلبها على قلبها ، فأرضعها أفاويق الآمال وارشفها رضاب الامانى ، حتى اخذت عفتها تتسلل قطرة قطرة ، وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله

وكانت فى مبدأ أمرها ، حيث كان الغرام طفلا والعفاف فتيا ، تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها ، وتجهد جهدها فى الميل عن ذلك الساحر، ولكنها ماكانت تميل عنه أصبعا الا لتميل اليه ميلا

كذلك كانت حالها حتى أصبح الحب وقد غلبها على أمرها وسقطت بين ذراعى ذلك الاثيم فافترشها ماشاء

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء اذا لم تحصن نفسها ، وغادرها وهى جفن سلاح (١)

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة ، وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح ، فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء

وكان الرجال فى بلاد مختلفـــة وقد هبطوا باريز فى أيام العطلة السنوية

وما كاد ينصرم أجل تلك العطلة حتى انصرم حبل الوداد ، واختفى أولئك الاربعة فى يوم واحد

وانفرط على اثر اختفائهم عقد التئام الفريق الثانى ، فبقيت فانتين وحدها بلا انيس غير ذلك الجنين الذى كانت تحمله فى احشائها ، فانقطعت عن الناس وانزوت فى بيت

---

(١) حبلى

الاحزان ، وجعلت تعانى من ألم الفراق ما تعانى
وزكا حب ذلك الغائب فى فؤادها . وخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتابا تدعوه اليها ، وابطأ خبره عنهـــــا ، فشفعت كتابها بثان وعززته بثالث

وما زالت تستكتب الناس وترتقب الجواب ، حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط ، فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج (١) أسفا على حالها ، ووضعت حملها فاذا هو طفلة فسمتها « كوزيت »

وأقامت ماشاء الله حتى نزلت بها الضائقة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق

وكانت لها فضلة مما كانت تتعجل به فى أيام لهوها ، فما زالت تنفق منها وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها ، حتى امست وليس فى يدها ما تستعين به على سد حاجتها

وقد زهدتها أيام قرب الحبيب فى مزاولة العمل الذى كانت تصيب من ورائه الرزق لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة الى العمل ، ففتر ذلك النشاط الذى ولدته فيها الضرورة ووهى العزم وفنى الحزم

وأصبحت ترى الارض فى ناظرها وهى أضيـــق من كفــة الحابل (٢) ، فعزمت على التحول من باريس والعــودة الى مسقط راسها ، وقالت : لعلى اجد هناك ماأصون به أديم هذا الوجه من الاخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة

ولما صحت عزيمتها على ذلك جمعت اليــها ما بقى من حاجتها وباعت فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشى على استحياء وهى كاسفة البال سيئة الحال وليس وراء مابها من الهم غاية

وتنكر لها كل شىء فودت بجدع الانف لو أن ظهر الارض

---

(١) الودج عرق فى العنق ينتفخ عندالغضب ، والمراد شدة الندم
(٢) كفة الحابل حبالة الصائد

من الانس أعرى من سراة الاديم (١) . فسارت ولو رآها أقرب الناس عهدا بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بهـا من الهزال ، واخترم جسمها من السقم ، وان كانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر

□

اخذت طريقا الى بلدتها وجعلت كلما أخذ منها التعب تنتحى ناحية من الطريق ، وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها

ونزل بصدرها نازل من السعال دعته الرضاعة الى النزول بذلك الصدر الضعيف ، فضاعف من وصبها وزاد من المها ، وما زالت ترمى بها المرامى حتى وقف بها السير على نزل (٢) حقير بقرية « منتفرمى » كان قائما على رأس طريق يدعى بطريق الخبازين أسس فى صدر القرن الرابع عشر وزالت معالمه اليوم

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الانس يدعى « تيناردبه » وكانت من تحته ذئبة هى احدى الذئاب وأضراها تدعى باسمه وهما يقطنان مع أولادهما فى ذلك النزل

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة « واترلو » فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحا كبيرا قد نقشت عليه هذه الكلمات : « هلموا الى جندى واترلو »

ورسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلا آخر عليه شارة القواد تلمع على كتفيه النجوم ويشرق فى اثوابه الدم . وهما تحت جو أشبه بجو المواقع ، عقد الدخان فوقه سماء مكفهرة الارجاء

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتية من تلك العجلات

---

(١) سراة الاديم ، ظهر الجلد . والغرض الا يكون فى الارض انسان
(٢) النزل : الفندق

التى كانت تستخدم فى ذلك العهد لحمل الاثقـــال وجلب الاشجار من الغابات . وكأنها لم تطرح فى ذلك المكان الا لتصدأ أو لتزحم الطريق ، أو لتجعلها تلك الذئبة الضارية أرجوحة لوليدتيها

وقد ستر الوحل أخشاب تلك العجلة وكســا الصدأ حديدها ، فأقامت فى الطريق وهى كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرة فى سبيل الشرائع الغابرة

واتفق أن وقفت « فانتين » على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها ، وقد وضعتهما فى الارجوحة ، وهما كأنهما قمران فى طفاوة (١) أو زهرتان فى كمام

وكانتا متعانقتين فى هزة ذلك المهاد ، وصـــغراهما بين ذراعى كبراهما ، وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهــرا ، وأوشكت الصغرى أن تهل العشرين

وجلست أمامهما على كثب منهما تشارفهما وتتغنى بشىء من الكلام المقفى . وانها لتشدو كذلك اذ وقفت فانتين على رأسها وقالت : « لعلك أم هاتين الزهرتين ؟ » . فلم تحر جوابا ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جواب الطرب فى ميدان الغناء . فعــاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقا بالوصول الى مسمع تلك المندفعة فى غنائها . فالتفتت اليها ، فاذا هى ترى فتاة قد أنصب بدنها السير وكدها الهم والصبر ، ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء . وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال، وأوشك ان يذهب البكاء بما كان كامنا فى محاجرها من ذلك السحر الحلال . فانتقلت حمرة وجنتيها الى عينيها ، وهاجر سواد لحظهــا الى حظها وامتد اصفرار شعرها الى لونها ودب سقم جفنها الى صدرها ، وسرى نحول خصرها

---

(١) الطفاوة دارة القمر وهالة نوره . والكمام جمع كمامة وهى غطاء الزهرة

الى جسمها ، والتقى فى مآقيها دمع الحزن بدمع الدلال ، واجتمع فى قدها ذلك الهيف وذاك الهزال

وقد أدمى ادمان وخز الابر سبابتـــها أيام كانت تخيط لتعيش ، وذهب الفقر بزينتها ، فليس عليها من الثيـاب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحر

□

تلك فانتين التى كانت تقف على جمالها العيون ، ولو انها تبتسم اليوم ، لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم فى ثغرها ، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلا الى ذلك الثغر الذى كان منطبقا على ثناياه انطباق المحارة على الجوهرة

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التى أودعتها كل ماتملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساذجة الطرف عبلة (١) الساق وضاءة الجبين . لها من صدر أمها مهاد ، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد أجفانها ، فنامت نوما هنيئا بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان

فقالت لهـا ربة النزل وقد رفقت في القول : « نعـم همـا ريحانتاى » ثم دعتها الى الجلوس بجانبها على عتبة الدار ، وأنشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنهـا فى القول وتلين لها فى الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شـأنها ولا تلك الرقة من طباعها ولكن ربما وجدت الرحمة مسربا الى تلك الافئدة الغليظة عند ذكر صغارها

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهى فوق الطويلة ودون البادنة يزدهيها شيء من الخلاعة ، ويشـوب لسانها نوع من التزويق ، شأن أرباب الفنادق ، ولا أحسبها فى ذلك العهد الا وقد جاوزت حد الثلاثين

---

(١) عبلة الساق مفتولتها

ولو انها انتصبت قائمة لراع «فانتين» طول قامتها ولذهب بارتياحها وسكونها الى محادثتها ، ولا بدع فانها لم تكن الا حرث جندى وفراش وحشى (١)

ولما فرغت من حديثها ، أخذت فانتين تنفض اليها جملة حالها ، غير انها كتمتها امرها ، والقت فى روعها انها أرمل قد مات عنها بعلها . وان الحرفة التى كانت تزاولها قد كسد سوقها فى باريز فغادرتها وخرجت تضرب الارض رجاء ان تصيب رزقا لها ولطفلتها ، وانها قضت عامة يومها وهى تعانى تعب السير على قدميها ، وأن ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بنصيبها

وما كادت تأتى على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها اليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبلة ، وجعلت تدور فى هذا الفضاء بعينين قد جال فى انسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة ، وقد نم نظرها عن سر تلك الفطرة السليمة التى لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة الا كمثل السماء صفا اديمها بجانب الشفق شابته الشوائب ، وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها فى هذه الفترة انها ملك من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى

وما هى الا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعة بتلك الارادة التى لا يقف فى سبيلها شىء عند أولئك الاطفال ، وقد حاولت أمها أن تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها ردا . ولما صارت على الارض أخذت تدب حتى انتهت حيث الارجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر ، وكأنها تعجب مما ترى، وقامت الام الى بنتيها فأنزلتهما الى الارض ، وقالت لثلاثتهن

---

(١) اى كانت زوجة جندى او زوجةرجل متوحش

هيا العبن جميعا . وربطت السن بينهن عرى الائتلاف فطفقن يمرحن ويلعبن وينكتن فى الارض نكتا

وكانت تلك القادمة الجديدة اكثرهن مهارة وأبرعهن يدا فى حفر تلك النكت

وجلست ربة النزل الى فانتين تحادثها وتحاسنها وما زالت بها حتى خلبتها ، وأنست منها الارتياح الى سماع حديثها ، فأقبلت عليها بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهى تخبرها

وبينما تتحادث الأمان فى ناحية ، وتلعب الصغار فى ناحية اخرى برزت احدى بنات الأرض من خدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت ، فراع الصغار منظر تلك الحشرة وجزعن لرؤيتها جزعا شديدا وأشفقن منها وقد ضمهن الخوف الى بعضهن فتقاربن حتى التصقت جباههن واستولى عليهن الدهش جميعا

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهن على تلك الحال وقد تجمعن ، فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل ، فقالت : لفانتين وهى تحدثها : « الا تنظرين الى هؤليات الاخوات الثلاث ؟ »

فوصلت تلك الكلمة الى فؤاد فانتين قبل سمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها : « لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسى منذ رأيتك ، فأنى قد عولت على مغادرة ابنتى بهذا النزل . افلا تكفلنيها ؟ »

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم ، واشارت برأسها اشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول

فقالت فانتين : « ولا احسبك الا ستعجبين من أمرى ، ولكن الحاجة تدعونى الى ذلك ، فقد استحال على أن أجمع بين السعى وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية الى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعى امها الجديدة وباعثة لك فى كل شهر بما يقوم بنفقتها ، وآخذة

على نفسى القيام بدفع اثنى عشر درهما فى كل شهر لكفالتها فانظرى ماذا تأمرين »

وما هى الا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعت فى صحن تلك الدار صوتا شبيها بصوت انفجار البارود وقائلا يقول لها : « أولى لك أيتها القادمة أن تدفعى أربعة عشر درهما ، وقد استحال غير ذلك » !

فقالت فانتين : « كذا فليكن » ، ثم نظرت الى صاحبتها نظرة المستخبرة عن صاحب ذلك الصوت ، فألمت تلك الذئبة بمقصدها ، فقالت : « أنه صوت زوجى وهو رب النزل وصاحب الأمر والنهى فيه ، فلا تجعلى له سبيلا الى رفض ما تطلبين مهما اشتط فى الطلب وكلفك ذلك من المؤونة »

وقال الذى هى فى داره : « لن نقبل الكفالة ، أو تعجلى بدفع نفقة ستة أهلة ، وتتركى عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر » ، ثم لبث غير بعيد وخرج اليها باسطا يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة فى وكر الصقور . وسارت ومدامعها تسابق خطواتها

□

وما كادت تغادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على اثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسم ما فى فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة الى القلوب سبيلا

وقالت المرأة لزوجها : « ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل ؟ وانى لأرى لديها من الثياب ما يقوم ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كاهلنا من الديون ، فان رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها ! »

فقال الرجل : « ومن الرأى أن تعجلى ببيعها اليوم ، فان غدا لموعد المقاضاة وليس فى أيدينا ما يسد مطالب الغرماء »

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء فلبست ثياب الذل ، وطرحت رداء الدل ، وكانت كلما شبت يوما شب معها البؤس عاما ، حتى أصبح الثرى مهادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذراعها خشونة الجماد

اين عين فاتنين ترى ذلك الطمر (١) الذى تضل الأبر سبيلها فى شقوقه ، وينتهى العد دون خروقه ، تضحى (٢) فيه وتخصر (٣) وتنطوى تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب الى كنس الدار والفناء ، وتنطلق ، والصبح والليل خيطان ، الى حمل الماء ، تنطلق الى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القر والقر شديد ، وتقطع الطريق وهى طويلة ، وتحمل الجرة وهى ثقيلة ؟

أين عين فاتنين ترى تلك اليتيمة وهى تحت الخوان تؤاكل الجرو والهرة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهر وفوق الكلب « والهر ينتقى ما طاب ، والكلب يلتهم كل ما أصاب »

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدون انفاسها . فاذا تنفست قالوا لها : « لقد أفسدت علينا الهواء » ويرقبون حركاتها ، فاذا تحركت قالوا لها : « لقد كدرت علينا صفو السكون » حتى ضؤل جسمها واضمحل رسمها

ولؤم صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الاجر لتلك النفقة الفادحة

وكأن الخبيث قد ألم بباطن الأمر ، فقال لامرأته ذات يوم

---

(١) الثوب البالى (٢) يصيبها حر الضحى (٣) يصيبها البرد

« انى لا أعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، ان هى الآ بغى قد غلبت على أمرها وما جاءتها تلك الطفلة الا من طريق السفاح. ولا أرى شيئا هو أصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة فى النفقة لعلنا نصيب من وراء ذلك ما نوفى به الديون، وانى ليعرض لى أن فانتين لا ترى بدا من الاجابة رجاء ان يختفى امرها ولا احسبها الا ستخضع خضوع المضطر ! »

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء ، وكلها فى طلب الزيادة فى النفقة ووصف ذلك النعيم التى ترتع فيه طفلتها ، وكانوا كلما أفرطوا عليها فى العذاب بعثوا لأمها بما يسكن من نفسها حتى أرسلت لهم قوتها وكل ما تصل يدها اليه ، فصلح شأن أصحاب النزل ووفوا الديون وأصبحوا ببركة وجود (كوزيت) وكدح تلك الأرملة وهم فى سعة من الحال وبشاشة من العيش

وما كان خبث نفسيهما وحده كافلا للسعادة فان النزل قبل حلول (كوزيته) لم يكن شيئا مذكورا فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعانى من ألم الشقاء ما تعانى وهم يمرحون من وراء عذابها فى بحبوحة النعيم

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقد حال طفلتها لانكرت رؤيتها ، ولغاب عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء

وكانوا يتحدثون فى تلك القرية بأمرها فيقولون أن أصحاب النزل على ما هم فيه من الكفاف وخشونة العيش يغشون طفلة لقيطة ويربونها احتسابا ، فنعم العمل ونعم الأجر والثواب

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت فى طريق قريتها التى ولدت فيها حتى اذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فاذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل

بها أودية الرخاء ويبسم ثغر السعادة

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ، وأصبحت حركة الأشغال ، لدوام اتصالها وسرعة انتقالها ، وهى أشبه شيء بحركة الأرض . وكانت قد هجرتها منــذ اثنتى عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت فى نفسها : « لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائي . فاني ما كنت أهبط دركا فى مهاوى الشــقاء حتى كان يعلو درجة فى مراقى الهناء »

ولقد صدقت فانتين فى حديثها لنفسها فان هذا البلد قد ادر الله لأهله اخلاف الرزق ، ودخلت فيه السعادة بدخــول رجل هبطه عنــد انطواء أجل ســنة ١٨١٥ تحت جنح من الدجى ، فكتم الليل أمره

وشبت نار فى احدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهب الناس لاطفائها . فاندس الرجل فى غمارهم وغامر بنفســه فى النار ، وكان أول المتوقعين عليها ، حتى استل من فمهــا طفلين أوشكا أن يبيتا رزقا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأوا اذنيه حمدا وثناء ، ولم يسألوه عن أجازة المرور ، ولم تمر بهم خلجات من الشك فى أمره وان كان غريبا

وبقى مادلين (١) وكذلك سمى نفســه ــ فى تلك القــرية واتخذها وطنا له ، ولا يعلم أهلها من أمــره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح . وكان قــد وقف على ابواب الخمسين من عمره. وأصبح كثير الاطراق كلفا بالعــزلة ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل فى مصنع للتجارة كان قائما هناك واحسبه دخل فيه أجيرا ، فأقبلت دنيــاه ــ وناهيك اذا أقبلت ــ حتى أصبحت فضته ذهبا وامسى تراب عمله تبرا .

---

(١) مادلين هو جان فالجان بطل الرواية

ولم تكن الا دورة من دورات الفلك حتى أصبح ربا لذلك المصنع . فاثرى الرجل اثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان ، فأقام للأجراء دارا ، وشاد للأجيرات أخرى ، وأجرى عليهما الأرزاق ، وفرش الحجرات بفاخر الاثاث ، وكان لا يدخل فى عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء . فاستقامت له الأمور وتقلبت به أحوال جميلة حتى أصبح ذا وفر كبير . فكانوا يقدرون ما أودع فى خزائن المصارف بخمس وعشرين الف قطعة ذهبية

وما آلت اليه تلك الوفرة حتى أنفق مثيلها فى صالح الأعمال ومواساة البؤساء . وشاد فى القرية مدرسة للذكور وأخرى للأناث ، وأجرى عليهما الرواتب ، ووسع فى نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلا ولا يرد عاملا .. فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت اذا غشيت دارا رأيت من بها فى هناء ، واذا طرقت حانوتا وجدت صاحبها فى رخاء

كل ذلك كان بفضل الانكماش فى الأعمال ، وبركة الكسب من الحلال

وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذى ترى الا بطرح الاثرة ومصارعة الجشع ...

ولقد بلغ به من حب الخير أن أقام ملجأ للعجزة والمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم (بمثله) . وجعل فى مصنعه خزينة لمساعدة عماله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة

ولم يزل نجمه فى سعود ، وهمته فى صعود ، حتى نبه ذكره ، وعم خيره ونمى خبره الى بيت الملك

فارتاح الملك الى سماع ما أنهوه اليه من أمره ، ورأى أن يجعل له ثوابا على ذلك العمل المبرور ، فأمر باقامته شيخا على ذلك البلد

ولما بلغته ارادة الملك بالغ فى الضراعة بالتماس الاقالة ، حتى

اقالوه ، فعجب الناس من أمره ، فمنهم من أخذها عليه ، ومنهم من عدها له ، فقال قوم انه النزق ، وقال آخرون انها القناعة

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدد الملك ارادته باقامة « مادلين » شيخا لبلده ، وجدد مادلين طلب الاعفاء !

كل ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ، ويسمو علو قدره ، حتى حيته العظماء ودعته الأندية العالية ، وحتى مشى اليه الكبير والصغير بالرجاء الى الخضوع لتلك الارادة ، فأكره على ذلك المنصب اكراها

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الألسن ، ولا يحفظون له غيبا ، فقالوا حينما رأوه يجمع فى أول أمره الأموال انه تاجر يطلب الاثراء

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه ان به لجشعا . وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور انه افقى لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا انه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى

◻

ولبث مادلين فى يومه مثله فى أمسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه ، فبقى على عهدنا به من مداومة الاطراق ، وحب العزلة عن الناس

فاذا رايته رايت شيخا آذن ليل شعره بالرحيل ، وقد لوحته الشمس ، وجال فى عينيه الوقار ، ولاحت عليه سحنة الفلاسفة

وكان يجلس للنظر فى أمور الناس ، فاذا فرغ من ذلك

انكفأ الى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب . وقد رأى ان يعوض ما فاته من تحصيل العلوم فى ايام صباه ، فعكف على الدرس فى ايام شيخوخته وان كان الفقر قد منعه فى اوليات عمره من مزاولة التعلم ، فقد ساعده الغنى فى اخرياته على تناوله ، ورأى من الكتب صدرا حليما ، وودا مقيما ، فسكن الى صحبتها وارتاح الى عشرتها

وكان ينطلق اذا شمر النهار الى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قد اتقى الله فى استعمالها ، فما هاج بها غرابا ساقطا ولا غال طائرا لاقطا . ولكنه كان يحملها لرد الغوائل ، فيصحبها فى وقت امنه لتؤمنه فى وقت خوفه

وكان مع ذلك ماهرا فى التسديد ، حاذقا فى التصويب يصوب على الشيء ويرمى ، فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء

وهو فتى القوة ، قوى الساعد ، يرفع الجواد على كاهله ، ويمسك بذنب الفرس ، ويخلد به الى الارض فيتحلحل اذا كان قويا ، ويقعى اذا كان ضعيفا ، ويستقبل الثور الهائج فيأخذه بقرنيه

وهو على ما فيه من القوة والبأس ، رقيق القلب يجد من الالم لغيره ما يجده لنفسه ، فما مرت به جنازة الا وكان اول المشيعين لها ، ولا امتحن انسان بمكروه الا وكان اول المعزين له . وتراه عند انطلاقه الى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح نوحهم ، ويرتل ترتيلهم ، وكأن نفسه تسبح فى غير هذا العالم وعينه تشخص لغير ما يدركه الحس ، وكأن اسلاكا من الالهام الالهى قد امتدت بين اذنيه وبين اسرار ذلك الابد ، فجعل يلقى بسمعه الى تلك الاصوات التى باتت تشدو بحزن على حفافى هاوية الفناء

وكم من يد له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم

وهم غير شاهدين ، فيلقى لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ، ثم ينسل تحت الليل كراهة ان يرى ، كأنه يرتكب اثما او يعالج اختلاس شيء

ويعود رب الدار ، فيرى فيها اثر (مادلين) فيظن اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال داره ، فلا يزال يتفقد حاله حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد ارادوا سلب نعمتى ولكن ابى الله الا ان اسلبهم مالهم ، وما ذاك الا لامر نزل بهم فأذهلهم عنه

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقير مؤونة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف .. ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التى كانت تستتر تحتهـا هموم صـدره وعن محاسنته للمعدمين . فهو كما يصفونه غنى لم يخرج به الغنى عن حد التواضع ، وسعيد لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح .

□

وفى اوائل سنة ١٨٢١ اجاب عابد (دينى) دعوة ربه وقد نيف على الثمانين من عمره ، فنعته الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع فى مسامع مادلين ، فوجد عليه وجدا شديدا وظهر من غده ، وعليه شارة الحداد . فتساءل الناس عن نبأه ومشى بعضهم الى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا فى ليل من الشك فى امر هذا الرجل ، حتى اضاء لنا حسبه الوضاح ، فما هو الا من تلك الاسرة الشريفة ، ولا ريب ان نسبه يتصل بذلك العابد التقى

واقـاموا على ذلك اليقـين اياما حتى تعرض له بعضـهم بالسؤال فقال وقد اخذ عليه طريقه : « انى اراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعى عابد مدينة (دينى) فهل انت ممن يمت اليه بحبل القرابة ؟ »

فقال (مادلين) وقد كان ينطق الحزن فى احشائه : « كلا ، وانما كنت فى اول امرى خادما عنده ! »

وكان العابد قبل موته قد كف بصره ، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد الما لفقدان نور البصر وقد بقى له نور البصيرة وبقيت اخته بجانبه لا تنحرف عن سراط طاعته ، ولا تنفك عن ملازمته . فهى لا تريم عن مخدعه ، الا لامضاء امره او قضاء حاجته . وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه ، حتى رأى انه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذى بات لا يغفل عن رعايته

ولبث ذلك البصـــير اميرا لدولة القلوب ، وكان يقول فى نفسه : « لو تم الكمال لشىء فى هذه الحياة الدنيا ، لاوشك امرى ان يتم كماله ، فانى ارانى لاينقصنى شىء من السعادة ، اللهم انك ان كنت قد استرجعت منى هبة النظر ، فقد جعلت افئدة من الناس تأوى الى ، اللهم أن من آوت اليه الافئدة ، كان خليقا ان يصبح حامدا ويمسى مشكورا »

وكذلك كان امره فى اواخر ايامه ، واخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه ، وان لم ترها عينه ، وتتحسس روحه روحها فى ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة ويبدو كوكب الصفاء

نعم كذلك كان امره حتى انتقل من نعيم دنياه الى نعيم اخراه ، وبلغ خبر منعاه (مادلين) كما ذكرنا فوجـد عليه موجدته ، واقام على حزنه حتى انصرمت ايام الحداد

▭

وما زال الزمن يحلل من حقد مبغضيه ويستل الوساوس من صدورهم ، حتى اصبح وليس فى القرية من يرتاب فى امره ، فسكنت اليه النفوس النافرة ، وعطفت عليه القلوب

الصوادف ، وبات موضع الحاجة ، ومحل الامل ، ومهبط الثقة ينتجعه المضطر ، ويستعدى به المظلوم على الظالم ، ويفد أليه المتخاصمان من الاطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ، ويوفق بين المتدابرين ، ويحكم بالتوفيق ، فلا ينحرف عن الحق كأنْ قانون الطبيعة البشرية قد طبع فى نفسه ، فطالعه ضميره وانطلق به لسانه

عطفت عليه القلوب الصوادف الا قلبا واحدا كان يبالغ فى الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس فى الميل اليه

وكان هذا القلب فى صدر رجل من كبار الشرطة قد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد (مادلين) وهو فى مبتسم زمانه وعز سلطانه وقد استقر فى الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مر به احس بدبيب الكراهة فى نفسه بصورة قد اعجزه ادراك مأتاها

ولا عجب فان لبعض النفوس اشرافا على خافيات الامور يولد فيها من الشعور الحقيقى ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى

وهو كذلك الشعور الذى يقع احيانا فى نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل او النفور عند النظرة الاولى ، ويقف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ، ولا يجيب نداء الضمير ، فيقاطع بينها ويباين بين طبائعها ويوحى اليها عند اللقاء ، فترى النفس التى ركبت فيها طبائع الكلب تركب نفرتها عند رؤية كل نفس قد ركزت فيها طبائع الهر

اقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكة بذراع اختها من نفوس تلك العجماوات

ولعلمت ان لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ويكيف اطواره ولادركت ان هذه الوحوش وتلك الاطيار لم تكن الا تماثيل اعمالنا فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهى

وان لم تدركها الابصار قد علمت بوجودها النفوس الهاما من الخالق الذى جعلها لها تذكرة واعتبارا

اما الآن وقد سلمت معنا ايها القارىء ان لكل انسان حيوانا يمثل طباعه ، فقد سهل علينا ان نمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطى واعنى به (جافير)

زعم بعضهم ان الكلب اذا وقع على الذئبة اولدها جروا وان الذئبة تخشى ان هى انتظرته حتى يشب ان يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحى عليه وهو صغير .. فلو اننا جئنا بذلك الجرو ، واسكناه فى هيكل بشرى لتبين فيه القارىء شخص (جافير)

ذلك هو الرجل الذى ما فتىء يتعقب (مادلين) ويسير على اثره مسير القضاء فى حجب الغيب ، فهو اذا لمحه ماشيا كاد بصره ينهب مواقع اقدامه ، واذا سمعه محدثا كاد سمعه يختطف الفاظه قبل ان تبرح فاه ، وكلما وقع تحت بصره قال فى نفسه : «ترى اين نظرت هذا الرجل؟» وجعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شىء درج فى اثناء النسيان ، وينتهى بقوله : « لن يغلبنى هذا الرجل على امرى وان بالغ فى اخفاء امره »

وكان (جافير) مقيما بتلك القرية كبيرا لجماعة الجواسيس من الشرطة ، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة ، وتهب من اردانهم ريح الخساسة وكذلك كان جافير ولكنه لم يكن خسيسا

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت امه سجينة ، وهى من هؤلياء النسوة اللاتى يحترفن باستطلاع الحظوظ من اوراق اللعب ، وكان ابوه سجينا بسجن الرجال . فشب ابن السجينين فى حجر البؤس والشقاء ، ولما بلغ اشده نظر فرأى بينه وبين ذلك المجتمع الانسانى سدا قد استحال عليه ان يجاوزه . وعلم ان هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السد الا

احد رجلين : رجل ناصبه العداوة فعمل على كيده ، ورجل منحه الوداد فعمل لمناصحته

وقد وجب ان يكون جافير احد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الاول ، وسكنت الى الثانى . فانتظم فى سلك رجال الشرطة واخلص فى العمل وحرص على الطاعة حتى عهد اليه بأمر التفتيش ، واصبح كبيرا لفرقة من الجواسيس

وكان يمقت الاشرار مقتا شديدا ويتفانى فى الايقاع بهم ، وان كان هو من سلالتهم

وقبل ان يسترسل بنا القلم فى تصوير خلق ذلك الرجل فقد راينا ان نصور للقارىء خلقه فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصة به ، وكانت له لحية قد اغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها ، فأخصب عاليها واجدب سافلها واستهلت ذراها عند العارضين ، واكتثت اصولها عند العنفقة (١) وكان افطس الانف غائر المنخارين يخال الناظر الى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد اقاما بين غابتين ، وكان اذا تبسم وقل ان يقع منه ذلك اراك ثغره اصول انيابه ، فهو اذا ضحك فنمر ، واذا غت (٢) من ضحكة فعقور اتخذت العبوسة مسكنا لها بين عينيه ، واطلت النفرة من محاجره ، وستر شعر راسه جبينه وحاجبيه

□

ذلك خلق(٣) الرجل تصورها للقارىء ،واماخلقه فقدكان قائما على خلتين كريمتين : احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها

---

(١) شعيرات بين الشفة السفلى والذقن (٢) غت الضحك اخفاه

(٣) خلق الرجل بفتح فسكون خلقته وهيئته . اما خلق بضم الخاء واللام فهو : طبعه وميله

غير أن المغالاة فيهما قد خرجت به عن حد الاعتدال فأنكر الناس منه ذلك

فكان يرى ان كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخلٌ فى باب الاستخفاف بتلك السلطة ، ويسترسل فى الثقة بكل عامل فى الحكومة وزيراً كان او حاجبا

وينظر بعين النفور والبغضاء لكلِّ من ولج باب المخالفة ، وهو لم يقع منه ذلك الامر فى حياته

ويقول وهو يعتقد ما يقول أن القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون ، وان رجال الحكومة لهم اشراف على الامور فهم لا يخدعون . ويزعم ان التوبة لا تغسل الحوبة ، وان المرء اذا اجرم مرة عاش دهره مجرما لا تنفعه الانابة ولا يلوى بجريمته العقاب

كذلك كان يبالغ فى الخلتين ولا يستثنى أحداً فى الحالتين

وهو مع ما ذكرنا عنه وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالى النفس مهيب فى العين قد ارصد حياته لشيئين لا ثالث لهما : السهر ، والمراقبة

وكان يعمل على كمالِ اليقين من انتفاع الناس بعمله ويراقب الله فى ذلك العملِ ، ولا ينحرف شعرة عن اوامر الدين ونواهيه ، فهو فى حرفته كالراهب فى عبادته

والويل ثم الويل لمن وقع فى مخالبه ولو كان من ذوى قرابته ، فانه ليرد اباه الى السجن اذا قبض عليه وهو فار ، وليعارض فى رجوع امه الى بلدها الا بعد انقضاء سجنها

وانه ليفعل ذلك وهو اروح ما يكون نفسا واهدأ ما يكون ضميرا ظنا منه انه انما يرضى بذلك شريعة الارض ولا يسخط شريعة السماء

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه انسان مرة متراوضا ، ولا لمح عليه اثر الترف والنعيم ، كأنه لم يخلق لغير الكد والعناء بين المراقبة والاختفاء

وكنت اذا رأيتــه فى حين تجسسه رأيت رجلا قد غاب جبينه تحت قلنسوته ، واستترت عينــاه تحت حاجبيــه ، واختفت يداه تحت كميه ، وانزوت عصاه تحت ردائه ، حتى اذا عن له صيد او سنحت له فرصة انتفض فظهر لك ما اختفى من امره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة الى نور

قلنا انه لا عيب فى ذلك الرجل غير تلك المغالاة ، فهو يغالى حتى فى معاملته لنفسه . اللهم الا ساعات معدودة من ايام حياته ، كان يرى فيها نفسه راضية عن نفسه فيهون عليها بعض الشىء من تلك المعاملة

وآية رضاه عنها ان يعمد الى لفيفة من الطباق (١) فيشعلها وكان ذلك مبلغ ارتياحه لنفسه وغاية رضاه عن مغبة عمله

ذلكم (جافير) ومن ذا الذى ينكر خطر (جافير) ؟ هو حرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، اذا لفظ اسمه امام اشد العتاة انقلب على عقبيه مذعورا ، واذا لاح شبحه امام احد الفارين تقيد فى مكانه بقيد من الرهبة

فويل لك يا (مادلين) من هذه العين التى تترسم أثرك ، وتلك الاذن التى تتسقط خبرك ، ولا احسبك الا واجدا فى نفسك ما يجده لك ذلك الرجل فى نفسه

فانت بالذى فى قلبك عالم بما فى قلبه ، وان كنت قد تحفظت ما شئت ، وصابرت ما استطعت ، وتكلفت السكون عند لقائه وتحاميت طريق صحبته وجفائه ، وزكنت منه على مثل ما زكن منك ، وسألت ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمة بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير بابا من الدهاء ابطله عليه مادلين بقوة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الاول ولزم بيته ثلاثة ايام ، وكاد يأكل

---

(١) المعروف الآن بالدخان او التمباك

مقراض اليأس خيوط آماله ، واوشك ان يعتقد بحلول الفشل في مساعيه واعماله

واتفق ذات يوم ان خرج احد سائقي العجلات ومعه عجلة يجرها جواد . فانطلق بها في طريق الوحل ، فغارت فيه قوائم الجواد واكب لوجهه ، وسقطت فوقه العجلة ، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها فاستقرت فوق صدره فجعل يستغيث ويستنجد وهو مشفق أن يبتلعه الوحل . فهب الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون اليه ، ولا يقدم أحد على الأخذ بيده

وأقبل (مادلين) مهرولا فنظر الرجل تحت العجلة يسوخ في الطين شيئا فشيئا ، وهو كلما اضطرب طلبا للخلاص كان اضطرابه مساعدا على وأده في الطين حيا ، فأشار اليه مادلين بالسكون ثم التفت الى الجماعة وقال : « أيكم قوى العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهبا ؟ » فوجم القوم جميعا ، فقال مادلين : « انى ارى الوقت ضيقا وارى أجل هذا الرجل اضيق منه فلا تخنسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهبا وان ابى الا المزيد فعشرون »

وما كاد يأتي على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلا يقول : « ان القوم لا تنقصهم الارادة ولكن تنقصهم القوة ! »

فالتفت مادلين ليرى القائل فاذا به جافير ، ولم يكن لمحه عند قدومه

فحدق فيه جافير وعطف قائلا : « وليعلم سيدى الشيخ انه ليس على ظهر الارض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة ، اللهم الا اذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرا من حياتهم في سجن تولون ! »

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لأول مرة ، وعلم أن جافير لم يقل ذلك الا تعريضا وتقريعا له ، ولكنه غالب

نفسه حتى ملكها . ثم التفت الى الجماعة ليرى أيهم أقدم على هذا العمل ، ولما لم يجد معينا جثم على الأرض ، ولم تكن الا جولة فكر ، حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحا على وجهه وقد حاول أن يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيه ليعتمد عليها فى رفع تلك العجلة ، فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب الجماعة اشفاقا عليه ، وظنوا أنه لا محالة هالك ، فصاحوا به : « أولى لك أن لا تطرح بنفسك ذلك الطرح من التغرير ، وانا نناشدك الله أن تستبقى حياتك »

وقال له سائق العجلة وهو تحت كلكل الموت : « انى أدعوك بالله أن تنجو بنفسك ، فانى ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله »

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس ، والقوم باهتون من عمله ، والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذر عليه الخلاص وانقطع خيط الأمل من نجاته

وان القوم ليحفز اليأس أحشاءهم واذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت ، وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذى رسخ تحتها وأخذت تصعد بعد ذلك الهبوط ، وسمعوا صوتا قد صحله (١) التعب يدعوهم الى نجدته ويقول لهم : « أعينونى بقوة فقد مكننى الله منها »

وكان ذلك صوت مادلين فأوفض (٢) القوم اليها ، وانتزعوها من مكانها ، وأفلت السائق من مخالب الموت ، والموت خزيان ينظر . وكان هذا السائق يدعى (فوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم

وقد كان فى أول أمره جنديا ثم صار تاجرا فاثرى ثم أملق حتى صار من سائقى العجلات . وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرد (٣) من الحسد كلما فكر فى مادلين وفيما صار اليه

---

(١) بح بتشديد الحاء من التعب
(٢) أسرع القوم
(٣) المحرود بفتح الحاء وكسر الراء المغيظ

أمره من الثروة والجاه ، ويقول لنفسه : « لقد قدم (مادلين) وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يحسد وأمسيت بحيث أكمد »

ومن هنا كان مبعث حقده عليه ومثار حسده له

ولما سار مادلين من تحت العجلة بعد انزلاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل (فوشلفان) حتى اقترب منه ، وانكب على ركبتـــه يقبلها وجعل يدعو له

كل ذلك والقـــوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون الى ذلك الوجه الذى بانت فيه آثار الجهد والعناء ، ولاحت عليه سيما السرور والارتياح ، و (جافير) يكاد ينشق غيظا فى مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنة ويلمحه لمحات معنوية

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كل لوجهة ، أمر « مادلين » بفوشلفان فحمل الى مصـــنعه وأفرد له فيه مكانا ووكل به اثنتين من الممرضات ، واوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفى النهار حتى أبل من مرضه

ثم وجه اليه برقعة وقع له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها أنه قد اشترى عجلته وجواده بهذا القدر من المال (وان كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم)

ولما أبل فوشلفان من مرضـه كان لا يزال يشكو بعض الألم باحدى ركبتيه ، فحال ذلك بينه وبين الرجوع الى حرفته ، فلذلك أقامه مادلين حارسا لبستان دير النساء بباريس

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة الى مادلين ببراءة وظيفته . وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التى تأذن له بالتصرف المطلق فى شـــؤون وظيفتـــه ، كادت تطير شظايا نفسه حسدا

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذى يقع فى نفس الكلب اذا وجد ريح الذئب مختفيا تحت ثياب ربه . ومن ثم جعل

يتحامى طريقه ولا يلقاه الا مكرها على لقائه
فكان اذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المسكين ، واذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين

هذا ما كان من أمر جافير ومادلين . ولقد طال عليك أيها القارىء انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف أمام تلك القرية

قدمت فانتين بلدتها ، وما نسيت ما كان من أمرها ، فوقفت تنظر اليها ، وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هى ترى وجه صديق لها ، وعرضت نفسها على رب المصنع ، فأمر بضمها الى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة ، وكان اجرها فى اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال مناها وأمست تعيش من كسب يدها . ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت فى العمل حتى برعت فيه وزادوا لها فى الاجر ، فأمكنها أن تكترى لها مكانا صغيرا وأن تبتاع بعض الأثاث بالقرض والنسيئة ، فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح الى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغرها ، وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير فى طفلتها وفيما سيكون أمرها فى مستقبل أيامها

وكانت تحرص كل الحرص على ارسال النفقة فى حينها وتبالغ فى كتمان أمرها وتحتجز من الناس غاية الاحتجاز وتتحفظ من أن تسقط منها لفظة تشير الى ذكر « كوزيت » أو محل وجودها أو أن تخوض فى حديث يجر الى ذكر الزواج ، ولكن أبى النحس الا أن يلازم طالعها فانها كانت كلما أرادت ارسال النفقة الى طفلتها فى كل شهر استدعت أحد الكتاب ،

فاستكتبته كتابا الى أصحاب النزل ، وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا ، فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل اكتم للسر ، فولد ذلك فى نفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك، ولفت أنظارهن الى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ، ويقلن ما لهذه الرسائل بد من سبب ، وما بال هذا الكاتب لا يأتى الا اذا اتى الليل ، وما بال فانتين كاسفة البال تنزوى فى طريقها عن الناس وتتحامى فى المصنع الاختلاط بنا

ولا تعجب ايها القارىء فان اشد الناس مراقبة للناس من كان أبعدهم نفعا من وراء تلك المراقبة ، فهو يراقب لغير نفع يجذبه أو مال يكسبه ، ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة فى الوقوف على أحوال غيره ، فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالىء كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ، ويكد ذهنه وينتصب بدنه ويصرف النفيس من وقته فى تسقط الخبر وتلمس اللفظ ، ويجمع كيده لاستبطان الأمر ويرصد نفسه لاستطلاع السر ، فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التى هى دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بانفاق بعضه فى سبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل فى زوايا الطرقات لا يبالى بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القر ، ويجلد على احتمال تلك المشاق حبا فى الاستطلاع ورغبة فى الاكتشاف ، حتى اذا الم ببعض الأمر وانكشف له جانب السر ، جلس الى أصحابه فى الأندية يحدثهم وهو يميل بسفالته تيها ، ويثنى عطفه كبرا كأنه قد اهتدى بأبحاثه تلك الى اكتشاف سر من أسرار الكون

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسوة اللائى يعملن بذلك المصنع فانهن قد افرطن فى مراقبتها فعددن أنفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون فى أمرها . لمحنها مرة وقد وقف الدمع فى عينيها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه فى خفية فتغامزن عليها بالعيون وأصبح الشك عندهن

يقينا ولم يكن علم الله بكاؤها الا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذى غلبها على أمرها . وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين الى معرفة العنوان الذى تكتب به ، واجتمعن بذلك الكاتب الذى كانت تستخدمه فى الكتابة ، فانطلقن به الى احدى الحانات ، وكان الرجل خفيف الحال مدمنا للراح يبيع ما فى فؤاده من السر بكأس الخمر ، فحططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من أسرار تلك الكتب ، فعلمن أن « لفانتين » طفلة وانها غادرتها بنزل فى قرية (منتفرمى) وما يكتفين بما وصل اليهن من ذلك العلم ، بل بعثن منهن رسولا يرى الطفلة رأى العين ، وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الاسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه ، فزاد ذلك فى دمامة خلقتها وكان زوجها راهبا قد فر من أحد الأديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده أرملا الى هذا العهد ، وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها

تلك (مدام فيكتريان) التى كانت رسولهن الى قرية « منتفرمى » وهى التى قالت لهن عند عودتها : « لقد ازلت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأى العين وأنفقت على ذلك مائة وأربعين قرشا »

□

واستغرقت تلك المؤامرة زمنا طويلا حتى استوفت « فانتين » عمر العام وهى بذلك المصنع . وفى ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الأجيرات فناولتها مائتى قرش ، وقالت لها ان رب المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان وان أحسنت الى نفسك فلا تسكنى القرية بعد اليوم

فجمدت « فانتين » فى مكانها وحاولت الكلام فخانها الصوت ونظرت الى وجه التى تحدثها فلم تلمح فيه للعطف

مجالا فخرجت تمشى على استحياء وهى أسوأ ما تكون حالا ، وكان ذلك فى الشهر الذى لوّم فيه صاحب النزل واشتط فى طلب النفقة منها فانكفأت الى حجرتها وجلست تفكر فيما سيؤول اليه أمرها ، وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ « مادلين » لتنفض اليه جملة حالها لعلها أن تصيب منه قلبا رحيما ، فمنعها الحياء من ذلك ، وقالت فى نفسها لقد أمر بابعادى لانه عادل ، وجاد بمائتى قرش لانه كريم ، وما عسى أن يفعل الرجل معى اكثر من ذلك وقد وقع فى نفسه ما أنهى اليه من أمرى ؟

وكان « مادلين » بريئا من ذنبها ولم يكن من عادته الدخول الى دار الاجيرات فلم يشرف على أعمالهن ، وقد عهد بذلك الى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة فأقامها رقيبة على الأجيرات ومنحها التصرف المطلق فى أمورهن . وكانت تلك المرأة بمنزلة من الامانة والرفق فى العمل واسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة التى اذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهى التى باشرت التحقيق فى أمر « فانتين » وهى التى حكمت عليها وقامت بامضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه

كل ذلك يجرى بالمصنع فى قسم النساء ومادلين لا يعلم منه شيئا ، ولا عجب فان امثال هذا الرجل من اصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر فى شؤونهم الى من يرون فيه الاخلاص ولا يحاسبونه يوما على ما يأتيه من ذلك العمل

□

ولما غادرت فانتين المصنع على اثر تلك المؤامرة لم تر بدا من البقاء فى القرية لانها قد ابتاعت أثاث منزلها بالقرض والنسيئة ، وقد بلغ التاجر ما نزل بها فأنذرها بسوء العاقبة ان هى غادرت القرية قبل وفاء دينه ، وكذلك كان

حالها مع ربة المنزل الذى استأجرت فيه قاعتها . على أنها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما فى المقاضاة فيما تبقى عليها وردت الى التاجر بعض ذلك الاثاث وحفظت منه ما لم تر بدا من حفظه وعولت على العمل ، فطرقت جميع الأبواب والتمست أن تكون خادما بأحدها ، فلم يكن نصيبها غير الرد والاعراض ، فعادت الى منزلها تتعثر فى ذيول الخيبة ، وما زالت تطالب فكرتها فى استنباط عمل تعيش من ورائه ، حتى فتق لها الذهن أن تعاود حرفة الخياطة ، فكانت تخيط الأقمصة لعساكر الحرس فتصيب فى يومها اثنى عشر صلديا تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين فى احراز مسكة الحوباء (١)

وكانت تساكنها فى تلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء ، وتقلبت بها أحوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس اليها فى كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش فى الخلة (٢) والضيق

وليعلم القارىء أن وراء العيش القليل منزلة أخرى ، وهى العيش من لا شىء وأن هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون واساليب فى الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدانق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجا متنوعة

ولقد أصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة فى فن الحياة فاستغنت عن النار فى الشتاء وعن اللحوم فى الطعام

وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها ، وادركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذى ينفذ من طاق جارها وكانت

---

(١) الحوباء النفس
(٢) الخلة بفتح الخاء الحاجة

تقـول لجارتها وهى تحدثها : « انى لأقضى عامة النهار وثلثى الليـل وأنا أخيط ، فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير ، وانى بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر

« ومن كان حاله كحالى من الهم ، كان خليقا أن لا يتناول غير القليل من الزاد ، فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأتئدم بهذا الهم الكثير ، وأجد منهما غذاء أمسك به النفس ، وأحفظ به الحياة » !

وفى تلك الضـائقة التى يخـرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها ، فتجد لذلك سرورا لا يعادله عنـدها شىء فيدعوها الشـوق اليها الى طلب استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها : « أى ذنب جنته تلك الصغيرة حتى يقضى عليها أن تشاطرنى هـذا البؤس ، وهب أن هذا الذى أنا فيه لم يكن بؤسـا فمن أين لى نفقـة الطريق ووفـاء ما على من الديون لأصحـاب النزل حـتى استخلصها من أيديهم ؟ ان هذا الأمل بعيد »

وكانت تلك المـرأة التى علمتها دروس الحيـاة من ذوات النفوس العالية ، وأهل العفة والقناعة تسـدى المعـرفة الى الفقير والغنى ، وتفعل الخير لاجل الخير ، ولا تعلم من الـكتابة غير رسم امضائها وتقول أن الله موجود ولا تعـرف غير ذلك

وكم من فضائل كامنة فى نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر الى الحضيض سـتعلو بهم ذات يوم الى عنان السماء ، فان لكل يوم غدا

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس اليها ، وهى على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج ، فلزمت بيتها زمنا طويلا ، وكانت اذا دعتهـا الحاجة للخروج لابتياع شىء أو قضاء أمر مشت فى الطريق وهى كاسفة البال تود لو ساخت بهـا الارض لتختفى عن أنظار المـارة ، وكانت تشعر كأنهم يترسمون بالنظر مواقع

اقدامهـــا ويشيرون بالاصابع الى رث ثيابهـــا ، فتغض من نظرها ، وتحتث قدميها للهروب من تلك النظـــرات التى اخترقت أهابها وأدمت فؤادها . ولو كانت تلك البائســـة بباريس لما لفتت اليها نظرا ولا اســـتوقفت ناظرا ولارخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون ، ولكن فى أمثال تلك القرى الصغيرة قل أن يجد الناس مايشغلهم عن مراقبة الناس

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهى تروض نفســـها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرارة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشـــعور من نفسها ، وصارت تمشى فى الطريق وهى طارحة رداء الخجل لاتبالى بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات ، وكانت تلازم ثغرها ابتسامة ، الله أعلم بما يمتزج بها من غضاضة الحياة ، وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الانف عالية الرأس

وكانت كلما لمحتها مدام (فيكتريان) حاســـبها الله وهى تمرح فى قد (١) تلك الخلة والضيق ، وتمشى هـذه المشية فى الطريق حمدت مغبة عملها واثنت على نفسها اذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل ســـعايتها الى ذلك الشقاء ، ومن الناس من لايجد سروره الا فى الم غيره

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الاذى

▭

قلنا أن فانتين كانت تقضى عامة النهار وثلثى الليل وهى عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى أوهن الآفراط من عزمها وزاد فى ذلك السعال الذى كان جالســـا فى صـــدرها فاشتدت بها الضائقة اشتدادا يغرب معه الصبر

---

(١) القد هو القدر ، والقامة

ولكنها كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذى أسقط الدهر أسنانه ، فكان أشبه الاشياء بثغر الادرد (١) فنظرت جمال فرعها المرسل ارسال الحرير، اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور

وكانت قد خرجت من المصنع فى أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وانطوى على أثره الصيف ودار الفلك دورته ، فاذا الشتاء التالى يقرع باب فانتين قرعا ينذرها بيوم قصير وجو مطير وضباب مقيم وأفق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه ، وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء ، وسماء مكفهرة الارجاء، وعيش كثير المؤونة ، وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف ، يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء ، ويتلمس المقرور النار ويضيق بصاحب الكفاف رحب الدار

فصل يحول الأفئدة الى صخور ، ويرد السائل الى جماد قد دهم فانتين وهى بين الخلة (٢) والقلة فزاد فى دينها وكساد حرفتها ، فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط القضاء ، وألح صاحب النزل قاتله الله فى طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين فى حياتها وحبب اليها قرب يومها

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها اصبحت عارية الجسد ، وأنها ان لم تتداركها بارسال أربعين فرشا لابتياع لباس لها ، فهى هالكة لا محالة . فوقع ذلك الكتاب فى نفس فانتين وأحزنها طول يومها ، ولما كان المساء انطلقت الى حانوت حلاق ، فوقفت أمامه ونزعت ذلك المشط الذى كان يمسك شعرها ، فانسدل على ظهرها وستر أردافها ، فصاح الحلاق : « لله ما أجمل ذلك الشعر ! » فقالت فانتين :

---

(١) درد الرجل ذهبت أسنانه ، فهو أدرد
(٢) بين الحاجة والجدب

« انظر كم تدفع من الثمن اذا بعتكه » قال : « أربعون قرشا » قالت : « عجل بقصه » فقام الرجل الى مقصه ، وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن فاشترت به لساعتها لباسا وبعثت به الى طفلتها . فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لانه كان يطمع فى الدراهم لا فى اللباس. فأعطاه الى احدى ابنتيه وبقيت كوزيت فى جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد ، كل ذلك وامها تظن انها باتت تمرح فى ذلك الكساء الجديد ، ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الالم الشديد

□

وكانت فانتين كلما احست بألم فراق شعرها ، وجدت لذلك بعض العزاء لانها لم تفقد ذلك الشعر الا لتحفظ حياة تلك الطفلة

وتمر ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها ويمتلىء حقدا على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول (مادلين) ذلك الذى كانت تشاطر الناس محبته بالامس ، وقد أصبح اليوم من ابغض الناس لكثرة ماسمعت من انه هو الذى امر بابعادها ، وانه أصل شقائها وسبب بلائها

وكانت كلما مرت امام ذلك المصنع تكلفت السرور والابتسام وجعلت تغني غناء رخي البال رضى الحال توهم بذلك أهل المصنع انها اليوم أنعم بالا منها بالامس ، وما خفي عن أصحاب المصنع امرها فقد قالت احدى عجائز الاجيرات حين لمحت فانتين وهى على تلك الحال : « ويل لهذه الفتاة من سوء المصير »

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حدثت نفسها ان تتخذ لها عشيقا جديدا ، وقررت أن يكون أول من تلقاه فى طريقها كائنا من كان . فوقف نصيبها على موسيقار ، رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف ، وسائل يستكف لا يعرف

العشق ولا يفقه معنى المداعبة ، فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن الى شيء من ذلك ، على انه ما لبث ان هجرها بعد أن ضربها ونهرها

فخلا فؤادها من كل حب الا حب طفلتها ، فكانت تراها فى ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع فى سماء آمالها ، نقول « آمالها » لانها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الآمال التى تلوح لها بوارقها فى جو الخيال

ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لاطاقت حمله ، ولكن صاحب النزل كان يزيد فى ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد

كتب لها أن ابنتها مريضة محمومة ، وانها ان لم تسارع بارسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فانه يخشى عليها عادية الموت . ولا تسل عما حل بها حين اخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها من الالم عن حد الادراك ، فجعلت تضحك وتهذى ، وخرجت تطفر فى الطريق طفر الاطفال ، وتضحك ضحك الابله المعتوه وتقول لنفسها : « قطعتان من الذهب .. اللهم غفرانك .. ان هؤلاء القوم لا يعقلون ! .. »

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب الاسنان يعرض عليهم أسرار صناعته وما يلتحق بعلاج الاسنان وتنقيتها ونزع المتأكل من الاضراس وغير ذلك . فاندست فانتين فى غمارهم وهى لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعى ، فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها : « أتبيعيننى ايتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب » قالت فانتين : « وما الثنيتان أيها الطبيب ؟ » قال : « هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك » فصاحت فانتين : «غفرانك اللهم ان هـــذا لهو الضلال المبين » ، وكانت بجوارها عجوز ورداء (۱) تسمع كلام الطبيب فقالت تكلم نفسها : « قطعتان من العظم بقطعتين من

---

(۱) سقطت أسنانها

الذهب ؟ لله ما أسعد تلك الفتاة ! » . على أن فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب حتى رجعت أدراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت أصبعيها فى أذنها كيلا يصل كلامه الى سمعها ، وهو مع ذلك يصيح فى اثرها : « أيتها الحسناء تمهلى فى الامر واستوزعى فؤادك يلهمك القبول ، واعلمى انك لم تغبنى فيما عرضناه عليك من الثمن فاذا كان المساء فاغشينا بدارنا بمكان كذا » . فوقع كلامه فى أذنها برغم أصابعها وزاد فى نفورها ، فانطلقت حتى اذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز ، وهى أشد ما تكون غيظا ، فأخبرتها خبر الطبيب وما كان منه ، وقالت : « لقد بعنا الشعر لانه يعود فينمو ، ولكن ماحيلتنا فى الاسنان ومفقودها كما تعلمين لايعود وهى حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال » ، ثم غادرتها وانكفأت الى حجرتها ، وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر فى مكانها حتى ندرت الابرة من يمينها ، فقامت مسرعة الى ذلك الكتاب المشؤوم وأعادت قراءته ورجعت الى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها ، فقالت لها : « انها مرض من الامراض يعترى الكبير والصغير وهو اليوم أكثر وقوعا فى الاطفال » فقالت فانتين : « وهل يجر هذا المرض الى القبر ؟ » فقالت : « نعم يجر الى القبر اذا تخلت عن المريض العناية » فخرجت فانتين من عندها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهبا للهواجس . ولما توفى الليل النهار رآها بعضهم وقد أخذت طريقها الى دار ذلك الطبيب ، فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين . ودخلت جارتها فى صباح الغد مبكرة اليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهى شاحبة اللون ، ساهية الطرف ، تنطق بوجهها آثار السهر ، ويدل تضعضع حالها على أثر نزاع قام بينها وبين ليل كان أطول من شعرها ، وأسود من حظها ، وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته ، وخلفت جوانبه شباكا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القر

وتقف جارتها أمام ذلك المنظر الذى يقطع نياط القلوب جزعا وتنادي : « ويلى عليك ايتها البائسة تشعلين الشمعة كلها فى ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الامر ، ومالى أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس ! » فالتفتت اليها فانتين وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية ، فأخذت من سباتها وبلغت منها ما لم يبلغه كر الغداة ومر العشى عشرة اعوام كاملة ، فتقول لها : « ليس بى بحمد الله من شيء ، ومن هو أولى براحة البال منى ؟ قد أمكننى الله من انقاذ طفلتى من يد الموت بهذا الذهب » . وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها ، فتصيح « : اللهم انها ثروة ، فمن أين لك هذا ، وقد عهدتك بالامس لا تعرفين وجه الفضة ؟ » ، فتبتسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دام قد لوث ركنى شفتيها وثغرة مظلمة فى وسط ذلك الثغر المضيء ، فتعلم جارتها كما علم القارىء أن تلك الثغرة المظلمة مكان تينك اللؤلؤتين

☐

وانطلى خداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين ، فوجهت اليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف ، ولكنه شرك قد مده لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها ، ولؤلؤ ثغرها ، وأصبحت عطلا من الحلى والجمال ، فكسرت تلك المرآة التى كانت تجد فى النظر اليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها ، وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية الى قاعة أخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين ، وكانت ذات سقف مسنم يرتكز وجهاه على وجه الارض اذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت أثقال العيش وأعباء الحياة

ولم تكن تشتمل على غير خشبة قد طرحت على الارض وخلقة (١) كانت تسميها غطاء ، وكرسى قد نزع تقادم العهد

(١) قطعة قماش بالية

احشاءه ، وجرة كنت ترى الماء فيها تارة سائلا واخرى جليدا ، وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها ، وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج فى الطريق وعليها ثوب خلق رديم ممزق الاديم قـــد أهملت رتق فتوقه ، واغفلت ســـد خروقه . وما ادرى أكان ذلك لضيق فى وقتها ، أو لعدم اعتناء منها بامرها ، وهى تنتعل حذاء قد كشر عن نابه ، تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقع ، يكاد اذا تنفست فيه يتقطع

وتنكفىء الى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة ، وعبست الخيبة فى وجه املها ، واشتد الامر وضاق ، وتقابلت حلقات الوثاق ، وسطا عليها سعالها سطو الجبار ، ولزمها ملازمة غرمائها بالليل والنهار ، فتقضى فحمة الظلام ، منفرة المنام سميرة الآلام ، حاضرة الدموع غائبة الهجوع ، وتفنى شمعة النهار بين وخز الابر ووكز الفكر وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها ، وهبطت اسعار الاجور فنزل اجرها فى اليوم من اثنى عشر صلديا الى تسعة فاستحال عليها امساك الرمق بهذا القدر اليسير . على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك ، ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ، ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها فى كتابه : « لقد عنينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فان لم تسارعى بارسال هذا القدر من المال نبذنا (كوزيت) بالعراء ، وطرحنا بها فى مساقط الفضاء ، فهى ان اخطأها برد الشتاء ، فليس يخطئها نازل البلاء ، ولقد ابلت اليوم من مرضها ، ولكنه ابلال يعقبه الموت ان فاتك فى أمرها الفوت »

فما الجرح ينكأ به الجرح بأوجع فى نفس الجريح من ذلك الكتاب فى نفس فانتين ، فانها قالت بعد تلاوته : « اللهم انك تعلم أننى بعت الشعر والاسنان بيعة وكس ، وصبرت حتى

ملنى الصبر ، وقد كانت لى صبابة عيش تكفينى السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى انضبتها ، اللهم لم يبق الا العرض ، وقد أمست تساومنى فيه الايام ، فلا راد لقضائك ، ولا مذهب من ورائك » .. !

□

ابى قدر الله الا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف وان لا تركب فانتين غير سبيل الخسارة ، فابتذلت خدرها ، وباعت عرضها ، وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الانسانى أمة فاشتراها . عرضها عليه فى سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد ، وكان فيها من الزاهدين ، فأف لتلك المدنية غلبت الناس على أمرهم ، وزادت فى أسرهم . نفس حرة تباع بكسرة ، وعرض مغبون فيه يتساومون ، ولا زلنا نسمع على هذه المدنية آيات المدح والثناء ، وتطن فى آذاننا أصوات المرجفين فى انحاء البلاد ، برفع الرق والاستعباد ، عن رقاب العباد . اين كتاب السيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح ؟ . طليتم وجه مدنيتكم بطلاء من كلماته ، وافرغتم فؤادها من حكمه وعظاته ، فتناول حكمه منكم الظواهر ، ووقف عن تناول ما فى السرائر .. أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق ، وفاتكم انه وان خف حمله عن أعناق الرجال ، فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء

تملق المرأة فتجوع وتعرى ، فتركن الى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها ، فتفزع الى السعى وراء الرزق من أشرف وجوهه فيقعد بها الدهر ، فتبيع الناس نفسها ، فيتنافسون فى المساومة ، حتى اذا ظفروا بامتلاك تلك النفس المعروضة فى سوق الشقاء ، سجلوا عليها فعلتها تلك فى باب الزناء ، وتغاضوا عن تسجيلها فى باب الرق وهو بها أحق وهى به ألصق

ويل للمرأة من الرجل يسترقها . وما يدريه ما المرأة .

هي وعاء النســل وظرف الحمل ، هى زينة الحيــاة ، وزهرة الجناة ، هى بيت الجمال وموطن الدلال . هى مسكن الضعف ومهبط العطف ، فبالله ما أكثر مخازى الرجال

ذلك مثل فانتين فى ابتذالها لخدرها بعد أن نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها ، وبعد أن أنذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم وأنذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود ، فتسكعت فى الضلالة وتبسطت على الاثم ، وتمرغت فى حمأة الغى ، فخـوى هيكلها من روح الشعور ، وكتب اليأس على لوح صـدرها المثلوج قول ذلك الحـكيم : « لا رغبة ولا رهبة » ، فأصبحت لا تخشى نازلا ، وامست لا ترجـو نائلا ، وباتت لا تبالى لأنها ما انتفعت بأن تبالى

مر بها زمن وهى تصابر القضاء ، وتنازع الشقاء ، وتعانق الخطوب وتصافح الكروب ، وتصـبر على ذلك صبرا ، كان اشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام ، فلم تنتفع بصبرها ، ولم تخرج من عسرها ، فما عساها تحذر اليوم وهى كالاسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر أنحاءها سيان أن طاف بها المحيط او سقط عليها الندى

□

توجد بعامة القرى الصغيرة ، وخاصة القرية التى تسكنها اليـوم (فانتين) طبقة من نشء الشـبان العاطلين الـذين يعيشون من وراء دخلهم السـنوى ، وان أحدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من الترف والنعيم لن يبلغه ساكن باريز ، او ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروى ، وقد جمعت هـذه الطبقة فى قريتنا تلك من أمثال هـؤلاء العاطلين عـددا كبيرا فتراهم يجلسون فى صدور المجـالس ، وقـد نفخ شيطان العظمة فى معاطسهم ، فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهم :

فمن تياه بكثرة رجاله ، ومن مدل بوفرة ماله ، ومن معجب بحسن سمعته وهندامه ، ومن مولع بالتفنن فى أساليب كلامه ، يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الأمر الى المشاجرة ، فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة ، وينطلق الآخر الى التصيد والاقتناص كى ينوه بذكره فيقال انطلق النبيل الى الصيد ، ومنهم من يتورن (١) ويتزين فهو اين خطر تأرج المكان بعطره واشتغل الناس بذكره ، ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس فى الاندية حيث يفد السائحون

نعم وفيهم المتغالى فى التقليد ، والمولع بالجديد ، والذى لا يرى نفسه ظريفا الا اذا قاد خلفه كلبا وازدرى بنوع النساء ، فتأنق فى التعريض بهن واستهتر فى تقريعهن

وكان الظرفاء فى هذا العهد يغالون فى البزة ويتأنقون فى الزى ، وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الأزرار، واحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزة الأطراف ، فوق شعر جعد كثيف ، وبأيديهم عصى غليظة كأنها الجذوع ، دع الشوارب الطوال ، والزيق المرتفع ، ومنديل الرقبة المرسل على الصدر

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شابا لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية . نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم ، وكان مثله كمثلهم : دخل قليل وعقل يسير ، وسفه يوازنهما ، ونزق يعادلهما

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الأندية وفى فمه لفيفة من الطباق ، وقد انتشرت على وجه الأرض طبقة من البرد

---

(١) تورن أى تعطر فاسرف فى التعطر

وتمر أمامه فانتين وهي عارية الأكتاف ، وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء في المراقص ، وكانت تلك عادتها منذ نصف عام

تعتمد الليل وتركب في ذلك الطريق ، فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرس يحفظ السبيل ، أو جندي أذنب فكان عقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهابا ، ويعتمد ذلك المغرور كلما مرت أمامه اغاظتها ويتحرى اهانتها فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظا من الاهانة والسباب فيقول : « ما أبشع هذا الوجه وما أخلق حامل ذلك الثغر الادرد بالانزواء عن أعين الناس » وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لا تسمع فتنطلق في طريقها وتواصل سيرها فيه اقبالا وادبارا ، وهو في مكانه يقطر غيظا

ويحركه ذات مرة سكونها ، فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة ، وهو يفت من ضحك المغيظ ويدانيها ، فيهوى بيده الى الأرض ، فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها ، وينتشر البرد من ملتقى الكتفين الى مستدق الصلب ، فتزأر فانتين زئير اللبوة ، وتنفتل انفتال النمر ، وتنشب أظافرها في وجهه ، وهي تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله ادمان الخمر وابحه الحزن ، ويفزع الناس لجهة الصوت فرادى وثنى ، فيرون رجلا عارى الرأس يضطرب في يد امرأة مسلوبة الشعر والشعور ، والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على امساكه ، وقد رنحته لطما ولكما وأتحفته بأنواع السباب والشتائم ، فلم تبق في اللغة كلمة تشير الى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة الا ورمته بها من ذلك الثغر الادرد

ويقف الناس حولهما صفوفا وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه ، وكلهم يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة ، ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة ، فيجذب المرأة من

نطاقها ، ويصيح بها : « انطلقى على أثرى » . وترفع فانتين عينيها وترى شخص (جافير) فيخفت صوتها وتصفر أحداقها وتتزايل أعضاؤها وتمشى خلفه بين الذلة والانكسار ، وينتهز الشاب تلك النهزة فيختفى وينقضى ذلك المشهد

سار جافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته الى مخفر الشرطة ، فلما بلغه أمر بالباب ففتح وبالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وانشأ فيها يسطر ، وانزوت فانتين فى أحد الاركان كالكلبة راعها مروع ، ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشرئبون بأعناقهم من وراء النافذة رجاء أن يلموا بجانب الامر

وكانت شريعة ذلك العهد تقضى بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة ، فهم يلعبون بهن ما شاء الهوى ، ويصادرونهن فى حرفتهن المنكودة وحريتهن الموهومة

فأكب جافير على الكتابة وهو أشد ما يكون غيظا ، وما نسى القارىء ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذى ما نم قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر الى نفسه سبيلا ، ولكنه قد غلب فى هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل أمامه مدى سلطته ، ونفث فى يراعه سم غيظه ، فكان يكتب وحنقه فى عنفوان شبابه وجرم تلك البغى يتجسم أمام عينيه ، حتى اذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادى بثلاثة من الشرطة وأمرهم أن يقودوا فانتين الى السجن ، وقال لها : « ستلبثين هناك ستة أشهر »

فارتعدت فرائصها وهمت بالنهوض فخانها العزم فترامت تزحف بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل ، وجعلت تضرع اليه وتستدر رحمته وتقول : « ستة أشهر ؟ اللهم غفرا . ان فى ذلك لهلاكا لطفلة ليس لها سواى من عائل ، فاتق الله فى ضعفى وراقبه فى حياة تلك الطفلة ، ولو انك ألممت بمبدأ الامر لتضاءل فى عينيك منتهاه ، فاصرف نظرك

تلقاء ظلامتي فان كنت قد أجرمت بعدها فعلى اجرامى ، وانى لاستعدى بك على ذلك الشاب الذى وترنى على غير معرفة منى به . لحنى أسبهل (١) فى الطريق فجعل يتحرش بى وأنا اصابره حتى اذا أعياه الامر عمد الى قبضة من البرد فدسها بين ثوبى وظهرى على غفلة منى ، فوجدت لذلك ألما أخرجنى عن حد الرشد ، ففعلت به ما فعلت ، وأنا بمنزلة بين الالم والذهول ـ وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة يباغتها مباغت بمثل ذلك الاذى تحت هذا الليل فى هذا الشتاء ؟ أتراها كانت تحلم أم تطيش ؟ فان كان بعض الطيش قد أدركنى ، فانما وقع ذلك لفرط الالم ، وضعف التحمل

« الا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتى فيظهر براءتى ؟ . الا يعود ذلك الشاب الذى اختفى ، فأعتذر اليه من فعلى ، وان كان هو البادى بالاساءة ؟ . . الا منقذ لى من هذا السجن الذى سيجر الى طرد طفلتى من النزل ، فتموت تحت العراء ؟ فيا ليت شعرى كيف أغذوها ، وأنا لا أكسب فى السجن نصف ما قرره أصحاب النزل لقوتها ؟ فلك الله أيتها الطفلة المنكودة ولى الله من بائسة نزل بها العسر الى تلك المنزلة من الحياة . فوالله ما كان هذا الفحش من أمرى ، ولكن هى الحاجة ترمى بصاحبها الى مرامى الهلاك ، فلا تفرط علينا وكن من الراحمين »

تقول ذلك بصوت حنقه البكاء وأنفاس قطعها الشهيق . كأنها محتضر قد أخذه النزع ، وهى عارية العنق مفتولة اليدين وقد أشرق محياها اشراقا ظهرت معه فى أعلى مجالى الجمال . ولا بدع فان الآلام اذا بلغت مداها انبعث من اثنائها نور سماوى وانبسط على وجوه أصحابها فبدلها تبديلا

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى أمكنها النهوض ، ثم

---

(١) اسبهل أى أقبل وأدبر فى الطريق لغير شىء وهو ما يسميه العامة « ضرب بلطة »

دنت منه فقبلت طرف ردائه . ولو أنها ضرعت كذلك الى رجل قد قد من حجر الصوان قلبه ذاب لها رأفة ، ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب ، فهو لا يعطفه التوسل ، ولا ينال منه التذلل

أو تدرى أيها القارىء ماذا كان جوابه لها بعد الذى سطرناه تحت نظرك ؟ كان جوابه أن قال لها : « لقد وعيت حديثك فانطلقى الى السجن فبه حكمت عليك ، وقد استحال غير ما حكمت ، فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت »

قال ذلك ثم ولاها ظهره فجمدت فى مكانها وتحرك الجند وانهم ليهمون بجرها وما تصل أيديهم اليها ، اذ وثب من جانب المخفر الايمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم : « مكانكم أيها الجند ! » فمد جافير بصره فاذا به يرى مادلين ، فحياه تحية الكاره لرؤيته وقال بصوت الكاظم لغيظه : « عفوا سيدى الشيخ » . وما وقعت تلك الكلمة فى سمع فانتين حتى انتفضت فى مكانها فدفعت عنها الجند مهرولة الى مادلين ، ولما تبينت وجهه صاحت به وهى تغرق فى الضحك : « أهذا هو أنت ؟ » ثم بصقت فى وجهه وانقلبت الى مكانها ، فمسح مادلين وجهه وقال لجافير : « خل أيها المفتش سبيل هذه المرأة »

كل ذلك يجرى وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع وهو مكذب لسمعه ، وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلت الاخرى غرب ارادته ، فلبث فى مكانه برهة أعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول ـ نظر امرأة تبصق فى وجه شيخ جليل والمرأة من البغايا والرجل من أولى الامر فاتهم للوهلة الاولى نظره وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا ، ويأمر باخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه

ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه ، فانها لم تكد تسمع قول

مادلين حتى دنت الى البـاب وجعلت تعـالج فتحه وتتهيأ للخروج ، وهى تقول كمن يكلم نفسـه :

ـ أيسرحوننى فلا أسجن؟ومن ذا الذى يستطيع ذلك ولقد سمعت بأذنى الامر بالسجن ، ووعيت ما سمعت ؟ فلئن كنت قد طرق سمعى بعده امر بالافراج فقد كذبتنى الأذن ، اللهم الا اذا كان جافير هو الآمر ، أما ذلك الشيخ المريب فليس له من الامر شىء ، وما أدرى ما الذى حداه الى الحضور ، أو ما كفاه طردى من مصنعه وخروجى عن أفق العفة والصيانة وهبوطى الى تلك المنزلة ؟ ولقد كنت أعمل فى مصنعه ، فأصيب رزقى بين العفة والكفاف ، فأبى الا أن يكون أداة للسعاية بى ، فأخرجنى حين لا موئل ولا وجـه للرزق ، وحملنى بظلمه على ركوب تلك الطريق . ويعلم الله أنى ركبتها وأنا كارهة لركوبها ، ولكنها سبيل مضطر عديم ، ولولا ما حملنى أصحاب النزل من الديون واشتطاطهم فى طلب النفقة لتلك الطفلة ، وكساد الحرفة التى ازاولها ، لتماسكت وان زعزنى الدهر ، وبالغت فى تطفيف قوتى الايام والليالى

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده الى جيبه وينتزع منه كيسه ، ويجده خاليا ، فيرده الى مكانه ويقول لها : « خبرينى كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة ؟ » فتقول له : « اليك عنى أيهـا الرجل فلست بمحدثة معك ذكرا » ثم تلتفت الى جافير فتحاسنه فى الخطاب ، وتنتقص أمامه من قدر مادلين ، وتشرح له سوء مغبتها ان هو أصر على حكمه وتستنزل عفوه ، وتعوذ به من عقابه ، وتنتهى بقولها : « ولا أحسبك بعد الذى عرفت من أمرى الا غافرا زلتى متجاوزا عن خطيئتى » ثم تولى الى الباب وتضع يدها على غلقه

وتوقظ تلك الحركة جافير فيعود الى نفسه ويخرج من جمود كان فى أثنائه كالصنم ، ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر : « يا ويلكم ! أتفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم

لا تشعرون ؟ ومن ذا الذى أمركم بتسريحها بعد ان أمرتكم بسجنها ؟ يا ويلكم ! ردوها فلتقضين فى السجن أيامها رغم المعارضين ! »

وكان مادلين مصغيا كل الاصغاء لما دار بينهما من الحديث ، فالتفت الى جافير ، وقال له : « اعلم أيها المفتش انى أنا الذى آمر بتسريح هذه المرأة ، فلا سبيل لك عليها منذ الساعة ، فانى مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم ، وتسقطت الخبر فأخبرنى بعض من شهد المبدأ والنهاية أن ذلك الفتى هو البادىء بالاساءة ، ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة »

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه : « أن تسريحها ليدخل فى باب الاستحالة ، فانها أهانت فتى شريفا وآذت شيخا جليلا ، فلئن كانت قد اعذرت فى الاولى فما عسى يكون عذرها فى الثانية ؟ »

قال مادلين : « اما عن الاولى فقد صدقتك الخبر ، وأما عن الثانية ، فان الامر لمختص بى ، والعقاب متعلق بارادتى ، فاما عفوا بعد واما جزاء ! »

قال جافير : « عفوا ياسيدى ان الامر لايقتصر على شخصك ، ولكنه يتناول العدل كله ، وبمثل هذا العمل وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة »

قال مادلين : « اعلم ان العدل نوعان : عدل يجرى به الوجدان ، وعدل تجرى به الشريعة . ومن كان صادق الوجدان ، كان خليقا بالتوفيق الى سبيل الحق . ولقد وفقنى الله الى استبطان أمر هذه الفتاة ، والهمنى الوجدان براءتها ، فلا يستطردن بك جواد العناد فى سبيل ايذائها ، فانك لن تنالها بسوء وانا من الشاهدين »

قال : « انى لاراني غير قادر على فهم ما أسمع وما ارى » !

قال : « فلتكن قادرا على الخضوع والتسليم » . . !

قال : « انى لاخضع للواجب وهو يدفعنى الى وجوب الاصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر » !

قال : « بل يدفعك الى اخلاء سبيلها ، فلا تسجن يوما واحدا »

قال جافير : « أما وقد وقفت بى عند حد اليأس من اقناعك ، فانى لا أرى بدا من الانحراف عن صراط الطاعة ، ولا يكبرن عليك أمر مخالفتى اياك ، فانى لامادك حبل المقاومة فى شأن هذه البغى ، وما وقع لى قبل اليوم أن أقاوم مشيئة الرئيس . ولكن المامى بواقعة الحال وتثبتى من الامر ودخول الحادثة فى دائرة اختصاص الشرطة التى أنا كبيرها ، كل أولئك يدفعنى الى سجن هذه الفتاة » !

وما كاد ينتهى من قولته حتى تقطب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبت من شمائله روائح السلطة فقال له بصوت سبقته الى مخارجه الخشونة وامتزجت بأجزائه الحدة : « لقد اسمعتنى أن الحادثة تدخل فى دائرة اختصاص الشرطة التى انت كبيرها . وأسمعك الساعة أن المادة التاسعة وأخواتها الحادية عشرة والخامسة عشرة والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات ، تقضى بأن أكون القاضى المطلق . فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة فانتين وآمر بتسريحها

« وأزيدك بى علما واذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ ديسمبر سنة ١٧٩٩ فهون على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ما سمعت »

فاستقبل جافير هذه الضربة الاخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود اسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الارض بوجهه ، وخرج وما ينظر مابين يديه غما . ومر (بفانتين) فالتصقت بعضادة الباب لتخلى له السبيل، ولبثت فى مكانها ، كأنها بعض الانصاب ، وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التى قامت بين رجلين علقت بأذيال الاول

نجاتها وكمن تحت رداء الثانى هلاكها ، هذا يصعد بها الى مراقى الهناء ، وذلك ينزل بها الى درك الشقاء وهى بينهما كالاكرة اذا قذف بها الثانى الى ظلمة اليأس ، ردها الاول الى نور الامل . كأن احدهما ملك يكلأها ، وثانيهما شيطان يحاول أن يتخبطها بمس منه . وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظافرين

وعجيب أن يكون هذا الملك هو ذلك الشيخ الذى استرسلت فانتين فى كراهته وظنته أصل شقائها ، وسبب بلائها . على انها ما لبثت بعد الذى قد رأته من محاسنته لها وعطفه عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه فى وجه جافير تلك الوقفة التى قطعت على ارادته السبيل أن اخذت تحاسب نفسها وتقول : « لى الويل لشد ماكنت أنفر من ذلك الرجل ، وأحمل ضب الضغن وأعزو الى فعله سوء ما وصل اليه امرى من الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة وترة يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادر على غير الصفح ، ولم يفتر نشاطه عن الذود عنى والمناضلة دونى . فلا احسبنى بعد ذلك الا واهمه فى امره جاهله مقدار خطره ، او ليس الذى قد غلب جافير على امره بقادر على أن يحول بلفظ منه بينى وبين الهناء ، فأموت فى السجن حزينة ، وتموت بموتى تلك الطفلة اليتيمة ؟ اللهم ان هذا هو الخلق الكريم وتلك هى النفس الزكية ! »

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل فى صدرها ووجدها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذى سكن فيها ، حتى أصبح النفور ميلا والبغض حبا ، وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل ، فكاد يأتى على نفسها الخجل والحياء

□

ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين الى فانتين وقال

لها وهو يغيض من عبرته ، ويخفي من حسرته : « لقد وعيت ما تقولين وما كنت أعلم شيئا من أمرك ، فما منعك أن تنفضي الينا جملة حالك يوم أنذروك بالخروج من المصنع ؟ . ولو فعلت لانصفناك . ولكن أبى الله الا ان يجري القدر بما شاء ، فأنت منذ اليوم مكفية المؤونة بي ، فاني كافلك وجامع بينك وبين طفلتك ورادك الى طاعة الله بحفاظك على عرضك ، وموف ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعي (١) نفسك أسفا على أثر ماضيك ، فان صح ما تقولين ولا أخالك الا صادقة فيه ، فانك لم تخدشي وجه العفاف ، ولم تعقي الفضيلة ، وما كنت امام ذلك المطلع على الافئدة الا طاهرة الذيل عفيفة الازار »

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها، فرات جنة يميس فيها النعيم وتجري من تحتها أنهار السعادة ، ورات نفسها وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف، وتتكيء على ارائك الصيانة وبجانبها طفلتها الوحيدة

وتزاحمت على نفسها جيوش الاماني فخرج بها السرور عن حد الادراك وترامت على يد مادلين تقبلها ، ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين ، فحملت الى دار المرضى التي اقامها بجوار داره . فأنيمت فيها ، وأوصى بالعناية بها وانصرف الى عمله

وكانت الحمى تتمشى في عظام تلك المغبونة في نفسها فمر بها قطع من الليل وهي تهذي وتصيح ، ثم أخذها النوم فنامت حتى اظهر (٢) النهار او كاد ، وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد انفاس ، فكشفت جانب الستار، فاذا هي ترى مادلين باسطا ذراعيه شاخصا ببصره كالراهب المتبتل يضرع الى شيء فوق رأسه ، فأرسلت بصرها حيث

---

(١) أي لا تهلكي نفسك

(٢) أظهر النهار اذا كان وقت الظهيرة

يرسل بصره ، فعلمت أنه يضرع الى صليب كان معلقا بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته ، وظهر لها فى هذا الموقف ، كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى. فكرهت أن تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة ، ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء : « ما الذى يصنع سيدى هناك ؟ » فأجابها وهو يومىء الى الصليب : « جئت أصلى لذلك الشهيد فى السماء » . ولو انصف لقال : « لتلك الشهيدة فى الارض »

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدهاوالسؤال عنها فما يستقر فى حجرته الا ريثما يعود لتنسم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا ينصرم عمرها ، وأنتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن

□

وننتقل بالقارىء من حجرة مادلين الى حجرة جافير ،فيرى رجلا قد اقامه الحقد ، واقعده الحرد (١) ، يكاد ينشق غيظا ويقطر غضبا على أثر تلك الضربة التى تلقاها بصدره الرحيب فى مخفر الشرطة ، ويراه وهو ينفث نفثة المصدور ، ويململ تململ الموتور قد أمسك يراعا وانشأ يسطر كل ما املتعليه الموجدة واوحى اليه الضغن

وفى صباح تلك الليلة بكر جافير الى صندوق البريد ، فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذى سطره بحجرته ، وعنون غلافه الى كبير الشرطة بباريس

وما قرأ هذا العنوان قارىء وكان ممن يعرفون جافير وكتابته ، الا تنبأ أن الكتاب لا يشتمل على غير التماس الاقالة على أثر حادثة الامس

ولما استنار مادلين دفائن (فانتين) وعلم بحقيقة أمرها ، والم بأطراف تلك المؤامرة التى كانت سببا فى خروجها من

---

(١) الغضب الشديد

المصنع ونزولها الى تلك المنزلة من الحياة ، سارع بارسال كتاب الى أصحاب النزل يطلب فيه أشخاص (كوزيت) ووجه اليهم بقدر من المال يبلغ مثلى ما كانوا يطالبونها وانذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة باحضار الولد

⊐

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى ، فقال لزوجه وهو يتهلل فرحا :

« لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعنى فانتين) ، واكبر ظنى انها ترتع اليوم فى ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة ، وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع . وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبر عن كرم . وانى لاتنسم منه ريح الاصرار ، وأرى بين سطوره جداول يجرى فيها الكسب وتسيل السعادة ، فاحرصى منذ اليوم على تلك القنبرة ، واحذرى أن تطير فان فى امساكها اطلاقا لارزاقنا » ، ثم قام الى دفتر ، فزور فيه كل ما زعم أنه انفقه على (كوزيت) من أجر الطبيب ، وثمن الدواء ، وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملى عليه الطمع ، حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل مادلين

وفى اليوم التالى وجه مادلين الى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب اليهم المسارعة بارسال الطفلة فقال الرجل لزوجه : « الم انبئك بما سيكون من أمرهم ، اذا نحن احسنا حفظ هذا الكنز الثمين ، فانظرى كيف لم يجد له عزما على الانتظار فثنى بارسال النقود قبل ان نجيبه على كتابه ، فلنمسك الطفلة حتى حين » !

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفىء سراج حياتها شيئا فشيئا ، ويدنو منها الموت يوما يوما ، وقدأثارت

تلك القبضة من البرد دفين دائها القديم ، ففتك السعال بصدرها فتكا كاد يهدم جدرانه ، ولولا تعلقها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين

وما خفي على الطبيب أمرها ، فانه انذر مادلين بقرب اجلها وقال له : « انى اراها هامة اليوم أو غد ، فان كان لها ولد ، فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه ان كان من الغائبين ، فانكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها »

فجزع مادلين جزعا شديدا ، واشفق أن تموت الوالدة ، قبل أن ترى الولد ، فقام لساعته الى ورقة وكتب فيها الى اصحاب النزل عن لسان فانتين يقول :

« اذا أتاكم رسولى حامل هذا ، فادفعوا اليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التى تزعمون مطالبتى بها »

وارتأى أن يكون هو الرسول الى أصحاب النزل فوضع الكتاب فى جيبه وصحت عزيمته على السفر . فبكر من غده الى دار حكمه ، وجلس لانجاز شغله واراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة ما يشغله عن خدمة فانتين فتسلف الاعمال، وانجز فى يومه ما يطالبه به الغد

وانه ليتصفح الاوراق وينظر فى الشؤون اذ جرت جوار بالنحوس ، وعدت عواد بالشرور ، ووقع فى حساب القدر مالم يقع فى حساب مادلين ، فقيل له ان جافير بالباب يطلب الاذن بالدخول . فوالله ما لفظ أمامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الالم فتطير،وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة ، ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت ، واذن لجافير بالدخول ، وكان اذ ذاك جالسا بقرب المدفأة ينظر فى أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ما شاء تعليقه

ودخل جافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين ، ولبث واقفا وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص

ينتظر الاذن بالكلام .. كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره ، ولم يحرك جسمه كأنه لايشعر بوجود ذلك الواقف

ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتى الساعة وينظر الى جافير وهو راسخ فى مكانه،وكان يكون من المخالطين له ، والواقفين على أسرار طبائعه ، والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذى بينا نراه فى لباس الجندى المحارب ، اذ هو فى ثياب الزاهد الراهب ، لركن عند رؤيته ، وتفرس فى مخائل سحنته أن هذا الجاسوس الصادق والناقل الامين ، قد نزل به نازل وحالت بينه وبين نفسه حوائل ، وقال لامر ما وقف عدو مادلين أمامه وقفة المستسلم المستكين ، وعهدى به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة

□

وفى الواقع كانت سحنة جافير تنم عما فى ضميره فما مر بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس ، الا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء

قلنا أنه دخل على مادلين فسلم منحنيا ووقف محتشما وما زال واقفا خلفه موقف الجندى فى صفوف النظام لاتنبعث له جارحة ولا تطرف عين ، وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك ، فامتزج بأشعة بصره نور الاخلاص وجال فى محياه ماء الخشوع ، ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة ، وسكون لم تعره كلفة ، حتى التفت اليه مادلين فرأى رجلا تبدو عليه سيما الانكسار ، وتقرأ فى عينيه آية الحزن ، قد احتشم احتشام الجندى أمام القائد ، والمجرم بين يدى القاضى ، فقال له : « ماخطبك أيها المفتش ؟ »

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو اليه حصاته ، ثم اندفع قائلا بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزة من الشمم :

« جئت أنهى الى سيدى خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم »

قال مادلين : « وما عسى أن تكون تلك الجريمة ؟»

قال : « ان أحد عمال الحكومة الادنياء قد رمى بعض سراة القضاة فى شرفه ، وطعن عليه فى سمعته ، فدفعنى الواجب الى رفع الامر اليك» . قال : «أتعلم من هما . .؟»

قال : «ما أعلمنى بهما . أما المقترف فأنا ، وأما المقترف عليه فأنت»

وما وقع فى سمع مادلين الخبر حتى وقع فى نفسه شيء من الضجر ، فتململ فى مكانه ، واندفع جافير فى حديثه فقال :

ـ انى لاطلب اليك رفع أمرى الى الحكومة لانال من عقابها مايكفر عن خطيئتى ، ولا تعجبن لعدم التماسى الاقالة ، فاننى ان فعلت ذلك خرجت خروجا . ولا يلحقنى معه العار. ولكننى خليق بأن أنزل منزلة المجرم الاثيم فأخرج ملوما مدحورا

«ولقد كنت معى بالامس غائب اللين حاضر الجفاء ، وأنت من الحق أعزل ، فلتكنه معى اليوم وأنت شاكى سلاح الحق ثاو بحسن الفضيلة»

قال مادلين : «لقد جعلتنى بحيث أرى انك أتيت عظيما وارتكبت جسيما ولا أذكر بينى وبينك أمرا يدعوك الى قول ما أسمع منذ اليوم ، ولقد أطلت فى اتهامك لنفسك ، وبالغت فى وصف اجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التى تزعم أنك فعلتها ؟»

قال جافير : «رميتك فى شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس امساكك وسجنك . وذكرت له فى شقة رفعتها اليه أنك مجرم قديم ، وأنك ضالة الشرط التى تنشدها منذ حين ، ولقد كتبت ما كتبت وقسطى

ممتلىء من المرة(١) الصفراء ، وغضبى يفور فوران المرجل على اثر حادثة تلك البغى التى غلبتنى عليها ، ووقفت دونها تلك الوقفة التى قطعت على ارادتى السبيل»

□

ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله «مجرم قديم» ولكنه يتماسك . واستطرد جافير فى حديثه فقال : «وما حملنى على اتهامك ايها الشيخ الا آيات شهدتها وعلامات تحققتها . رأيتك شديد العضل قوى الساعد سديد الرماية اذا رميت ، ولمحت بأحد فخذيك فدعا ، وقد تبينت منك الاولى يوم العجلة ، وما نسيت ما كان من دخولك تحتها ، وانقاذك حياة ذلك الشيخ الفانى ، وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقط أخبارك وشهدت الثالثة فى مشيتك ، فألقى فى روعى انك (جان فالجان) »

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندر(٢) من انامله اليراع الذى يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه : «ومن هو ذلك الرجل ؟» . فيجيبه جافير «هو أحد أولئك الشطار الذين يعيثون فى الارض ، ولقد رأيته منذ عشرين حولا فى سجن تولون ، وهو أشبه النـــاس بك ، ثم زعموا أنه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة فى بيت أحد العباد ، وجنى فى الطريق على غلام صغير ، فاغتصب منه ما أدرى اى شىء ، ثم انه اختفى بعد ذلك ، فجدت الشرطة فى طلبه ، وجد فى اختفائه حتى اذا شجر بينى وبينك الخصام فى أمر (فانتين) خرجت من موقفى أمامك بذلك الخذلان ، حملنى الغيظ منك على أخذك بهذا الرجل ، ومثل لى الحنق انك « جان فالجان » وكانت تلك

---

(١) المرة بكسر الميم وتشديد الراء مادة الصفراء التى توجد فى مرارة الانسان

(٢) ندر الشىء سقط . يندر اليراع من أنامله يسقط

الآيات التى ذكرتها لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن من الراحمين»

قال مادلين وهو يبتسم ابتسامة الله أعلم بما يكمن فى أثنائها من المضض : «وماذا كان جوابهم على كتابك ؟»

قال : «كان جوابهم على كتابى أن رمونى بالنزق والجنون وحسبونى محمقا ، ولقد أصابوا فى رأيهم فى كما أصبت عين الخطأ فى رأيى فيك»

قال : «لقد أحسنوا فى جوابهم ، وأحسنت فى رجوعك عن وساوسك» . قال : «وأعجب من ذلك أن الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها ، ووقع جان فالجان فى قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب»

فأخذت مادلين الرعدة وصاح من فرط ما به ، وما يريد أن يصيح : «وكيف كان ذلك ؟»

قال : «قبضوا عليه وقد ظهر حائطا باحدى الحدائق ، واقتضب فرعا من التفاح ، فسيق الى المخفر والفرع لايزال فى يده ، ثم أودعوه سجن الاحتياط ، وكادت تختفى حاله فلا تدخل جريمته تلك فى غير باب العقاب التأديبى ، لولا أن أراد الله له سوء العاقبة

« فاتفق أن سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد أن ينقض على من فيه ، فأمر قاضى التحقيق بتحويل أهله الى السجن العام ، وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا فى أعماق السجون ، قد أكل سجن تولون شطرا من عمره وأوشك هذا السجن أن يأكل شطره الثانى ، شهدوا منه فى آخر أيامه شيئا من الاستقامة ، وحسن السيرة، فأقاموه سجانا ولما جىء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به : «ألا ترى أنى أعرفك أيها الرجل ؟ ألست جان فالجان رفيقى بالامس فى سجن تولون ؟»

« فقال الرجل : « اتق الله يا أخى .. فما أنا بصاحبك الذى ذكرت وانما أنا (جان ماتيو) .. »

« ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود ـ وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع ـ فبعث كلام السجان الشك فى نفوس الشرطة ففحصوا عن امره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا الى معرفة الارض التى نبت فيها ، والحرفة التى كان يزاولها ، فاذا هو مشذب الشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهدالناس به فى قرية (فافيرول) وأجهدت الشرطة نفسها فى الوقوف على أثر تلك الاسرة فلم تفلح فعمدوا الى البحث عمن كان معه فى السجن فى ذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم بالخلود فى السجون ، فأشخصوهما الى حيث يوجد ، فلم يلبثا ان عرفاه كما عرفه ذلك السجان

« وصادفت الشكوى التى رفعتها بشأنك ، فراعهم منى هذا الامر فكتبوا الى ماكتبوا ورمونى بالنزق والتسرع ، فكبر على الامر وقلت فى نفسى لعلهم خدعوا فى امر هذا الرجل فتالله لاذهبن لاراه رأى العين ، فرغت روغة فاذا أنا هناك فنظرت «جان فالجان» ورأيت نفس الرجل الذى شهدته فى سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندى مجال للشك ولا مسرب للوسواس ، وعلمت أنى جنيت عليك جناية يضيق عنها العفو ، فلو أننى كنت موفقا فى العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود فى السجن . واناك لتعلم كيف يكون عقاب العائد الى الجريمة وخاصة ان كان من أولئك المراقبين»

□

قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر فى بعض الاوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات : «ما لنا ولهذا الحديث

فان بنا من الاشتغال بشؤوننا مالا نفرغ معه الى الاشتغال بأمر الغير . اذهب يا جافير الى فلانة التى تبيع الخمر بزاوية المكان الفلانى ، ومرها أن ترفع ظلامتها الينا» ، ثم أمره بأوامر أخر ، فقال جافير : «وددت لو كانت لى فى الوقت فسحة ، فأقوم بامضاء أمرك فانى على عزم الرحيل فى هذا المساء لاشهد غدا مع الشاهدين ، فان غدا ليوم سيكون له ما بعده يبرم فيه أمر « جان فالجان » ، ويعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم»

فاسود فى عين مادلين مابينه وبين جافير وقال وهو يتكلف السكينة : «أفى غد يخاصمون هذا الرجل ؟» قال : «نعم» . قال : «وكم يمتد أجل ذلك الخصام ؟» . قال : «يوما او بعض يوم» . قال : «حسبك» . ثم أذن له بالخروج فلبث جافير فى مكانه وقال : «انى لاطلب اليك الاقتصاص منى»

فرفع مادلين راسه وقال : « انى أرى فيك حصافة وارى لك عقلا ومن كان مثلك كان حقيقا بالتكريم ، وكان سبيله أن يعان على أمره ، وان يؤخذ بيده فى زلته ، فلقد عن لنا أن نقرك فى وظيفتك ورأينا أن الامر أيسر مما فى نفسك ، فدع عنك هذا الاغراق فى الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين» . فرفع اليه جافير طرفا قد جال فى انسانه الاخلاص ونطق عما يكمن فى نفسه من الوجدان . وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه ، واستعار الرقة من شعوره : «اننى لمجرم حقيق أن يؤخذ بجريرته . فلا أرى فى موضعا للسماح» . قال مادلين : «ان كنت قد أجرمت فما وقع اجرامك على غيرى وماكان لاحد أن يخاصمك وأنا من الصافحين»

قال : «عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلى ، وقد حاولت الايقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك ، فخنت الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل ، ولو أننى فعلت ذلك عن غير رغبة فى الانتقام لوجدت لنفسى السبيل الى جميل العذر وقلت

اني شرطي ، وللشرطي أن يشتبه ولا تثريب عليه اذا أخطأه التوفيق ، ولكني فعلته متعمدا ورميتك متقصدا ، واني أشهد انني كنت داني القسوة نائي الرحمة لا أعرف التجـــاوز عن الخطيئة ولا أعرض تلبيب(١) كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة ، فكيف أرضى اليوم لنفسي ما كنت آباه بالامس على غيرها . ونفسي كما تعلم أكثر النفوس حرمة علي ، وأولاهن مني بحسن المناصحة .. أرأيتك كيف يجمل بي أن أنصب بدني في سبيل اصلاح الغير ، وأنام عن تقويم ما أراه لنفسي من الاعوجاج ؟ اني اذن لمن الظالمين !

«على اني لا أود أن يخرج بك كرم طباعك عن سبيل السداد ، فانتصر منك بك ، كما انتصرت بك تلك البغي من ذلك الشاب . ولا نلبث على هذا القياس أن تشتبه علينا الامور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ماشئت رءوفا بالعباد ، واجمع الى تلك الرأفة صحبة العدل ، فان في ذلك ردعا للنفوس ، وعزا للشريعة وخذني باقراري ولا تطمع مجرما في غير العقاب ، فلكم كنت أقول لنفسي وهي تجد في طلب الظالمين : جدي أيتها النفس فوالذي أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لاكونن بك أول الموقعين» !

قال مادلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها : «سننظر في امرك» ثم مد يده للسلام . فتقهقر جافير وهو يقول : «عزيز على أن تصافح يدك الكريمة تلك اليد الاثيمة» ، ثم ركع أمامه خاشعا واستقبل الباب . ولما بلغه انفتل اليه ثانيا وقال : «سأقوم بشؤون وظيفتي حتى يأتي الخلف» . ثم ولى وجهه وغادر مادلين في مكانه يلقي بسمعه الى وقع تلك الخطوات المطمئنة

لم تكن تلك الحوادث التي نسطرها للقارىء الكريم بواضحة

---

(١) اخذه بتلبيبه : جره

الاثر فى القرية التى وقعت فيها ، ولكن بعض ما علق بالاذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر فى النفوس

فلو أننا أغفلنا ذكرها لخرج الكتاب ، وفيه من الفراغ مالانلام معه على عدم الاتيان بما يسده ، فها نحن أولاء نذكر ما وصل الى علمنا من خبر ذلك الأثر ، وان كان فيه بعض ما لا يحتمل الوقوع ، ولكنا نثبته هنا ارادة الوصول الى الحقيقة :

ذهب مادلين الى فانتين يعودها ، فى عصر اليوم الذى وتم له فى صباحه مع جافير ما وقع ، وكان من عادته أن يغشاها فى حجرتها فوقف فى هذه المرة ، وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها

وكان ببابها اثنتان من المرضات الراهبات تدعى احداهما (بربيتى) والاخرى سمبليس وكانت الاولى من سكان الاطراف بالريف ، ثم أصبحت راهبة لا لرغبة فى الزهد او نزوع الى خدمة الدين ، ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق ، فدخلت فى بيت الله دخول الخادم فى بيت المخدوم ، واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ، ولم يدعها الوجود فى الدير الى فوق ما كانت عليه من الخشونةوالتقشف بطبعها ، شأن سكان الاطراف الذين لايعرفون الترف ولايألفون النعيم ، ومن قارن بين حال الراهب وعيش الفقير وجد بين تقشف الاول وخشونة الثانى نسبا قريبا وصلة غير مقطوعة ، فلو شاء الناسك أن يصبح راعيا وأراد الراعى ان يمسى ناسكا لوجد كلاهما الى قصده سبيلا ممهدا وما هو الا أن يدخل أحدهما فى ثوب صاحبه

وكانت تلك الراهبة شديدة القبض على دينها ذات لون يضرب الى الحمرة واقدام فى الامور ، وصلاح فى العمل ، دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجة ، وكان بأخلاقها بعض الشدة فهى جافيــة الطبع تغلظ القول للمريض ، وتمزج له الادوية بتلاوة الاوراد والادعية ، وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج

به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فمها من ذلك الدعاء

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض ، فهى بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة ، ولقد وفق (فانسان دي بول) الى وصف الراهبات فى تلك الكلمة التى جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية ، قال :

« التواضع قناعهن ،وخوف الله شعارهن ،والطاعة حرزهن قد اتخذن البيع للتهجد ، ودور المرض للتعبد ، وللمخاوف الطرقات ، وللرياضة الحجرات »

ذكرنا تلك الكلمة الجامعة فى سـيـاق الحديث عند ذكر سمبليس ونزيد عليها فنقول :

ـ يقف الناظر الى تلك العذراء موقف الذاهل اذا سأله عن عمرها سائل ، فقد كتم وجهها سر ما ضيها . ولم يشـأ أن ينم على آيتها فلم تنطق ملامحه على اثر لزوال الشباب ، ولا عن خبر لقدوم الهرم . وهى قليلة الاكتراث ، كثيرة الاناة ، قد جمعت فى طباعها بين اللين والجفاء ، فانها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد ، وتشتد حتى يخافها المعاند . . كثيرة الصمت ، قليلة تزويق الكلام . تكره الفضول فى الحديث ، فلا تنطق الا بمقدار ، وتحب الصدق حبا بغض اليها الكذب فى الجد والمزاح

□

تلك هى صفات سمبليس وما كتبنا غير ما أملاه علينـا لسان فضلها ، وقد اشتهرت بذلك فى عالم الدين ، حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل فى كتاب بعث به الى رفيق له فقال:

« انه ليجرى على لسان أكثرنا تقى ، وأبعدنا عن المظنه شىء من الكذب ، فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان ، ولا يدخل فى باب الامكان أن تسقط من (سمبليس)

سقطه من هذا النوع ، فتكذب فى شىء كائنا ماكان ، فانها تعتقد أن الذى يمين فى الصغيرة ، لا يلبث ان يستطرد به جواد المين فى الكبيرة ، وتزعم أن الكذب من أسماء الشيطان ،فهو عندها أحد اثنين : اما ابليس ، واما الكذب »

فلعل ذلك البياض الذى نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور فى سريرتها ، سريرة لو تمثلت لك أيها القارىء ، لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذر ولا يقف عليه الغبار

تلك هى الراهبة التىكانت تمرض فانتين وتبالغ فىمحاسنتها وهى التى أوصاها مادلين بالعناية بها ، وسألها عنها قبل الدخول فى هذه المرة

ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس ، فقالت حين لمحته وهى تغالب كبد الحمى ويغالبها : « أين كوزنت ؟ » . فقال وهو يبتسم : « انها قادمة على الاثر » ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفى عمر الساعة . وكانت لاتلوح بوجهه وهو يحادثها سيما الارتياح لما وقع فى نفسه من كلام الطبيب الذى كان ينذره بقرب حينها

□

ولما قضى لبانته من النظر اليها انكفأ الى حجرته ، فتناول قلمه ، وخط به فى ورقة بعض الارقام ، ثم خرج واخذ سمته الى دار رجل يكرى الخيل والعجلات ففشيه فى منزله وطلب اليه ان يكريه جوادا اصيلا ، فقال الرجل : « وما تصنع به ؟ » قال : « اطوى عليه عشرين فرسخا »

قال : «انها لشقة طويلة فلعلك تبتغيه مشدودا فى عجلة؟». قال : « نعم » . قال : « وكم يكون ثواؤك بعد الوصول ؟ » . قال : « ربما تجشمت السفر فى اليوم التالى » . قال : « لتطوى فى الجيئة ما طويت فى الذهاب ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ان عندى جوادا كهمك ايها السيد وهو الابلق الصغير .

وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه انسان ، فما زلت به حتى رضت جماحه واسلست قياده فهو اليوم يسابق الافكار الى المقاصد ، ولكنه يرغب عن السرج ، وينزع الى الجر فمن شاء أن ينتفع به فليرغب عن ظهره الى جره »

قال مادلين : « أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط ؟ »

قال : « انه لينهب المسافة التى تريد قطعها نهبا ويطويها خببا ، ولا يجد لذلك تعبا . على شريطة أن تنفس عنه فى اثناء ذلك بعض التنفيس ، وان يكون معك من يشارفه عند اخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات ، وان لا تحمل معك فى العجلة شيئا ثقيلا ودع رفق القائد الذى يقوده وعنايتك بالاشراف عليه . واما اجره فى اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكا . وذلك سواء فى السفر والاقامة »

قال مادلين : « قبلنا شرائطك ، فابعث به غدا عند تنفس الصباح » ثم القى اليه ثلاث قطع من الذهب . وقال : « هاك أجره ليومين » وخرج من عنده ، ولكنه ما لبث ان عقب اليه وساله قائلا : « كم تقدر ثمن العجلة والجواد اذا ساومك فيهما مساوم ؟ » . قال : « اتنوى ابتياعهما ؟ » . قال : « بل اريد ان اقف على الثمن خشية الطوارق فى الطريق » . قال : « اربع وعشرون قطعة من الذهب » . قال : « هاكها » ثم خرج ولم يعقب ، ولبث صاحب الجواد فى مكانه يحز الودج اسفا على ما فاته من طلب المضاعفة فى الثمن ، وجعل يقول : « ليتنى طلبت اليه أكثر من ذلك القدر ، فانى لاجد منه ريح الاضطرار ، ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عنى بوادر العجلة »

□

ذهب مادلين الى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ، ثم اخذ

مضجعه ونام وشباب الظلماء فى عنفوان . وكان له صراف يقطن فى حجرة بأسفل مخدعه ، فلما انتصف الليل أو كاد ، شعر هذا الصراف بحركة فوق راسه قد قطعت عليه نومه ، فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى اليه صوت وقع لاقدام تقبل ، وتدبر فى الحجرة التى فوقه ، فتبينها فاذا هى اقدام سيدة ، وما وقع له قبل الليلة ان يسمع فى حجرة مادلين حركة قبل الصباح ، فعجب لوقوع ذلك فى مثل هذه الساعة من الليل ، وقال لعلها لارق نزل به ، وزاد فى عجبه أن سمع صريرا بأدراج الدولاب ، فاستوى فى سريره قاعدا وطرد من عينيه ما علق بهما من كسل النعاس

ونظر من النافذة فلمح على الجدار الذى يقابله انعكاس اشعة فترسمها بالنظر ، فاذا هى مرسلة من طاق الحجرة التى لسيده ، فأدمن اليها النظر ، فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابا كأنما كان مصدر انبعاثها نارا تشب لا سراجا يضىء

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراءى فيها خيال ، فعلم ان زجاج النافذة التى باتت تنبعث منها كان مرفوعا ، ولما تحقق ذلك اهوى برأسه الى الوسادة ، وجعل يعالج النوم من جديد

فاستغرق هزيعا من الليل ، ثم تنبه فاذا هو يسمع وقع تلك الاقدام المطمئنة ويرى تلك الاشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون ، فأيقن فى هذه المرة انها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج

واليك ايها القارىء ما وقع منذ الليلة فى حجرة مادلين . وما لنا لا نقول فى حجرة (جان فالجان) . وما غاب عنك اننا لا نعنى بهذين العلمين الا مسمى واحدا

كلمة فى سريرة الانسان

نظرنا قبل اليوم نظرة فى مـرآة تلك السريرة ثم صـورنا البصر ما لمحته عين البصـيرة . وها نحن أولاء ننظر فيهـا النظرة الثانية ، وان كان من وراء ذلك هـزة النفس ورجفة للفؤاد

يقف أحدكم على شاطىء البحر المحيط ، فتكبره عينه ، وتعظمه نفسه فاذا انتقل بنظره الى السماء أصغرت عينـه البحر وأكبرت نفسه السماء

وانه ليتضاءل فى عينه المشهدان ، ويصغر فى نفسه الكونان اذا ما نظر بعين الوجدان فى مرآة سريرة الانسـان ، فانك لا تجد مشهدا يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الافهام كذلك المشهد ، فهو اذا أضاء ذهب سناؤه بالبصر واذا ادجى أعيت ظلمته الفكر ، وقل أن تستقر فيه عين البصيرة على شىء تلم بكنهه ، أو تخترق حجاب سره لامتداد أمده وفرط غموضه

فلو انك حاولت وصفـا لأدنى سرائر البشر ، وعمدت فى ذلك الى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لاعـوزك الوصف وأعجزك الوصول ، اللهم الا اذا نزعت الى جميع ما قيل من القصائد والاناشيد منـذ خط القلم الى أوان العدم ، واذبت الجميع فى بودقة الفكر ، ثم استللت منها سبيكة شـعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس ، ويجلو رونقها صداء الخواطر

فالسريرة هي ميدان الشهوات ، ومهبط المخزيات ، بل قارورة الغرور ، وتنور الاحلام ، وموطن المطامع ، ومسرح الاباطيل ، الا ترى انك لو ظفرت بأحدنا وقد لاحت عليه سيما التفكير والانشغال ، ثم نظرت فى صورته وكنت ممن يكشف لهم الغطاء عما يجول فى قرارة النفس ، وخلجان الفؤاد ، اما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حربا قائمة وخيالات مشتبكة ؟!

نعم انه ليتمثل لعينك فى ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتى ذلك الحيزوم ما سطره (هومير) وذكره ميلتون ، وتوهمه دانتى . ولقد طال بنا الوقوف أيها القارىء على ذلك المشهد العظيم . ونحن نتهيب طرقه ونكبر الدخول فيه ، ولكنا سننشد منا ، ونقدم على فتحه ، وموعدنا الجزء الثانى ان شاء الله تعالى



الجزء الثاني

من البؤساء

الفصل الثالث

عاصفة تحت جمجمة
أو
« فورة »

قدمنا بين يدى القارىء ما كان من أمر (جان فالجان) منذ ابتز ذلك الغلام قطعته الفضية ، وقد رأى كيف حال (١) هذا الرجل الى رجل آخر ، وكيف فعلت فى نفسه كلمات العابد أفاعيلها فاختطفته الى المعبود. وأخرجته من مسلاخ (٢) الشرة (٢) والضغينة ، وأسكنته فى أهاب من الفضيلة

بدأ بالمبالغة فى الاختفاء والتنكر ، وثنى ببيع تلك الآنية الفضية ولم يبق منها على غير الشمعدانين (٤) . ولعله أبقى عليهما تذكرة لذلك الصنيع

وجعل ينسل فى سره (٥) من الناس من قرية الى قرية حتى مسح أرض فرنسا ، ودوخ بها كل مكان وألقي عصاه بقرية منتراى سيرمير ، وأدر الله له أخلاف (٦) الرزق فأثرى ، ثم مكن لنفسه حتى جعلها بمنجاة من المطاردة

ولبث ما شاء الله يرى أن السعادة فى يقظة الضمير . فكان كلما بضع (٧) الندم على ماضيه من فؤاده بضعة شعر فى نفسه بوفر تلك السعادة . ولقد تكفلت حسنات الشطر الثانى من حياته بغسل حوبات (٨) الشطر الاول

---

(١) تحول (٢) جلد (٣) الشر (٤) فارسى معرب (٥) أى خفاء
(٦) الثدى للمرأة والاطباء للكلبة والاخلاف للناقة (٧) قطع (٨) الحوبة الذنب

وكان رأسه مضطربا لفكرتين لا ثالثة لهما : أن يخفى اسمه وان يقف حياته على الفرار من المخلوق والرجوع الى الخالق . وقد امتزجت هاتان الفكرتان بعقله امتزاجا حتى حالتا الى شيء واحد ، أصبح له السلطان المطلق على ارادته فاستقرتا فى قرارة نفسه وتناولتا ما وراء وجدانه ، فهما اللتان دعتاه الى الانزواء فلبى والى البر فمضى والى التقشف فأطاع

وتمر به لمحات يقع فيها بينهما العراك فتدفعه الاولى الى امر وتثنيه الثانية عنه ، ولكنه ما كان يحجم لمحة عن ايثار ثانيتهما على أولاهما ، فهو يؤثر الفضيلة وان جرت الى هتك ستره ، على طمأنينة نفسه وثلوج صدره فى اختفاء أمره

الم تر اليه كيف غامر بنفسه يوم العجلة فأنقذ (فوشلفان) (وجافير) يلقى عليه نظرات تكاد تخرق شغاف قلبه ، وكيف لبس الحداد على العابد ، وان طارت حوله فى ذلك الشبهات

فقد قام بنفسه ان أول فرض عليه انما يجب القيام به لغير شخصه . على انه لم يشهد مشهدا لهذا العراك كان اشد هولا واعظم مراسا من ذلك الذى مر به حين دخل عليه (جافير) ولفظ أمامه ذلك الاسم الذى درج فى اثناء النسيان، فاضطربت له نفسه من داخل الجسد واستخذى عند سماعه وعجب لذلك الجد الذى لا يفارقه العثار ، وهجم عليه أمر لا قبل له به ، فمرت به تلك الهزات التى تؤذن بفورة النفس، فانحنى انحناء الدوحة تدانيها العاصفة أو الجندى يتهيأ للاقتحام . وهم وهو ينصت ل (جافير) أن يطرح رداء التنكر ، ويطير الى ذلك السجن الذى أودعوه (جان ماتيو) فيقتلعه منه ويحل محله ، ولكنه لم يلبث أن عاودته الاثرة ، فأكبر هذه النزعة النبيلة ، وتراجع أمام تلك البطولة

ولو كان ممن تزكو (١) عنده العوارف لزكت عنده عارفة

---

(١) زكت العارفة أى أثمر الجميل

العابد ، ولغيرت منه تلك السنون التى طواها بين الزهد والتوبة ، ولغبر (١) يمشي قدما بقدم مطمئنة وصدر مثلوج الى تلك الهاوية المفتوحة أمامه فهناك عند قرارها قد ألقيت مفاتيح الجنة التى كان ينشدها

نعم كان الأخلق به أن يكون ذلك الرجل ، ولكنه لم يكنه . واليك ما كان يجول فى نواحى نفسه

« غمره عند الوهلة الاولى شعور المحافظة على النفس ، فخفض من جزعه وتصام عن نداء ضميره وأهاب (٢) بحلمه حتى اذا ثاب اليه أضمر فى نفسه وهو ينظر الى (جافير) أن يتلوم (٣) بعض التلوم فى الحكم على مصيره

ولبث سراة (٤) يومه وعلى ظاهره من السكون طلاء وفى باطنه من الجزع صلاء (٥) فلم يفكر فى ذات غيبه (٦) ولا فى الاخذ بالحيطة مما عسى أن ينزل به من العوادى . ولا بدع فقد يخونه الحزم ، وقرعه جافير بقارعة أطارت صوابه وزلزلت أركان نفسه وكان مبلغ علمه بحالته أنه أصبح تحت كلكل كارثة لا يدرى متى تفته

□

انكفأ الى حجرة فانتين يعودها وجلس على مقربة من فراش الامها وأطال الجلوس ، فقد كان على نية سفر لا يعرف أمده . على أنها نية مبهمة لم يضرب فيها رأيا ولم يستشر عزما ، فقد مرت به الفكر أبابيل (٧) وهو لفرط خياله لا يكاد يميز بين صورها

وما أدرى أكانت به نفسه أم كان به ذلك السجين أم تلك المحتضرة أم وليدتها المنبوذة بذلك النزل ، فكان يقول فى نفسه ما ضرنى الا أريم (٨) مكانى فأرقب مواقع القضاء فى

---

(١) مضى (٢) صاح (٣) يتانى (٤) طول (٥) الصلاء النار
(٦) ذات الغيب المستقبل (٧) جماعات (٨) أبرح

الحادث وانا وادع لا تسمو الى الخطوب ولا تلتفت الظنون ، وهذه عجلة (سكوفير) تحت يدى فمتى أحسست الشر ركبت عليها النجاة

حضر بعد ذلك وقت طعامه فأصاب منه اصابة مقدرة . ثم دخل مخدعه وهو مذهوب به ، فخلا الى نفسه وانعم التفكير وجعل يقلب وجوه الرأى فتعاظمه الأمر وأخذت عليه أفواه السبل وسدت مسارح النجاة

ساورته المخاوف وفاعته (١) الأوهام ، فقام الى الباب فاستوثق منه والى المزلاج فأثبته حتى ظن أنه فى مأمن من الطارق والطارىء ، ثم أقام خلفه المتاريس طلبا للمزيد فى الأمن واطفأ السراج لأنه لم يكن يسكن الى النور ثم قال فى نفسه : « الا زال مرئيا ؟ » عن أى عين يا ترى كان يريد أن يتوارى

يا ويله ! ان ذلك الذى كان يجد فى الفرار منه ويقيم فى طريقه الحوائل ويستنجد بالظلام ما زال معه فى حجرة واحدة

ذلك هو ضميره وتلك هى عينه

ولعله كان يعالج خدعة نفسه حين ظن انه كان فى عزلة وامن ، وان الباب والمزلاج يحولان بينه وبين ما يخشى . فجمع اشتات نفسه حتى خال أنه صار جميع (٢) الفؤاد ثم عصب راسه بيديه واعتمد بمرفقيه على منضدة كانت امامه وانشأ يحدث نفسه :

— أين أنا ؟ وما عسى ان يكون ما انا فيه ؟ ترى هل كذبتنى العين حين رات (جافير) وهل خاننى السمع حين افرغ فيه أسم ذلك الرجل (جان ماتيو) أتراه يشبهنى الى حد أن أخذوه بى ، فويل لى . لقد كنت بالأمس آمنا فى سربى ، وأرانى اليوم فى قلق لا أدرى متى ينطوى أجله

---

(١) فعلت فعل الافعى (٢) غير متفرق الفؤاد

فانظر على أى سيال من الألم قد بات يتململ هذا البائس الذى ضاق محيط عقله عن جولات تلك الأفكار التى تدافعت فى راسه كالأمواج حتى انه ليدافعها عنه باليدين . وكان يحاول أن ينتزع من كل أولئك يقينا يجد له بردا على قلبه ، ولكنه لم ينتزع غير الحيرة والمضض

وكاد يلتهب راسه فقام الى النافذة ففتحها ونظر الى السماء ، فاذا بها ضريرة النجم (١) ساقطة النواحى (٢) فعاد وارتمى على مقعده

ومر به قطع من الليل وهو على تلك الحال ، ثم أطافت براسه صور مبهمة أخذت تتجمع وتتبين حتى لفتت اليها تأمله فلمحها بعين الحقيقة لمحة ألمت ببعض أطرافها فعاد الى نفسه بعض الشىء وبدأ يشهد على نفسه أن الحالة التى نزل اليها انما هى من صنع يده ، حال حقيقة باللوم لايلابسها المرىء (٣) ولا يستقر عليها العيوف

ومن نظر فى أمر هذا البائس ، وقر فى نفسه انه على زهده وتقشفه لم يأت حتى الساعة شيئا مذكورا ، اللهم الا ذلك الثقب الذى ثقبه وواد فيه اسمه ، وود لو نسجت عليه الأيام طبقات من النسيان لا ينفذ اليها شعاع من الذكرى

فكان اذا خطر له أنه سيأتى يوم يذكر فيه هذا الاسم ذاكر ، نسف ذلك الخاطر نفسه فى نهاره ، ونزف أنفاسه فى ليله ، واغرى به سهادا تقض (٤) عليه معه المضاجع ، وتطارحه الوساوس . ولطالما كان يقول لنفسه ان هذا اليوم اذا أوفى عليه ليذهبن بما يحيط به من راحة ونعيم ، حتى أنه ليشفق ان يذهب بتلك النفس الجديدة التى ربها (٥) بالتقوى وتعهدها بالاحسان

---

(١) يحجبها السحاب (٢) شديدة الظلمة (٣) ذو المروءة
(٤) تمتلىء عليه قضا وقضيضا ، اى حصى (٥) ربها بمعنى رباها

نعم لقد غمر هذا الفكر شعوره ، وشغل أرجاء نفسه .
فلو أن قائلا قال له : ان هذا اليوم لا بد آت وان تلك الكلمة (جان فالجان) لا بد أن تثب من مكمنها ، وتتراءى أمامك فى هيكل نورانى يهتك ستار الظلمة الذى اسدلته على نفسك . فاذا جاءك هذا اليوم فلا تبتئس به ، فلن يضيرك ان تسمع ذلك الاسم فانه سيرفع منك ، ولا يهولنك ان ترى ذلك النور فانه سيزيد فى الظلمة التى تنشدها ، ولا ذلك الستار الممزق فانه سيكون اكتم لسرك ، ولا ذلك الزلزال المروع فانه سيصبح ادعم لبنائك ، فاكشف عن حياتك تبلغ مناك من كتمان امرك ، وقف امام طيف (جان فالجان) وقفة تخرج منها انبل نفسا ، وانبه ذكرا واجمل امرا

لو ان قائلا قال له ذلك ، لنأى عنه بجانبه ، ولظن انه يعالج المستحيل . على أن الذى كان يظنه داخلا فى باب الاستحالة قد دخل فى باب الامكان ، وجرت به الاقدار فوقع

اخذ حلمه يتكشف رويدا رويدا واخذ هو يزداد علما بحقيقة أمره

خيل اليه انه قد افاق من خفقة ـ وما ادرى من اى خفقة افاق ـ وانه قد راى نفسه ينزلق فى جوف الليل على منحدر قد وقف به على حفاف (١) هاوية ، وانه قد حاول ان ينحرف عنها ، فأثبته الخوف وقيده الوهم . وانه قد راى تحت راية ذلك الليل خلقا (٢) اراد ان يتبينه فتنكرت له معارفه حتى انكره ، فألقى فى روعه ان الاقدار قد شبه لها ذلك الخلق فظنته (جان فالجان) فأخذته به وساقته ظلما الى تلك الهاوية التى لم يكن لها بد من احد رجلين : اما هو ، واما ذلك المأخوذ به ، فعجز عن المقاومة وترك الاقدار تجرى على اذلالها (٣)

---

(١) أى حافة (٢) مخلوقا (٣) تجرى فى أعنتها

ولما تجلى له نور الحقيقة انشأ يصارح نفسه ويقول ان مكانى فى السجن لا يزال بحمد الله خاليا يطالعنى منذ ذهبت بورقة ذلك الغلام ، وانى لاشعر كأن قوة باطنة تسوقنى انيه فهو مدركى وان أمعنت فى الهرب ، ولشد ما يرمضنى (١) ان يقيموا فيه بديلا منى ، وان هو الا عاثر قد رمى به نحس طالعه فى ايديهم ، فأخذوه بى فأصبحت بفضل ذلك آمنا فى سربى ، فأنا مقيم هناك فى لباس (جان ماتيو) وانا مقيم هنا فى لباس (مادلين) ولكن ايسعنى فى مروءتى ان اترك هذا البائس يدفن فى السجن كما تدفن التوابيت دفنا لا قيام معه ، ولكن تحت جنادل الخزى والعار ؟.. أم كيف يجمل بى ان اتدلى هنا فى النعم ، وهو يتدلى هناك فى النقم ؟

وعلى اثر ذلك تحركت نفسه حركة يقعد عنها الوصف حركة لا تمر بنفس الحى فى مدى حياته غير مرات معدودات

فقد اختلجت سريرته اختلاجا بعث ما كان كامنا فى فؤاده من الهواجس . وقع ذلك على اثر مزيج قد جمع فى نفسه من الفرح واليأس والازدراء . تلك هى احدى ضحكات السرائر

قام بعد ذلك الى المصباح فأنساه من جديد وطرح عن منكبيه رداء الفزع ، فلما سكت عنه الروع ، قال لنفسه ما لى ارانى على غير استواء وانا بمنجاة من المكروه ؟.. وكنت أفرق (٢) من طريق واحد طالما قدرت أن تدهمنى منه الدواهى ، ولكنه قد سد بحمد الله فأصبح (جافير) لايجد الى سبيلا واصبحت فى مأمن من شر ذلك الرجل الذى ركبت فيه غريزة كلب الصيد ، فكم وقفته على اثرى حتى كاد يكشف عن امرى ، على انها قد خانته هذه المرة فجرته على أثر غيرى ، فلينقلب على عقبيه وليشتغل به عنى ، وليدعنى استروح روائح الامن ، فقد طال عهدى بها . وليقبض على

---

(١) يقيمنى على الرمضاء　　(٢) اخاف

(جان فالجانه) الجديد وليبرح المدينة متى شاء فكل أولئك لم اكن عنه مسئولا ، فحسبى ما كابدت من الم وعانيت من جزع ، فلو أن رائيا رآنى الساعة لما شك فى انى قريب عهد بالافاقة من سقم ، او بالافلات من براثن حادث
واذا تأنقت الاقدار فى مكروه ذلك الانسان فتلك مشيئتها . وانى للمرء ان يدفع القدر عن غيره اذا هو اعجزه ان يدفعه عن نفسه ، وانى لا ارى مبررا لما كنت فيه من الجزع ، فان الامل الذى كنت اتنسمه طوال السنين ، والشيء الذى كان يملأ على احلامى قد ظفرت به ، ذلك هو الامن وهو بغيتى ، فمالى لا اشكر الله على تلك النعمة ، فلعله قد ارتاح (١) لى وتقبل منى ، واراد ان اجرى فى طريقى ، فقد اخذت نفسى بصحبة الفضيلة ، ورددتها الى التقى حتى قرت ، ورضتها على البر حتى سكنت ، فكيف أنسى يوم دخلت على ذلك العابد فنفضت اليه جملة ما مر بى ، فأفرغ فى اذنى كلمات وعيتها حتى الموت ، فلأمضين على هذا السنن فتلك مشيئة الله .
صحت عزيمته على ذلك بعد أن سكن خلجان سريرته ، وبعد ان كاد يستل خيط نخاعه من طول ما ساءل نفسه وفكر

□

لبث غير بعيد ثم قام يتمشى فى مخدعه وما شاع فى نفسه سرور ، ولا قر له قرار كما كاد يتوقع ان يكون . وما هى الا بعض الخطوات حتى عاوده ما كان فيه
والفكر كالبحر . فمن استطاع ان يرد البحر عن العود الى شاطئه ، استطاع ان يرد الفكر عن العود الى مناطه. وعلة البحر فى ذلك يعرفها الملاح وهى المد والجزر . وعلة الفكر يعرفها المذنب وهى الندم .. فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط !
نعم عاد الى ما كان فيه من حوار نفسه ، فكان هوالمناجى.

---

(١) أى غفر لى

وكان هو المصغى . وكم حاول الا يكونهما . ولـكن قوة باطنة ساقته سوقا ، وألحت عليه بوحيها : ان فكر فى ذلك الذى سيق الى الموت قبل اليوم بألفى سنة !

وقبل ان نجرى بك شوطا بعيدا ايها القارىء ، يجمل بك ان تصبر قليلا على الاسهاب فى امر لم نر بدا من بسطه :

من المألوف ان يناجى المرء نفسه . وليس بين اهل الفكر من لم يطعم (١) تلك المناجاة ، وانها لسر من اجمل الاسرار واخفاها ينتقل فيها الحديث من الفكر الى السريرة ، ثم ترده السريرة الى الفكر . فاذا علمت هذا حلا لك ان تفهم الاسلوب الذى طال ترديده فى هذا الباب من قولنا : « ثم قال ــ ثم صاح ــ قال لنفسه ــ كلم نفسه ــ صاح فى باطنه » . وصيحة الباطن لا تقطع سكوت الظاهر ، فقد تقع ضجة فى البـاطن يتناول الـكلام فيها كل ما فى الجسم من عضو وجانحة غير الفم

تلك حقيقة من حقائق النفس وان لم يقع عليها الحس او يدركها اللمس

تساءل اين هو من الامر ؟ وما عسى ان يكون ذلك العزم الذى اعتزمه ؟ فأقر فى نفسه ان كل ما اصر عليه انما هو باطل وان الاستسلام للقدر فى هذا الموطن لمن احدى الـكبر وكبر عليه ان يدع ذلك القدر فى وهمه ، واولئك النـاس فى ضلالتهم ، وهاله أن يجمد عن الحق وهم فى الباطل يتدفقون . ورسخ فى اعتقاده ان السكوت فى مثل هذه المواطن انما هو اشتراك فى الاثم ، وان الاحجام عن المفاجأة ، خليق ان ينزل به الى احط منازل الآثام

منذ سنين ثمان لم يذق ذلك المسكين طعم هـذه المرارة ، فتزلزلت نيته التى نواها وجلس الى نفسه يحاسـبها وهو اقسى ما يكون ، وجعل يقول : « ان لـكل حى غاية يعمل على ادراك مداها . وقد كانت لى غاية ارى انى قد بلغتها ،

(١) يذق

فلم اخفق مرة فى التنكر وخدعة الشرطة . ولكنها غاية خاوية من روح الفضيلة . امن اجلها يا ترى فعلت ما فعلت ؟ لقد كان خيرا لى ان اعمل على بلوغ المقصد الاسمى فأنجو بالروح لا بالجسد ، وانزل منازل الابرار . فلن اعق نفسى بعقوقى ذلك العابد . فمالى افتح باب الماضي على مصراعيه وقد امرنى العابد ان اوصده ؟ فسواة لى . لقد اصبحت لصا تتعوذ منه ابالسة الشطار ، فانهم ربما سلبوا المرء متاعه ولم يختلسوا نفسه ، فكم من سليب قد نجا بحشاشته

« اما انا فقد سرقت من ذلك البائس وجوده ، وابتززت حياته وسلبت راحته واغتصبت حتى مكانه تحت الشمس وما كان القاتل بدونى فى قبح الصنيع ، على انى لم احسن القتلة ، فهو اليوم فى سجنه ميت حى

« ذلك لعمرى ابشع الوان الاجرام . فمالى لا افتديه بنفسى فأسترد ذلك الاسم واعود كما كنت (جان فالجان) المجرم الاثيم

« فاذا طبت بذلك نفسا بعثت بين الخلق من جديد وخرجت من هذا الجحيم خروجا لا يعقبه رجوع . فاذا فررت منه الى السجن ، فانما افر من جحيم الروح الى جحيم الجسد ، وشتان ما بين العذابين ، ولئن لم افعل لاكونن من الخاسرين ، وليس بمغن عنى ما قدمته بين يدى آخرتى من عمل دنياى ، اذا ما عدل بى طبعي الى الخور فحال بينى وبين ما اعتزمته

« وهذا العابد لا افتأ اراه كأنه حى وكأنه منى ادنى (١) ظلام ينهبنى بنظره نهبا . وكأنه يؤثر ان يرانى فى لباس (جان فالجان) وان كان من نسج الاجرام على ان يرانى فى لباس (مادلين) وان كان من نسج التقوى ، واذا جاز على الناس تنكرى فلن يجوز عليه

« فما نظروا الا الى الوجه وما نظر الا الى الضمير ، فقد

---

(١) أقرب شيء

استحال الا الذهاب الى (اراس) وانقاذ ذلك المكذوب عليه ، ولئن اقدمت على ذلك لاقدمن على ما يحجم عنه الناس . تلك هى المفاداة وان عزت على النفس ، وذلك هو النصر وان كان اليما . فلنخط هذه الخطوة فقد شاء القدر الا اكون نقيا فى نظر الله حتى اكون دنسا فى نظر الناس » !

رفع عقيرته بذلك وهو لا يشعر . ثم قام الى كتبه فنسقها والى وثائق ديون كانت له على بعض المعسرين من التجار ، فالقى بها فى النار ثم كتب كتابا وغلفه

ولو أن احدا كان معه فى الحجرة لاستطاع ان يقرأ هذا العنوان (مسيو لافيد بمصرفه شارع أرتو) وقام بعد ذلك الى خزانة اسراره ، فأزعج منها درجا التقط منه محفظة

ولو رأيته على تلك الحال وهو يعالج هذا العمل وقد خرج به التأمل عن حد الشعور بما يحيط به لما خفى عليك ما كان يخفيه فى قرارة نفسه ، ولرأيت انه كان يحرك شفتيه وتارة يرفع رأسه ويقف بنظره على الحائط وقفة المستطلع كمن يحاول كشف سر او استجلاء غامض

ضم اليه الكتاب الذى كتبه ، والمحفظة التى التقطها وعاد الى السير فى مخدعه وفكره لم يبرح رأسه ولم ينحرف عن مجراه . فكان كلما تنقل ببصره راى امامه لوح المقدور وفيه سطر قد خط بأحرف من النور : اذهب فأمط عنك اللثام وانتسب

وعلى الاثر تراءت له الفكرتان اللتان جعلهما ملاك حياته وقد سكنتا فى هيكلين متباينين اخذا يدنوان منه تحت الليل (وما نسى القارىء ان اولاهما لم تكن غير التنكر وان ثانيتهما لم تكن غير التوبة والرجوع الى الخالق) فجعل يضاهى بينهما ويقيس ويقدر حتى خلص الى الحكم بأن الاولى انما ركبت من الاثرة (١) وحب العاجلة (٢) فهى اذن من وحى الشيطان.

---

(١) حب الذات (٢) حب الدنيا

وان الثانية انما صورت من الاحتساب وحب الآجلة فهى اذن من وحى السماء . ورأى هذه وهى تنهض من الظلمة وتلك وهى تنبعث من النور فرزق التمييز بين نزعة الشر ونزعة الخير

ثم اشتبكتا امامه فى نزال فجعل يفكر فى امرهما . وانه لكذلك اذ نظر اليهما بعين عقله ، فاذا بهما قد اخذتا تربوان وتعظمان حتى صارتا كتماثيل العماليق . وفى هذه اللمحة احس فى باطنه وفى ذلك الملكوت النفسى الذى لا يعرف مداه نضالا قد قام بين ملك من الملائكة وشيطان من الشياطين وسط كتائب من الظلمة والنور . وكان يؤتى (١) اليه انه فى حراسة ذلك الملك فشد (٢) منه ان رآه من الظاهرين (٣) ومر كأن لم يكن ذلك الجازع ، وايقن ان السريرة والقدر اوفيا على ساعة الابرام فى امره

فقال فى نفسه : لقد اوضح العابد سبيلى فى الطور الاول من حياتى الجديدة . وها هوذا (شان ماتيو) يوضحه لى فى طورها الاخير

وعاودته حمى الفكر بعد ان هدات هداة فمرت برأسه الف فكرة وكلها تصيح به ان امض فى عزيمتك ولكنه لم ينج فى اثنائها من خلجة شك مرت بنفسه ، فقال : اراني متعجلا فى الامر ، وماكان (شان ماتيو) ممن يعتد بهم ، ان هو الا لص من السارقين

ثم عاد فقال لنفسه : « اذا كان هذا الرجل من السارقين كما يزعمون ، فان عقابه لا يتعدى عمر الشهر فى السجن . فما له كتب عليه ان يطوى فيه حياته ؟ فلولا انهم اخذوه بى وحل به شؤم اسمى الذى لبسه كارها ، لما حشروه فى زمرة المجرمين لانتزاعه تفاحتين او ثلاثا من شجرة لغيره ، وما كان نائب الملك ليصنع به ما صنع ، لولا ان علم ان له سوالف غير محمودة ، وانه يحمل ذلك الاسم الممقوت »

---

(١) يخيل اليه (٢) قواه (٣) الغالبين

ثم خطر له ان يذهب فيكشف عن نفسه لعلهم يمهرون هذه البطولة بالعفو عنه . دع تقديرهم لحسن سيرته وما خلف وراءه من الخيرات فى هذا البلد . ولكن هذا الخاطر لم يلبث ان محته ابتسامة مرة قد خطفت على شفتيه ، فقد قال لنفسه على الاثر :

ـ ان قطعة الفضة التى انتزعتها من ذلك الغلام انتزاعا ستلبسنى ثوب المجرم العائد ، وعقابى على ذلك لا يحتمل التأويل فهو سجن الابد

ثم نفض عنه غرور دنياه وقطع ما بينه وبين الارض واتجه الى السماء يستنزل المعونة والعزاء . وقال : « سبيلى ان اقوم بالواجب فلست اتوقع شرا مما انا فيه . فهبنى تركت الاقدار تجرى على اذلالها ، ولبثت فى القرية بين سيجان من العز والشهرة وحسن الاحدوثة التى اعلم دون غيرى انها متبلة (١) بالجريمة ، فأى نفس زكية ترضى بأمثال تلك النعم اذا ما علقت بها اللعنة ؟ على اننى اذا طبت نفسا بالاحتساب ، وقضيت العمر فى السجن مقيدا مغلولا فى لباس من العار لا يستمطر رحمة القلوب ، بلغت بذلك مرتبة الرضى !

« وهذا امر قد فرغ منه القدر ، وما خلقت لانقض فى الارض ما ابرم فى السماء .. فأنا اليوم بين امرين : اما فضيلة تحتها عار ، واما عار تحته فضيلة »

وتعاقبت عليه الافكار واطافت به الهواجس ، فما نهنهت من عزمه ولا كفت من غربه . ولكنها كدت ذهنه وافظعته بكراتها حتى وهى عن احتمالها ، فجعلت عروقه تطرق فى صفحتى وجهه كالمطارق ، وانه لكذلك اذ آذنت ساعة البيعة (الكنيسة) بانتصاف الليل ، واجابتها ساعة باحدى دور المدينة ، فجعل يعد الاثنتى عشرة دقة للساعتين ، ويضاهى

---

(١) متبلة ـ بتشديد الباء ـ أى مخلوطة بالجريمة ـ من تبل الطعام ـ بتشديد الباء ـ جعل فيه التابل الذى يطيبه

بين جرس (١) الجرسين فذكر على الاثر انه رأى عند احد باعة الفلزات (٢) جرسا عتيقا معروضا للبيع وعليه اسم (انطون البين)

ثم احس البرد فزاد فى نار المدفأة ، وغاب عنه ان يغلق النافذة ، ثم وقع فى ذهوله من جديد وحاول جهده أن يذكر ما كان يجول فى نفسه قبل انتصاف الليل فغمره النسيان ، ولكنه لم ينشب ان خرج منه الى الذكر فقال : « لقد ذكرت انى عقدت النية على الذهاب واماطة اللثام » . وخطرت له ذكرى (فانتين) فلمح بين ظلمات هذه الهواجس وميض نور لم يكن يتوقع رؤيته ، فتغيرت حوله وجوه المناظر . وصاح : « ويل لى ! لقد اعمانى حب الاثرة فلم أفكر فى غير نفسى ، وارانى قد قصرت همتى على امرين اما التنكر وفيه نجاة الجسد ، واما الظهور وفيه نجاة الروح .. ولقد خاصمت نفسى الى نفسى ، فكنت قاضيا قد جمع بين العزة والهون ، وكنت مجرما قد ضم بين النبل والخسة .. وهذا لعمر الله لون من الوان الاثرة ولو ملت الى الايثار لبدات بغيرى

« فهبنى ذهبت اليوم ، وكشفت عن نفسى فساقونى الى السجن وخلوا سبيل (شان ماتيو) ، فماذا يحل بعدى بهذا البلد الذى اغاثه الله بى ، فأقمت فيه المصانع ، وايقظت الصناعة وشيدت دورا للعاملين واخرى للعاملات ، وكفلت الايتام وحبست الارزاق على الزمنى ، وكنت لهم بمنزلة الوقود من التنور واللحم من القدر .. فهم يستمدون منى حياتهم ، وانا محور تجارتهم وموئل عفاتهم ومثابة (٣) ارزاقهم وبى اخصب عيشهم واخضرت اعوادهم ، ولم يكونوا من قبل شيئا مذكورا !..

« دع تلك البائسة المضعوفة التى اصبحت هامة (٤) اليوم

---

(١) الجرس صوت يجرس (٢) الحردوات أو ما ينفيه الكير من خبث الحديد
(٣) محل (٤) يقال فلان أصبح هامة اليوم أى حضر أجله

او غد بعد ان ابتذلت خدرها ، وهوت من سماء طهرها ، وانا الذى اخرجها عن افق العفة ، وكنت اذنا للسعاية بها فطرحتها من المصنع حين لاموئل ولا عائل ، فأكلت بثدييها وكنت لها من الظالمين

« وتلك الطفلة المنبوذة وقد عاهدت الام على نجاتها فما اصنع بعهدى معها اذا نزحت اليوم ، فماتت الام واصبحت الطفلة تحت رحمة الاتفاق ، يقذف بها القدر فتلقفها الغير . فلننظر ما ينجم من الضرر فى حالتى اللبث والذهاب » !

ثم وقف عند هذه النظرة فعراه ضرب من الحيرة اعقبته رعدة مرت كأن لم تكن . فتمكن من نفسه وقال : « ليذهب ذلك الرجل الى السجن فقد سرق . ومالى احسن به الظن فأدفع عنه الاثم ، فلأمكثن هنا واثمر هذا المال ، فاذا احسنت عليه القيام ولد لى فى مدى عشر سنين الفى الف انفقها فى وجوه البر ، وليس بى ان اعمل لنفسى ، فلست ممن يتربحون فى الجميل ، فاذا استبحر البلد وماج بأهله ولدت القرية مدينة وولدت الدسكرة (١) قرية واطلع العراء ضيعة (٢) فتحيا الصناعة وتنمو المصانع وتكثر المناسج ، وتسعد الاسر ، فيموت البؤس وتموت بموته الآثام ، فلا قتل ولا سرقة ولا فسق ولا فجور ، وتنعم تلك البائسة بقرب طفلتها

« لقد كنت محمقا حين قطعت بالسفر ، وما كانت آفتى فى ذلك الا الاثرة ، ولو اننى ذكرت غيرى لما هممت بركوب ذلك الخطل ، وانها لضلة قد ثنى الله عنها عنانى

« الستحيى نفسا اثيمة ، واميت انفسا زكية ، واتوقع على هذا اجرا ؟.. بسل (٣) على أن تموت (فانتين) وهى على ظمأ الى رؤية طفلتها ، وان تهلك الطفلة ولا تعرف لها اما

« كل ذلك من اجل مجرم لا اراه الا خليقا بما حل به من

---

(١) عزبة (٢) الارض المزرعة أو الافدنة (٣) حرام

العقاب ، ولا احسب الا انه رب سوالف فى السوء ، فلا يضيره ان يقطع المرحلة الاخيرة من عمره سجينا كان او طليقا

« ولو ان لتلك الطفلة كافلا غيرى لما جزبنى الامر . فاذا اجرمت باللبث ههنا ، فعلى اجرامي ، وان هى الا غمزات من الندم اجد لها مسا فى الفؤاد ، فلأصبرن على سعيرها ففيه نعيم لاناس ليس لهم دونى من ولى . وها انذا وطنت النفس على عيش ظاهره الرحمة وباطنه العذاب . ذلك هو عين الاحتساب . . ! »

□

ثم طفق يمشي فى مخدعه وقد تبسطت فى هذه المرة نفسه ورضى عن عقباه وشحذ عزيمته على المضى فيما رسمه

انما تلتمس الحقائق فى دياجير اغوار الفكر ، فمثلها كحجر الماس لا يلتقط الا من ظلمات المناجم بين سوادين من فحم وليل . خيل اليه انه هبط الى تلك الاغوار فسلك فى اشدها حلوكة وابعدها مدى ، ثم جعل يتحسس بيديه فى تلك الدجية (١) حتى ظفر بحجرة من ذلك الماس او بحقيقة من تلك الحقائق ، وانه ليقبض عليها اذ تفجر منها نور كاد يعشى بصره ، فصاح : « ها انذا قد وجدتها ، وها هو ذا فى يدى مفتاح طلسمها »

« فأنا (مادلين) وسأكونه ما حييت ، فلا يسرنى أن أكون (جان فالجان) . ومالى اقول جان فالجان وانا لا اعرف خلقا قد ركب عليه هذا الاسم ، فان كان حيا كما يزعمون فليتول امر نفسه ولا احسب هذا الاسم الا طائر شؤم له سبحات تحت الليل ، فاذا عن له راس قد انتواه القدر وقف فوقه فاضطرب ثم انقض عليه فطاح به »

---

(١) مفرد دجى

ثم نظر فى مرآة له صغيرة وقال : « لقد رفهت عنى هذه العزيمة ، فصرت بعدها غيرى قبلها »

ثم خطا خطوات ووقف يخاطب نفسه :

« لتصنع العواقب صنعها فقد قضى الامر ، واستحال غير الاقدام ، على انى لا ازال ارى آصرة من الولد تربطنى بهـذا الاسم فمن الـكيس قطعها . واشياء فى هـذا المخدع ربما وقفتهم على اثرى ومهدت السبيل للشك فى امرى .. وهن وان كن صوامت فانهن افصح عند الشهادة لسانا من الناطقين، فمن خطل الرأى ان ابقى عليهن »

ثم ضرب بيده الى جيبه فأخرج كيسا التقط منه مفتـاحا اولجه فى ثقب قفل لا يكاد يرى لدقته فلـكم خدع مكانه عين الناظر لـكمونه بين خطوط دكناء رسمت متناسبة الاوضاع على ورق كسى به الحائط . فانفرج الحائط عن مخبأ كانت تواريه مرآة مضللة نصبت بين زاوية الجدار وحجاب المدفأة لتصرف عين الناظر . وكان فى ذلك المخبأ اهدام بالية ومعطف ازرق وسراويل (١) رث وجراب عتيق وعصا غليظة مقمعة بالحديد . ذلك هو متاعه الذى كان يحمله يوم مر بمدينـــة (دينى) ســنة ١٨١٥ وكان يخفيه عن نظره هربا من ذكرى السجن ويظهر الشمعدانين حبا فى ذكرى العابد

ثم رمى الباب بنظرة عجلى كأنه يخشى الغرة برغم الوثوق من الايصاد ، واهوى كاللمح على ذلك المتاع دون ان يسـعده بنظرة منه فاحتضنه ، والقى به فى النار ، ذلك المتاع الذى طالما قدسه ، ولم يبال الخطر فى الابقاء عليه

وما هى الا لمحة حتى اشرق المـكان بنور احمر رقصت اشعته على الجدار الذى يسامته ، فعلم ان النار قد اتت علي

---

(١) سراويل مفرد والجمع سراويلات

متاعه الا عصاه فقد بقى فيها دماء (١) دل عليه شرر كانت لا تزال ترمى به الى وسط الحجرة

وسطع ريح الجراب وهو يحترق بما فيه من الخلقان ، وظهر على اثره فى الموقد شيء لماع لو دانيته لرأيت انه لم يكن غير تلك القطعة الفضية ـ قطعة الغلام (سافويار) ـ ووقع نظره على الشمعدانين وقد اضاءتهما النار فانعكس لهما على الموقد ما ادرى اى لون من الوان الاشعة ، فصاح وهذا ايضا لامعناة (٢) للابقاء عليهما ، ثم الحقهما بمتاعه فلم يلبثا ان صهرا وحالا الى سبيكة منكرة ، ثم خطا الى الموقد فانحنى عليه واصطلى قليلا وتنفس وقال : « نعم الدفء » !

ولم يكد يحمد مغبة أمره حتى شعر كأن صوتا فى داخله يصيح به : (جان فالجان) !.. فقفف (٣) شعر رأسه واستطير فؤاده وكان كمن يسمع صوت الويل ، ثم اخذ يتسمع واذا به يناديه : « هنيئا لك لقد اكملت صنعك ، اتلفت الشمعدانين ـ نجوت من الم الذكرى ـ نسيت العابد ـ نسيت معه الماضى ـ سقت (شان ماتيو) الى الهلاك ـ هنيئا لك لقد نجوت ـ فكن شيخا وقورا ودع اسمك يحمل البلاء الى غيرك فيمضى فداء لك ـ كن عريض الجاه خصب الفناء ـ عل من شئت من الناس ، واكفل من شئت من الايتام . ولا تنس وانت مستقر فى الذروة من الجاه ومتدل فى الجزيل من النعم ان تذكر ذلك الذى يلبس فى السجن لباسك ويخطر فى قيودك واغلالك ، فليهنئك ما قدمت يداك »

فتفصد جبينه عرقا ووقف ساهم الوجه سادر البصر قد شدت اهدابه الى بقايا الشمعدانين . كل ذلك والصوت لا ينقطع عن مناداته : « جان فالجان ! انك لا تعدم ان ترى حولك قنابل (٤) من الناس ترتفع اصواتهم بالدعاء لك والثناء

---

(١) بقية (٢) يقال معنى الشيء ومعناته ومعنيه (٣) قف ـ بتشديد الفاء ـ شعر رأسه أى وقف (٤) جماعات

عليك ، فلا تنس وانت فى مظهر سلطانك ذلك الصوت الخفى الذى لا يحجبه عن سمع الله حجاب ، واتق دعوة تنهض من ظلمة السجن الى جوانب العرش فتجب فى طريقها دعواتهم وتقطع سبيل العروج الى السماء فتمسى ومالك غير اللعنة من خلاق (١) ولبئس عقبى الدار »

واخذ ذلك الصوت الذى كان يحدثه كالهامس فى اذنه يعلو ويعظم ، حتى صار له دوى كاد يفتق طبلتى مسمعيه ، وبعد ان كان يشعر انه صوت من اصوات الضمير قام بنفسه ان الذى يكلمه لم يكن غير حى من الاحياء تحتويه الحجرة فرمى بصره يطلبه فى اركانها ، وصاح وهو لا يعى : « من المتكلم ؟ » . ثم ضحك ضحكة من به مس ، وقال : « لشد ما وهمت فليس هنا غيرى »

وما كانت الحجرة خالية كما كذب نفسه ، ولكن الذى كان فيها لم يكن ممن تقع عليه العيون ، ثم عاود المشى بخطى رتيبة (٢) تبعث الاسى وتثير الشجن فكانت تقطع عليه سلك التفكير ، وتقطع على ذلك النائم تحت حجرته غراره (٣) فيثب من فراشه مروعا مذعورا

على ان هذا المشى كان يروح عنه ويشمله فى آن . وقد تدفع الملمات صاحبها الى الحركة رجاء ان يصيب فى طريقه من يشد عنه برأى أو ينفس عنه بنصح

وأجازت به آنة أنكر فيها نفسه ومكانه ثم نبهه فزع ملأ جوانب صدره ، فتراجع مخذولا امام كلتا العزيمتين اللتين اعتزمهما ، وبدا له قبح ما اضمر فأيقن ان لا خير فى الاولى ولا أجر فى الثانية . وقال : « ما اشأم هذا الاتفاق الذى رمى (بشان ماتيو) بين أيديهم فأخذوه بى وانظرنى ههنا حتى

---

(١) أى نصيب (٢) الشىء الرتيب الذى يقع متشابها على وتيرة واحدة
(٣) الغرار النوم القليل

مكنت لنفسي فملـكت يومي وبلغت من الثروة ما بلغت » .
ثم التفتت نفسه التفاتة الى حاضره واخرى الى ماضيه وقال :
« اكشف عن نفسي .. قالها ونفسه تكاد تسـيل جزعا ـ
« سلام على عيش لبسته مضطرا وخلعته كارها . فلقد آن للنفس ان تودع ما فيه ، فتستـبدل (١) الاذلال بالاجـلال والضيق بالسعة والنصب بالدعة ، وللعين ان تستبدل عبوس السجان ببسمات الشكر عند الاحسان ، وللأذن ان تستبدل رنات السلاسل بتغريد البلابل عند اقبال الربيع فى وشيـه البديع ، وللرجل ان تستبدل الحجل فى القيود بالتنقـل بين المروج والنجود (٢) وللأنف ان يستبدل ريح صدأ الحـديد بأريج الزهرات والورود ، وللجنب أن يستبـدل خشـونة المضاجع بلين فراش المخادع ، وواها من وحشـة سـجن الوحدة والتقلب فى الوان الشدة ، وفى ذمة الله ايتها الدار فما كان اخصب ايامك واقصر اعوامك . وانت ايها الخادم العجوز فما كان ايمن صباحك وابرك صلاحك . وقد آن لى وانا العاثر المجدود أن استدبر عيشا اخضر ، لاستقبل عيشـا اغبر ، والبس رداء احمر ، نسجته يد البلاء الاكبر ، وخاطه الشقاء لمن يسوقه القضاء . اللهم غفرا . افى مثل هذه السن وقد نيفت على الخمسين ارد الى السجن وانا اعلم الناس بما فيه من عذاب وهوان ؟.. الا انى لو كنت فى عهـد الشـباب لاضطلعت بخطبه . اما وقد اخذت منى الايام فلا طوق على مصابرة الشدائد

« ينهرنى الحرس ، اخاطب (٣) بالـكاف ، تأخذنى سياط

---

(١) يقال استبدل الطربوش بالعمامة اذا أراد ترك العمامة فالباء تدخل دائما على المتروك قال الله تعالى :«أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير »

فى هذه الصفحة وحدها قد أضفنا كلمات من عندنا دعانا اليها حسن المقابلة فى المعانى واطراد القول

(٢) جمع نجد أى المرتفع من الارض (٣) علامة الاحتقار

السجانين ، دع عصا كبيرهم : امسى عارى القدمين فى حذاء من الحديد . امد ساقى لمطرقة القين (١) الكشاف فى الصباح والمساء ليبلو قيودها ويمتحن اغلالها ، اصبح هدفا لاعين الزوار، فكلما مر بى احدهم قالوا : « هذا هو جان فالجان الشهير الذى كان شيخا (لمنتراى سيرمير) »

« فاذا جاء الليل عادوا بنا الى السجن ونحن نسبح فى غدران من العرق ، وقد كدنا الموكلون بمذابنا ، فندخل اثنين اثنين بين ايد تعمل فى اقفيتنا وسياط تقدح فى ظهورنا فما امرها من حياة . انى اكاد اتهم القدر . اتراه تجرد من الروحانية وانغمس فى البشرية فحل فى هيكل شرير حضرت فى استنباط الاذى قريحته واقفر من الرحمة فؤاده ؟ ! »

ثم رجع الى هواجسه الاولى ووقف عند تلك العقدة التى اعياه حلها : « ايقيم هنا فيصبح شيطانا احلته الجنة ام يذهب الى هناك فيصبح ملكا احله السعير ، فتأوه وقال : « ربى كيف الخلاص ؟ »

ثم اكتنف العذاب نفسه وشاع فيه الالم واخذ فكره يختلط عليه ، فمر به ما ادرى اى صنوف البله ولعله اثر من آثار مواقع اليأس فى النفوس . وذكر وهو فيما هو فيه كلمة (رومان فيل) ، فقال : « ترى متى سمعت هذه الكلمة ؟ سمعتها منذ عهد فى اغنية صغيرة تقع فى بيتين من الشعر وانى لاحسب (رومان فيل) اسما لغاب صغير بضاحية من ضواحى باريس يؤمه العشاق من الشباب فى شهر ابريل ، يجنون زهرات الزنبق »

وسرى اضطراب باطنه الى ظاهره فجعل يترنح فى مشيته كأنه وليد قد خرج من الحبو الى المشى ، فترك يمشى وحده فهو لا يكاد يتماسك فجعل يكافح اشد الكفاح ليثوب اليه

---

(١) الحداد

رشده ويخرج من ذلك البله ، حتى اذا تمكن من نفسه او كاد ، اراد ان يعزم العزمة الاخيرة . اما الكشف عن نفسه واما السكوت على حاله ، ولكنه لم يرزق التمييز

وطاحت هواجسه بثمرات فكره واخذت تصوراته المبهمة تضطرب امامه ثم تحولت بالتعاقب الى دخان تذهب به الرياح ، فأحس انه انى وقف او وقفته الضرورة فان بضعة منه هالكة لا محالة ، فعليه أن يشهد ، اما احتضار سعادته ، واما احتضار فضيلته ، وعاوده التردد فعاد الى موقفه الاول

□

هكذا كانت تضطرب هذه الروح المعذبة تحت سيال من الكرب والبلاء

قبل عهد هذا البائس بثمان عشرة مائة من السنين ، هناك عند تلك الزيتونة المباركة التى كانت تعبث بها هوج (١) رياح الابد ، وتحت ذلك الفلك الحالى بالكواكب ، كان ذلك السر الغامض الذى اعجز العقول ادراك كنهه ، ذلك الذى حل فى صورة قد ركبت من الكمال والهدى ومن آلام هذا الورى ، يعاف هو ايضا شرب الكأس المرهوبة التى طالما نحاها عنه بيده ، كلما خالها تفيض بكسف من ظلمات ، تسلسلت منها ظلال تجزع عند وردها النفوس

---

(١) جمع هوجاء وهى الرياح الشديدة

الفصل الرابع

الوان الالم فى النوم

اقبل السحر وهو لا يزال يمشى فى حجرته فاستشعر التعب ، فلقد مرت به خمس ساعات على التعاقب لم ينفس فيها عن نفسه فارتمى على مقعد . وما هو الا ان احتواه حتى غط فى النوم ، وسنحت له رؤيا شبيهة بتلك الرؤى التى تمثل للمهموم فى نومه ما كان عليه فى يقظته ، مغالية فى تلوين وجوه الالم . ولقد نال منه هذا الحلم ما لم تنله اليقظة فلم يكد يفيق حتى خط بيده ما كان مركوزا فى نفسه من وحى ذلك الكابوس

وليس من الامانة ان نمر به ولا نذكره فيصبح تاريخ الليلة وهو ابتر ، ونحن مثبتوه هنا لم نخرم منه حرفا :

الرؤيا

رأيت كأننى فى قفر لا نبت فيه ، وكأننى كنت بحيث لا ليل ولا نهار ، وكأن اخى كان يماشينى فى ذلك القفر ، ذلك الاخ الذى طويت معه عهد الحداثة ، ثم افترقنا وطال الامد حتى نسيته

سرنا وقد رمانا الطريق ببعض السابلة ، ثم خضنا فى حديث جر الى ذكره جارة كانت لنا فى ذلك العهد ، كانت تعمل امام نافذة مفتوحة تطل على الطريق ، وكأننا ونحن نتحدث

فى ذلك القفر نجد مس البرد المصبوب علينا من تلك النافذة..
وهفا بنا فارس فى لون الرماد على فرس فى لون التراب عارى الجسد اصلع الرأس جميعه ، حتى أن الناظر الى جمجمته ليكاد يعد فيها فروع أوداجه . وبيده مخصرة فى لدونة فرع الكرم ، وفى ثقل عود الحديد ، هفا بنا ولم يسلم ..!

فقال لى اخى : « اعطف بنا على هذا الطريق الاجوف . وكان طريقا سماؤه فى لون ارضه لا يرى السالك فيه اجمة ولا خضراء ، وانى لاحدثه وانا لاه عنه بما انا فيه ، اذا به قد راغ روغة واختفى . ثم رفعت لى قرية فيممتها فخرصت (١) عليها انها قرية (رومانفيل) فركبت اول طريق لقينى فاذا به قفر ، عدلت عنه الى ثان فلما بلغت الزاوية التى تربطه بأخيه اذا انا برجل قائم عند حائط ، فسألته عن اسم القرية التى احلتنى فلم ينعم بالجواب .. وفتح باب دار ولج فيه ذلك الرجل فتعقبته فاذا انا برجل قائم وراء الباب فسألته لمن البيت فأعرض عنى ولم يجب ، وكان للدار بستان دلفت اليه فاذا انا برجل قائم تحت شجرة فسألته لمن البستان فأعرض عنى ولم يجب . فهمت على وجهى فى تلك القرية التى اقفرت من الانس سبلها وفتحت ابواب دورها فما رمانى الطريق بأنسى ولا احسست حركة فى دار من تلك الدور ، غير أنى كنت أرى عند كل جدار وخلف كل باب وتحت كل شجرة رجلا قائما قد اخذ نفسه بالسكوت . فانحدرت الى المزارع ، فلم اكد انقل فيها بعض الخطى حتى رأيت وقد نظرت خلفى زمرة تتعقبنى ، واذا بكل اولئك الذين رأيتهم قياما قد ترسموا اثرى ، ورأيت كأنهم يمشون الهوينا ، ولكنهم على تريثهم كانوا اوسع منى خطى واخف حركة ، وما هى الا لمحة حتى لحقوا بى وتكنفونى

---

(١) اى تظنيت ، خمنت ، حزرت

وكانوا جميعا فى لون التراب ، فسألنى احدهم واحسبه اول رجل لقيتــه عند هبــوطى القرية : « اين تمضي ويلك ـ أولست قد مت من عهد بعيد ؟ » . وبينا اتهيأ للجواب اذا بهم قد اختفوا جميعا

□

ثم هب من نومه وكأنه قطعة من الجليد وقد خمـدت نار المدفأة وذابت الشمعة الا قليلا ، وكان الليل لا يزال ليـلا فقام الى النافذة ونظر نظرة فى السماء ، فاذا بها لا تزال ضريرة النجم . وكانت النافذة تطل على فناء الدار والطريق

وبينا هو ينظر الى السماء اذا به قد سمع صوتا جافيـا وضـــجة عنيفــة على وجه الارض ، فخفض بصره فرأى نجمين احمرين يشعان اشعة تترامى فى جوف ذلك الليـل ، وكان لا يزال فى بقـــايا خياله ، فقـــال : « دفعت الليلة الى عجائب ، ترى اعافت النجوم سبحاتها فوقنا فهوت تســبح تحتنا ؟ » . ثم قامت ضجة ثانية كان من اثرها فى نفسه ان عاد الى صوابه فنظر نظرة أخرى ، فاذا بالنجمين الاحمرين لم يكونا غير مصباحى عجلة قد شد اليها جواد ابيض ، فسأل نفسه : « لامر ما بكرت هذه العجلة ! »

وفوجىء بطرق على الباب ، فأزعجته هذه الفجاءة وصاح بصوت خشن : « من الطارق ؟ » فكان الجواب : « تلك انا ياسيدى الشيخ » فعرف صـــوت خادمه العجوز ، فقال : « وما تريدين ؟ » . فقـــالت : « انها الســـاعة الخامســـة يا سيدى » . قال : « وما شأنى بذلك ؟ » . قالت : « لقد حضرت العجلة » . قال : « اية عجلة ؟ » . قالت : « تلك التى تقدم سيدى بتهيئتها فى هذه الساعة وها هو ذا السائق يطلب لقاءك » . قال : « ويحك اى سائق ؟ » . قالت : « سائق السيد سكوفير » ، وما كادت تذكر هذا الاسم حتى

احتوته رعدة ، وكأن برقا من الذكرى قد خطف امام عينيه . ثم سكت سكوتا طويلا . ولو رأته الخادم وهو على تلك الحال لتمشى قلبها فى صدرها من هول ما ترى . وعاوده البله فجعل يلهو وتعبث انامله بتلك الشباك التي نسجتها الشمعة من دموعها . وخاطرت الخادم بتذكيره فقالت : « سيدى الشيخ ، كيف اجيب السائق ؟ » . فقال لها : « قولى له انى سأوافيه الساعة »

□

وكان البريد بين اراس ومنتراى سيرمير يحمل فى ذلك العهد على عجلات ذات ترسين مطوقين بجلد اسمر وفى كل عجلة مقعدان : مقعد للسائق ومقعد للمسافر . ولم تكن تلك العجلات التى انقرض اليوم نوعها على شيء من الرواء . وقد كان ايسر عيب بها انها حدباء . فاذا لاحت للناظر عند مطرح البصر وهي تزحف تحت الافق زحفا ، حسب انها من تلك الدواب التى دقت خصورها وثقلت اعجازها . وكان البريد الذى يغادر اراس فى كل ليلة لا يبرحها حتى يوافيها بريد منتراى سيرمير

وفى هذه الليلة نفسها كان البريد الهابط الى منتراى سيرمير من طريق هيدسان قد صدم عند منعطف الطريق عجلة صغيرة قد شد اليها جواد ابيض وفيها انسان مدثر ، فرجتها الصدمة رجة اشفق معها حامل البريد على ذلك الرجل فسأله الوقوف ، ولكن الرجل قد انطلق فى طريقه وهو يركض جواده ملء فروجه (١) فقال حامل البريد : « ويل له ، لقد استطرد به الشيطان » . ولم يكن الذى مر يعدو غير صاحبنا الذى بات على حال حقيقة بالرحمة . فلو انك سألته الى اين تمضى ؟ ومالك هكذا تسرع ؟ لاجاب : لا ادرى

---

(١) أى ملء مابين أقدامه ، والمعنى أنه أسرع بجواده

انه خرج تحت مشيئة الاتفاق . فاما الى (اراس) واما الى غيرها . ومرت تهوى به العجلة فى جوف الليل وكأنها مدفوعة الى هاوية ، وكان يشعر انه قد بات نهبا لقوتين متباينتين لا قبل له بهما : هذه تدفعه وتلك تجذبه ، ولا يعلم الا الله وحده ما كان يجول فى مناحي نفسه . ومن ذا الذى سلم من ان يضل ولو مرة واحدة فى ظلمات مغاور الغيب ؟ فسار وما عزم عزما ولا وقف عند رأى رضيه ولا سكنت سريرته لامر ابرمه . فكان فى اخرى هواجسه مثله فى اولاها ، ما زال واقفا حيث كان . ثم عاوده ما كان يتمشى فى نفسه حين ركب العجلة ، فقال : « مهما كانت العاقبة فمن العجز الا آخذ بالحيطة . وليس للمرء ان يقطع بوقوع أمر من الامور، ولكن له أن يطرحه تحت نظر فكره فيستبطنه بحثا واستقراء . ومن نصب نفسه للحكم على الاشياء وهو غير مكثب (١) فقد اخطأ مواقع الرأى واطلع من الذر جبالا ، ولعلى اذا لقيت (جان ماتيو) وجدت الامر ايسر مما فى نفسى ، ورأيته اهلا لما نزل به . اما (جافير) فما كان ليكبد (٢) لى وقد صرف الله عنى عنانه وصبه على (جان ماتيو) فصوب اليه الظنون والشبهات ، ونعوذ بالله من عنادها ، فانها ما نزلت بصدر الا تعصى على صاحبه انتزاعها . فلا خوف اذن من ذلك الداهية ، ولا اكذب نفسى فالساعة مرهوبة ، ولكن باب الرجاء لا يزال مفتوحا ومصيرى لا يزال بحمد الله فى قبضة يدى اصرفه كيف اشاء

واشتد به بعد ذلك القلق فكان يؤثر فى قرارة نفسه أن يعود على ان يذهب . وكان كلما انقبض صدره صب سوطه على ذلك الجواد الذى كان يحضر (٣) احضارا يطوى فى الساعة فرسخين ونصف فرسخ . وجعل كلما اندفع فى طريقه نمت عنده شهوة الرجوع

---

(١) أى قريب (٢) أى يصعب على (٣) أى يجرى جريا سريعا

ولما تنفس الصبح او كاد ، كان فى الفضاء وقد اختفت مدينة مونتراى سيرمير فنظر الى افق قد ابيضت ذؤابته ، وبرزت صحيفة وجه فجر ولدته ليلة من ليالى الشتاء ، اصباحها اشبه الاشياء بامسائها . لا تكاد ترى تباشيره ، ولكن اخيلة (١) التلال والاشجار قد اضافت الى ما كان فى نفس هذا البائس ما يعلم الله من ضروب الحزن والاسى ، وكان كلما مر بدار من تلك الدور المنعزلة على لقم (٢) الطريق قال فى نفسه : « ما لهذه الدار بد من ساكن ينام ملء جفونه »

وكان لخبب الجواد وجرس جلجله ووقع العجلة على البلاط ، ايقاع حسن ونغم متماثل يدخل الانس على نفس الخلى ويزيد فى اسى نفس الشجى

فبلغ قرية (هيدسان) وقد اضحى ، فوقف امام نزل رجاء ان ينفس عن الجواد ويعلفه . وكان جوادا كما قال عنه صاحبه من اصل بولونى عظيم السليل (٢) سحيرا (٤) اذك (٥) اهنع (٦) مفتوح اللبان . دقيق عظم الساق . صلب الحافر . فهو وان لم يكن اصيلا كان (٧) متينا . فعل فعل كرام الخيل فطوى خمسة فراسخ فى مدى ساعتين ، وما نضح كفله بماء ، ولا رمت اعطافه بحميم

وكان لا يزال مشدودا الى العجلة حين حضر غلام النزل يحمل اليه العلف ، وحانت منه التفاتة الى العجلة اليسرى ، فصاح بالرجل : « او انت على سفر بعيد ؟ » . قال : « مالك ولهذا ؟ » . قال : « هل قطعت شقة طويلة ؟ » . قال : « خمسة فراسخ » . فأجاب الغلام وهو يدمن النظر الى العجلة : « لئن كانت قد قطعت بك خمسة فراسخ ، لمن المحال ان تقطع بك ربع فرسخ آخر ، انظر الى ما حل بها من

---

(١) جمع خيال (٢) جوانب (٣) اى كبير الرأس (٤) كبير البطن (٥) عريض الكفل (٦) قصير العنق (٧) اى قوى الاعصاب

العطب » فوثب الرجل ونظر حيث ينظر الغلام . فقال الغلام وهو يحاوره : « اولى (١) لك ، فما كان اخلقها ان تطرحك وجوادك فى حفرة من حفر الطريق » . ثم اشار الى مكان العطب ، فاذا العجلة اليسرى قد اخترمها البريد حين صدمها فى منتراى سيرمير ، فقصف اصبعين من اصابعها ، وكاد محورها يفلت المحوى (٢) فقال الرجل : « ابغنى نجارا له خصيصاء بهذا العمل » . فقال : « انه على خطوتين منا » . وكان النجار على عتبة داره ، فجىء به فجعل ينظر الى العجلة وقد انقبضت اسارير وجهه كأنه مطبب ينظر الى ساق مهشمة . فقال الرجل : « اتعالج اصلاحها فى الحال ؟ » . قال : « نعم » . قال : « ومتى اسافر ؟ » . قال : « غدا » . فأجاب الرجل : « غدا ؟ » وقد ملكه الدهش . فقال النجار : « ان اصلاحها يستوفى عمر النهار كله . فهل انت من امرك على عجل ؟ » . قال : « ما احوجنى الساعة الى السفر » . قال : « وددت لو تهيأ لك ذلك » . قال : « اصلحها ولك حكمك (٣) » . قال : « ليتنى استطيع ذلك فأفوز بوعدك » . قال : « انى مسوق الى السفر فاذا اعياك اصلاحها فابغنى غيرها » . ثم قال : « اهنا مركبة للكراء ؟ » . قال : « عندى مركبة يقبضنى عن اكرائها ما اراه بعجلتك من العطب ويلوح لى انك غير حريص على مال غيرك » . قال : « بعنيها » . قال : « اما البيع فلا » . قال : « انى ندى الكف وان اشتط البائع » . قال : « تحت يدى عجلة لأحد الفلاحين يستخدمها فى السادس (٤) والثلاثين من كل شهر ، فان شئت اكتريتها على شريطة الا يراك ربها وانت

---

(١) نجوت وما كدت تنجو ، هكذا شرحها لنا المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطى وهو من أمضغ العرب للشيخ والقيصوم (٢) المحوى بتشديد الواو المسمار القلاووظ (٣) أى ما تشاء من الاجر (٤) مثل يضرب عندهم للمستحيل كقولنا قيام الساعة ، يريد أنه لا يستخدمها مطلقا

منطلق بها ، ولـكنها عجلة عاتية لا يستظل بها جواد واحد ، ومن لك الساعة براسين من الجياد ؟ » . قال : « من مرابط خيل البريد » . قال الرجل . « وما وجهك ؟ » (١) . قال : « مدينة اراس » . قال : « او حتم من الحتم ان تبلغها اليوم ؟ » . قال : « نعم » . قال : « الا يستوى عندك ان تبلغها فى فجر هذه الليلة ؟ » . قال : « لا » . قال : « هل تحمل جوازا للسفر ؟ » . قال : « نعم » . قال : « انك اذا تهيأ لك ان تحصل على جوادين من مربط خيل البريد فما انت ببالغ اراس قبل الغد ، فان خيول البريد فى هذه المراحل منشورة فى المزارع ، ونحن فى ابان الحرث وهم يجمعون له الخيل انى اصابوها . فاذا لجأ سيدى الى ذلك . كان عليه ان يلبث نصف يوم عند كل مرحلة ، دع ما يعرض له من العقبات » . قال : « اسرح جوادى هذا من عجلتى وامتطيه فابغنى سرجا » . قال : « وهل يصبر جوادك على صحبة السرج ؟ » . قال : « لقد ذكرت منى ناسيا . انه لا يصبر على صحبته » . قال : « هل من سبيل الى جواد نبيل يبلغ بى اراس من غير تنفيس (٢) » . وقال : « انك لن تظفر به ، وهبك وجدته فان ربه ليضن به ولو ملأت يديه ذهبا » . فشاع السرور فى نفسه وقال : « ان للعناية يدا فيما ارى ، او ليست هى التى اتلفت العجلة ، وقطعت على السبيل ؟ وقد انذرتنى فلم يلونى انذارها عن القصد ، والتمست المخرج مما انا فيه ، فما ثنانى برد ولا قعد بى نصب ، ولا ارهقتني نفقة ، فأصبحت وقد عدانى اللوم ، فاذا استحال على المضى فى طريقى فتلك مشيئة القدر » . ثم تنفس ملء رئتيه تنفس الحر الطليق ، وخيل اليه ان السهم الذى

---

(١) الوجه القصد ، الجهة ، السبيل (٢) اى فى مشوار واحد كما تقول العامة

ضل نصله فى فؤاده قد انتزعه منه نازع ، فوجد لذلك روحا لم يجده منذ رأى وجه جافير

وقال : « لقد علم الله انى صنعت ما يكاد يخرج عن الطوق فأخطأنى التوفيق ، فلا املك من امرى بعد هذا كله الا الرجوع على هاتين النعلين »

ولو كان حديثه مع النجار فى خلوة لما وصل الى اذن حى وللبث مكتوما ، ولـكنه كان على الطريق المعبد . ومن شأن مثله ان يلفت المار الذى يستهويه حب الاستطلاع فيقف ناشرا اذنيه لتسقط الخبر ، فلا يكاد المحدث يمر فى حديثه حتى يرى حوله حلقة من الناس ، وما منهم الا من هو فارغ لذلك .

وكذلك وقع (لجان فالجان) فبينا هو يحاور النجار واذا بطائفة من السابلة قد التفت حوله ، وكان بينهم غلام لا تكاد تأخذه العين ، قد تسلل من الجماعة وطفق يعدو حتى اختفى وما كاد يهم (جان فالجـان) بالرجـوع حتى عاد الغـلام يصطحب امراة عجوزا

قالت العجوز : « ان غلامى هذا قد نقل الى انك فى حاجة الى مركبة » . وما كادت ترمى بتلك الـكلمة حتى ندى بالعرق جبينه ، وشعر كأن اليد التى سرحته منذ قريب توشك ان تقبض عليه من جديد . فلبث غير بعيد ثم اجاب : « نعم ايتها المراة الصالحة ، فأنا فى حاجة الى مركبة اكتريها ، ولكنهم يزعمون انى احاول المحال » . قالت : « لقد وجـدتها » . قال : « اين ؟ » . قالت : « عندى » . فاحتوته قشعريرة وقال فى نفسه : « كان الذى خفت ان يكون »

وكانت مركبة عتيقة من الخيزران قد علاها الوحل واكلها الصدأ وفعل فيها الجو فعـله . ولم تكن بأحسن حالا من مركبته المعطوبة . ولـكنها لم تأب على ما فيها ان تقله الى اراس ، فلم يجد عنها مزحلا ، فاكتراها على حـكم ربتها وشد اليها جواده وانطلق فى سبيله . وبينما كانت العجلة تجرى

به كان يجرى فى نفسه حديث غريب : « لقد احسست منذ هنيهة سرورا بعثته تلك الحوائل التى قامت بينى وبين المضى فى طريقى وارى الساعة انه سرور كاذب . الويل لى . ايسرنى الاحجام عن مقصد انا الذى وجه اليه نفسه مختارا والقعود عن سفر انا الذى حمل نفسه عليه مسوقا بارادته ؟ »

ولم يكد يمضى فى طريقه حتى سمع صوتا يهيب به ان قف ، فأوقف العربة ارتجالا وقد عرته هزة المحموم المختلج ولعلها احدى هزات الامل . واذا بغلام العجوز يناديه : « انا الذى هيأ لك الحصول على العجلة » . قال : « وما تريد ؟ » . قال : « اجرى على ذلك » . قال وقد فارقته تلك الاريحية التى طالما تهزه الى اسداء الجميل : « اغرب ولا كرامة » ثم ساط الجواد فانطلق يعدو ، واراد ان يعوض ما اضاعه من الزمن فى هيدسان ، فحط على جواده بالسوط . فلقى عناء من الجر وكان قد خرج به غب (۱) سماء فكابد من الوحل وثقل المركبة ما كاد يأتى على قواه ، فلم يطو غير خمسة فراسخ فى مدى ساعات اربع حتى بلغ سانت بول . وهناك نفس عنه فى نزلها وقاده الى الاسطبل ووقف يعلفه . واقبلت ربة النزل فقالت : « الا يأكلْ سيدى ؟ » فقال : « ما احوجنى الى الطعام » . وكانت امرأة صبوحة الوجه فارهة الجسم ، واقبلت خادم ، فهيأت له الخوان وهو يسارقها النظر وقد وجد لها فى نفسه محلا فأهوى الى الخبز ، فمضغ منه لقمة واحدة وكف يده . وكان على المائدة التى بجواره سائق عجلة يأكل . فقال له : « ما لهذا الخبز مرا ؟ » وكان المانيا فلم يفقه قوله ولم يجبه . وانكفأ بعد ذلك الى الاصطبل يراقب الجواد ، فلما فرغ من علفه شده ، وانطلق به الى مدينة (تنك) وكانت

---

(۱) أى عقب مطر

على خمسة فراسخ من اراس . فسار وقد غرق فى هواجسه وجعل يتأمل وجوه الشجر وسطوح الاكواخ ومناظر الخلاء التى كانت تلوح له كأنها قد وقعت فى غشية او سبات

وان لوجوه الارض لتسلية ترفه عن النفس وتصرفها عن التفكير ، ولكنه قد مر بألف وجه منها وما زال كاسف البال وفاته قولهم : «من سافر فقد تجدد » وما يدريك لعله كان يقارن فى نفسه بين تقلب الاجواء وذلك الوجود البشرى الذى لا يستقر فيه شيء على حال فكل ما فيه قد جبل على الفرار منا . الم تر الى الليل والنهار كيف يتعاقبان ، والى الشروق والغروب كيف يتناوبان . والمرء يرى ما يمر به فيسرع باسطا يديه ليمسكه فيفلته ، وكل حادث ينتابنا هو لية فى طريقنا لا تلبث ان تسلمنا الى الكبر ، وكلما احسسنا تلك الهزات الخفية وقف بنا النظر على باب الغد وما وراءه غير الغامض من الغيب ، دع جواد الحياة الذى يستطرد بنا زمانا ثم يقف على غرة من راكبه ، فيأتى من جوف الغيب من يرجله عنه ثم يسرحه

وطلع الشفق على مدينة تنك فى آن ، وكان النهار قصيرا فانطلق حتى اذا مر برصاف يرصف الحجارة قال الرصاف وهو ينظر الى جواده : « ارى جوادا مكدودا » ثم نظر الى الرجل وقال : « لعلك تريد اراس ؟ » . قال : «نعم» ، قال : « انك لن تبلغها على هذا الجواد » . قال : « كم بينى وبينها ؟ » . قال : « سبعة فراسخ » . قال : « ان دليل البريد لا يقول بقولك » . قال : « انهم يصلحون الطريق على مقربة منا فلا يتسنى لك المضى فيه ، وما اخلقك بالعروج على طريق آخر ، فعليك ان تتياسر ثم تركب طريق جارنس ثم تعبر النهر هناك ، فاذا بلغت كامبلان فتيامن واركب المحجة (١) الى اراس » . قال : « اخشى الضلال فى هذا

---

(١) الطريق

الليل البهيم » . قال : « أولست من اهل هذا البلد ؟ » . قال : « اني غريب » . قال : « عد الى تنك واقض الليلة في نزلها واستبدل بهذا الجواد الذى نزح التعب قواه جوادا يقلك الى اراس » . قال : « أستحال غير السفر فى هــذه الليلة » . قال : « اســتأجر جوادا ودليــلا » . فعمــل بمناصحته وقفل الى تنك وعاد يعدو بجواد جديد يصحبه غلام من النزل

وغاب فى احشاء ليل قد كسر على الارض جناحيه . وكان الطريق وعرا ، والعجلة تجلجل (١) فوق نكت الارض وهو فوقها مقلقل الشخص يهيب بالغلام : « ايه ايه ولك ضعف الاجر » . فصاح الغلام : « لقد عطب العريش ، فكيف نمضي ونحن بين طريق وعر وليل خليق ان تصــد محارمه (٢) عن السرى ، فهل لك ان تعود الى تنك وانا الضمين ان تبلغ اراس عند منبلج الصباح » . فقال : « امعك حبل وســكين » . قال : « نعم » . فأهوى الى شجرة فاقتضب منها فرعا اقامه مقام العريش وانطلق فى سبيله

وكان الوادى فى ظلام دامس والضــباب (دان مسف (٣) فويق الارض هيدبه) ينبعث من التلال كأنه كسف من الدخان وقد شاع فى سواد السحب بيــاض ، وهبت ريح البحر فى جوانب الافق فكان لهبوبها اشبه الاصوات بصوت الاثاث عبث به عابث

فتمخخ (٤) البرد عظامه وكان طاويا منذ العشية ، فذكره القر والطوى تلك الليلة التى قضاها منذ سنين ثمان فى ضواحى مدينة (دينى) وقد ذكرها كأنه يذكر أمس الدابر . وسرى الى سمعه جرس ساعة على بعد فقال للغــلام : « ما هــذه

---

(١) أى تتحرك مضعضعة (٢) أى مخاوفه (٣) مأخوذة من قول الشاعر: يصف سحابا قريبا من الارض :

دان مسف فويق الارض هيد به * يكاد يدفعه من قام بالراح

(٤) تمخخ أخرج مخها

الساعة ؟ » . فقال : « انها الساعة السابعة وسنبلغ اراس فى الثامنة ، فليس بيننا وبينها غير فراسخ ثلاثة »

ونزلت براسه فكرة لم يسبق لها فى النزول ، فقال : « ويل لى ما اضيع ما جشمت نفسى فى يومى هذا من التعب اما كان الاخلق بى ان اعلم علم تلك القضية وموعد النظر فيها » ثم قدر فى نفسه تقديرا لذلك الموعد وقال : « ان الجلسات لا تعقد قبل الضحى ، والنظر فى هذه القضية لا يفتقر الى الكثير من الزمن ، ان هو الا سؤال وجواب فشهادة او شهادتان . فكلمة للمدافع . فحكم لا يتعدى التغريم ، ولعلى ابلغ الجلسة قبل الفوات »

كل ذلك والغلام يسوط الجواد فعبر النهر وجاز مدينة مونت سان الواى وقد سطعت غياهب الظلام

□

ولنعد بالقارىء الى « فانتين » :

فى الوقت الذى تجرى فيه هذه الحوادث كانت فانتين رضية البال ، وكانت قد طوت ليلة مذكورة ، كابدت فيها من الحمى ومزعجات الاحلام ما يهد الحيل (١)

ولما اصبحت كانت لا تزال تهذى ، وعادها الطبيب فوجدها فى فورة من النفس فطلبت اليه ان ينذرها عند قدوم مادلين

ولبثت فى تلك الضحوة كاسفة البال لا تكاد تفتح فاها . وجعلت تلهو بطى غطائها طيات مقدرة ، وتحرك شفتيها كأنها تذرع (٢) بفكرها مسافة من المسافات ، وقد غارت عيناها وجمد بصرها ، وانطفأ ضياؤه او كاد . وكانت تفتح بين الفينة والفينة عينيها عن مثل لمعة الكوكب ، ولا عجب

---

(١) الحيل والحول ، بفتح الحاء فيهما : القوة (٢) تقيس بالذراع

فاذا دنت ساعة الشدة فان مددا من السماء يملأ نفوس اولئك الذين فقدوا مدد الارض

وكانت كلما سألتها الراهبة : « كيف انت ؟ » قالت : « احمد الله ولا اطلب الا رؤية مادلين » !

منذ بضعة اشهر وفى ذلك الحين الذى ابتذلت فيه فانتين خدرها فتمزقت عفتها ، وغاض حياؤها ، كنت ترى فانتين وكأنها ظل لفانتين . اما اليوم وقد فنى جسمها فقد كنت ترى فانتين وكأنها طيف لفانتين (والظل للجسم والطيف للروح) ولقد كان لتشويه خلقها اثر فى خلقها فانظر الى تلك المرئية التى لم تشهد غير خمسة وعشرين ربيعا ، كيف هبط اكثر لحمها فتجعد جبينها ورهل خدها ، وشحب لونها ، وبرز منكباها ، وتجردت عظام نحرها ، وانبرت اعضاؤها ، واصبح جلدها وكأنما طلاه بالطين طال . ونبت شعرها الاشقر وقد نصل لونه وجالت فيه طلائع المشيب ، فأف من المرض فانه يرتجل الشيخوخة وانه لانجب مطايا الكبر

وعند الظهر عادها الطبيب فسأل عن مادلين ولما علم بغيابه حرك رأسه حركة اعربت عن الاسف

وكان مادلين يأتى فى عصر كل يوم وما تخلف مرة عن ذلك الموعد . والوفاء من شمائل الطيبة ، وقد كان الرجل طيبا

وعاودتها عند العصر فورة النفس فسألت عن ساعة زمانها عشر مرات فى مدى عشرين دقيقة ، ثم استوت فجأة فى سريرها ، تلك التى كانت لا تنبعث لها جارحة من المرض والهزال . ثم شبكت ذراعين قد انحلهما السقم ، وارسلت من صدرها تنهدا خيل معه الى الراهبة انها رفعت به عن صدرها ثقلا ، ورمت الباب بنظرة من يرقب قدوم انسان . ولكن الباب لم يرمها بأحد فلبثت برهة وهى تنظر اليه ، وكأنها معلقة الانفاس والراهبة لا تجرؤ على سؤالها . ثم

القت براسها على الوسادة ومرت الساعة تلو الساعة ولم يزرها زائر

وما رآها على تلك الحال راء الا وعلم بما يجول فى فكرها ولكنها صابرت آلامها ، فلم تشك ولم تتوجع

وسمعتها الراهبة قبيل الغروب وهى تقول بصوت خافت : « اننى هامة اليوم او الغد ، فما كان اخلقه اليوم بزورة الوداع » . ثم طفقت تغنى ـ وكان صوتها نفحة من نفحات النسيم ـ اغنية عتيقة تدعى بأغنية الارجوحة ، كانت تنغم بها فانتين لانعاس طفلتها فى عهدها الاول ، وقد كان صوتها يقطر حزنا ، وايقاعها مشجيا لا يملك السامع معه الدموع من ان تسيل ، فبكت حتى تلك الراهبة التى درجت على الزهد والتقشف

ولما اعتمت علت وجهها آيات الذهول وارسلت الراهبة صبية تسأل عن مادلين فعادت على الاثر واسرت لها ان مادلين قد سافر وحيدا فى فجر هذا اليوم ولا يدرى خلق بالوجه الذى يريده

وقد رآه قوم على طريق اراس وزعم قوم انه قد ركب طريق باريس وكان هو هو ، لم يلمحوا على ظاهره ما ينم على باطنه . وبينما هما يتساران على مقربة من سريرها وقد استدبرتاه واذا بفانتين وكأن نافضا من الحمى تمازجه حركة المعافى فى بدنه قد حركها فى سريرها . فهبت رغم ذلك الهزال المروع هزال الموت وجثت على ركبتيها واعتمدت على الوسادة بمرفقيها وارهفت للسمع اذنيها وفرجت براسها ما بين سجفى كلتها (١) وصاحت بهما : « انكما تخوضان فى حديث وان لمادلين فيه لشأنا » . ونادتهما بصوت تخالطه البحة والخشونة ، كان من اثره فى نفسيهما ان ظنتا

---

(١) الناموسية

ان المتكلم رجل من الرجال ، فالتفتتا مذعورتين فقالت لهما : « مالكما لا تنطقان ؟ » . فقالت الصبية بصوت خافت : « ان البوابة تقول انه لا يعود الليلة » . وقالت الراهبة على اثرها : « اهدئى انت ونامى » . فأجابتهما بصوت فيه رنة من الجلال ونبرة من الاسى : « انه لا يعود ، اراكما تتساران فى شيء تحاولان كتمانه عنى ، ولا بد لى من الوقوف عليه » ، فألقت الصبية فى اذنى الراهبة كلمات فاحمر وجه الراهبة وهالها ان تكذب ، ثم ترددت بعض الشيء ، وقالت فى نفسها ان انا صدقتها فى مثل هذا الموطن فقد قتلتها ، وان انا كذبتها فقد قتلت كرامتى . ثم لبثت غير بعيد ، وقالت لفانتين بصوت المتمكن من نفسه : « ان مادلين قد سافر اليوم »

فاستوت المريضة فى سريرها وسرت بنفسها عقبة من السرور ومرت بعينها خطفة من بارقة الامل وصاحت : « انه سافر ليرى كوزيت » ، ثم ضمت يديها واستقبلت السماء بوجهها واخذت تصلى . ولما فرغت من صلاتها قالت للراهبة : « الآن حلا لى النوم امضاء لامرك فلا تنزلى امرى على الجراة عليك اذا رفعت صوتى فى الحديث ، فما فاتنى ان ذلك كان خروجا عن افق الادب وانما استخفنى السرور !.. ثم اخذت مضجعها بعد ان لثمت صليبها ، وقالت لها الراهبة : « اهدئى ونامى » فضمت يديها الناديتين على يدى الراهبة التى هالها وفر العرق الناضح من جسم المريضة

وانشأت فانتين تقول : « سافر الى باريس وما كان اغناه عن ذلك ومونت فورمى على يسار ذلك الطريق فلعله يتحرى مفاجأتى بذلك النبأ السار ، فقد قال لى بالامس حين جر الحديث الى ذكر كوزيت اننى سأراها قريبا واخذ توقيعى على كتاب الى اصحاب النزل ولا احسبهم الا فاعلين وما كانوا ليحبسوا عنى كوزيت وقد وفوا اجورهم فحبسها

عني افتيات على اولى الامر ، فلا تومئى الى بالسكوت فأنا الساعة فى عافية لا عهد لى بمثلها وسعادة لا حد لها .
او لست خليقة بعد اعوام خمسة ان ارى وجه طفلتى ولا احسبها وقد بلغت السابعة الا صبية حسناء ولقد صبرت على بعدها طوال السنين ، وللصبر حد ولو ان لى عمر الابد لهان ذلك البعاد

« فما اطيب عنصر ذلك الرجل الذى غامر بنفسه فى ذلك البرد القارس لانقاذ طفلتى ، ولعله يعود فى الغد من مونت فورمى ، وهى بلدة قد قطعت طريقها على قدمى منذ عهد طويل فكان بعيد الشقة على وان كان يسيرا على العجلان ، فيا ترى كم بيننا وبينها ؟..

فأجابت الراهبة التى لا علم لها بتلك الشقة : « انه سيعود باذن الله فى الغد » . فقالت : « سأرى بنيتى فى الغد . ان الامل بلقائها قد البسنى ثوب العافية ، فلست مريضة كما تزعمون ، ولكنى مفتونة ، فلو انى دعيت الساعة الى الرقص لابدعت فيه »

وكانت فى هذه الآونة وردية اللون قد ابتسمت قسمات وجهها ، فكنت ترى ذلك الوجه وكأنه قد جمع من البسمات وما اشبه سرور الامهات بسرور الاطفال

ثم القت براسها على الوسادة وجعلت تدور بعينيها فى ارجاء الحجرة وقد بدت عليها سيما الارتياح ، فأطبقت الراهبة الستائر على كلتها رجاء ان يأخذها النعاس . وعاد عند العتمة الطبيب فلم يحس حركة فى المكان فعزا ذلك الى نوم المريضة فخافت (١) من مشيته ودنا من سريرها وازاح الستار فرأى على ضوء الساهرة (٢) وجها هادئا وعينين لم يرنقهما النوم ، فابتدرته قائلة : « انهم سينيمونها هنا بجانبى

---

(١) أى مشى على أطراف أصابعه
(٢) الساهرة وجمعها سواهر كلمة قد وضعناها مكان القراية عند العامة

على سرير صغير » . فعجب الطبيب من امرها وظنها تهذى فانتحى بالراهبة ناحية فنفضت اليه جملة الامر . ثم عاد الى سرير المريضة . فقالت : « اذا تيقظت بنيتى القيت عليها تحية الصباح ، واذا نامت صنع بى تنفسها الهادىء ما لا يصنعه الدواء ، فاتجه الى العافية » . فقال لها الطبيب : « يدك » فمدت يدها وهى تبتسم وتقول : « الا ترى انى نجوت ؟ » فدهش الطبيب حين جس نبضها ورأى الحياة تجرى فيه جريانا . فقال : « انه من صنع السرور الذى ادخله على نفسها الامل بلقاء بنيتها » ثم اوصى بالسكوت وامر بدواء يلطف من حدة الحمى اذا هى عاودتها فى ليلها ، وقال للراهبة عند انصرافه : « اذا اسعدها الطالع برجوع مادلين فى الغد فقد نجت »

وكائن من سرور مسح من مرض ، وانه لسر من الاسرار التى سيكشفها العلم فى مقتبل الزمان

□

ولما كانت العتمة ، وقف المسافر الذى تعقبناه على باب النزل (بأراس) وسرح الجواد الذى استأجره وقاد بنفسه الجواد الابيض الى الاصطبل ثم عاد الى النزل وجلس فى احدى قاعاته وارتفق (١) على منضدة وكان قد استوفى عمر يوم وليلة فى سفر كان يقدر له نصف يوم ، وما كان ذلك من صنعه ولكنه صنع القدر

ولو انك قرأت ما فى نفسه لتجلت لك فيها آيات الرضى . ودخلت عليه فى هذه الاثناء ربة النزل ، وقالت : « ايرغب سيدى فى العشاء والنوم ؟ » . فأومأ اليها برأسه ايماءة الرفض ودخل على اثرها غلام الاصطبل وقال : « ان جوادك

---

(١) إعتمد بمرفقيه

مكدود » فابتدره قائلا : « او ليس فى طوقه السفر غدا ؟ » . قال : « انه لا يستطيع الحركة قبل يومين » . قال : « اين مكتب البريد ؟ » فقيد اليه ، فأخرج جواز السفر وطلب العودة الى مونتراى سيرمير فى نفس البريد الذى قدم معه وكان المقعد المجاور لمقعد السائق لا يزال خاليا ، فأجيب الى طلبه ودفع النفقة وانذر بالسفر قبيل السحر

ثم غادر النزل وجعل يمشى فى المدينة ويتنقل فى طرقاتها على غير هدى وكبر عليه ان يسأل المارة ، فعبر النهر وخلص الى زقاق ضيق فضل السبيل ومر به فلاح يحمل فانوسا (١) فبدا له ان يسأله عن الطريق ثم نظر الى الخلف والامام كراهة ان يسمعه انسان ، ولما امن ذلك سأله : « اين دار المحكمة ؟ » وكان الرجل من ذوى الاسنان . فقال له : « يلوح لى انك غريب فاتبعنى فان طريقى عليها » . فانطلقا حتى اذا كانا على كثب من الغرض انشأ الفلاح يحدثه : « ان كنت رب قضية فقد جئت بعد الفوت ، على انى لا ازال ارى ضوءا بنوافذ قاعة الجلسة ، ولعلها لم ترفع ، فان كنت شاهدا فقد جئت فى الوقت » . قال : « انما جئت لاستشارة محام » . فقال الفلاح : « هاك الباب فاذا دخلت فارق الدرج »

فمضى الرجل على ارشاد صاحبه فاذا هو فى قاعة فسيحة قد غصت بالناس ، وطائفة من المحامين هنا وثم يتهامسون ، وان رؤيتهم وهم فى ملابسهم السوداء لما تنقبض لها النفس ، فقل ان تخرج كلمة من افواههم يستروح منها السامع روائح الرفق او يجد ريح البر ، فلا يكاد يسمع الا نعيبا يؤذن بحلول العقاب

فاذا مررت بهم حسبت انك امام خلية دونها خلايا النحل ، خلية تطن فيها العقول طنينا حتى ليؤتى لك وقد اخذتك الوحشة انك فى معبد مظلم تعمره الارواح . وكانت القاعة

---

(١) الفانوس فى الاصل النمام وقد استعمل للشمع لانه ينم عليه

على ترامى اطرافها لا يضيئها الا سراج واحد فمشى الرجل فيها وقد شد منه ذلك الظلام الذى عجز عن تبديده السراج ، فلم يستح ان يسأل اول محام لقيه : « فيم القوم ؟ » . قال : « قضى الامر » . فارتاع وقال : « قضى الامر ! »

نطقها بمرارة لفتت اليه المحامى . فقال : « العلك قرابة (١) له » . قال : « لا شأن لى ولا قرابة ، فهل حكم بالادانة ؟ » . قال : « استحال غير ذلك » . قال : « اتراه سجن الابد ؟ » . قال : « نعم » . قال بصوت لا يكاد يسمع : « لقد عرفت اذن شخصيته » . قال : « اية شخصية ؟ لقد كان الامر جليا . امرأة قتلت ولدها فحق عليها العقاب ! » . قال : « أعن امرأة تتكلم ؟ » . قال : «نعم» . قال : « ما لهم وقد فرغوا من امرها لا يزالون فى مقاعدهم ؟» قال : « انهم ينظرون منذ ساعتين فى شأن آخر » . قال : « وما عسى ان يكون ؟ » . قال : « مجرم عائد من ارباب السوالف واضياف السجون لا يحضرنى اسمه قد اخذوه بسرقة جديدة ، ولعلهم لا يتلومون فى الحكم عليه ، فسحنته سحنة الفاتك ، ولو كنت قاضيا لكفتنى النظرة اليه مؤونة التحقيق فى امره » . قال : « الا يتسنى لى الدخول ؟ » . قال : « ان القاعة مكتظة بالناس وقد رفعت الجلسة فاذا عادوا الى النظر فربما تهيأ لك الدخول فى غمار الناس » . قال : « ومن اين اخلص اليها ؟ » . قال : « من ذلك الباب الكبير »

ثم غادره المحامى وهو على غير استواء ، وكأن ابرا من الثلج ونصالا من النار قد اعتورت فؤاده وخزا وطعنا ولم يدر أكان مأتاها الالم ام السرور . وجعل يقترب من الناس وهم قنابل (٢) قنابل يتحدثون فسمعهم يقولون : « ان هذا الرجل قد سرق تفاحا ، فهو وان لم تثبت عليه السرقة فقد

---

(١) اى قريب (٢) جماعات جماعات

ثبت انه من المجرمين العائدين وقد انقضى استجوابه وشهدت الشهود ، ولم يبق الا دفع المحامى ورد النائب وربما استوفى ذلك من الليل نصف عمره ولا نظنه يفلت من العقاب . فالمدعى فتى ذكى الفؤاد اديب ينظم الشعر ويعرف كيف يوفى الاتهام حقه » . فدنا من الباب فوجد عنده حاجبا فسأله : « متى يفتح ؟» . فقال : « لا يفتح » . قال : « كيف والجلسة على وشك الانعقاد بعد رفعها ؟ » . قال : « قد عقدت الجلسة والقاعة قد ضاقت بمن فيها » . قال : « الا اجد فيها مكانا اصف فيه قدمي ؟ » . قال : « لا » ، ثم عطف قائلا : « ان خلف الرئيس مكانا او مكانين لايؤذن بحلولهما لغير الخاصة » . ثم ولاه ظهره فنكس الرجل راسه ومشى مشية الحائر وهبط بعض الدرج وهو من نفسه فى حرب عوان ثم اخرج من جيبه بيضاء (١) خط فيها : « مادلين شيخ مونتراى سيرمير » ثم صعد الدرج وشق الصفوف واتى الحاجب وقال له بصوت الآمر : « احمل هذه الى الرئيس » فاخذها الحاجب والقى عليها نظرة عجلى ومضى طائعا

▭

منذ سنين سبع ومادلين نابه الذكر قد اقترن اسمه بالثناء ، وملأت شهرته جوانب الافق فجازت حدود بلده الى ما جاوره من البلدان فتعالم (٢) الناس فضله واخصب به الزمان والمكان فنمت فى عهده صناعة الخرز الاسود وكانت له يد على الصناعات ، فمد المصانع بالمال حتى حسد بلده عليه

وكان رئيس الجلسة فى اراس ممن يعظمون مادلين ويبجلونه فلم يكد يحمل الحاجب اليه رقعته حتى اذن له ، فعاد الحاجب فسلم وانحنى حتى كاد يمس الارض بجبهته وحتى تبين

---

(١) اى ورقة بيضاء (٢) اى علم

مادلين اعظامه فى حماليق عينيه ، وقالَ له : « ليدخلَ سيدى غير مأمور » ومشى امامه مشية العبد القن

ذلك الذى كان يوليه ظهره غير مكترث له ثم مد له يده برقعة الرئيس ، فتناولهـا واقترب من المصـباح وقرأ على ضوئه : « ان رئيس المحكمة بأراس يهدى تحيـة يمازجهـا الاجلال الى الشيخ مادلين »

ثم تبع الحاجب فلم يلبث ان رأى نفسه وحيـدا فى قاعة المداولة وكانت قاعة لا تسر النظر يضيئها شمعتان قد نصبتا على منضدة اقيمت على بساط اخضر . وذكر قول الحاجب عند انصرافه : « انك يا سيدى فى قاعة المجلس ، فان أدرت ذلك الزر النحاسى الذى تراه بالباب وجدت نفسك فى قاعة الجلسة خلف كرسى » ، ففعلت فى نفسه تلك الـكلمات فعلها واختلطت بما كان يدور فى رأسه من الذكريات المبهمـة التى بعثها فيه ما صادفه فى ذلك المشي وما مر به فى تلك الدرج . واوفت الساعة المرهوبة فحاول ان يجمع اشتات نفسه فلم يغن شيئا ، وتضعضع فى ساعة هو احوج ما يكون فيها الى التماسك تلقاء تلك الحقيقة الاليمة . وكم قطع فى مثلها سـلك التفكير وملكت على المرء المذاهب ، فقد كان فى الموطن الذى يجلس فيه القضاة فيدينون ويبرئون . وجعل ينظر نظر الابله الى تلك القاعة الساكنة المروعة التى يقضى بها على ارواح العباد . وكان به وهو ينظر اليها ان اسمه سوف يدوى فى جوانبها وان المقدور عليه سوف يحلق فى سمائها

وجعل يتنقلَ ببصره بين جدرانها وبين نفســه ويقول : « ترى ما هذه القاعة وترى من انا ؟ » وكان قد طوى يوما وليلة وفعلت فيه رجات المركبة فعلها ، ولكنه لم يستشعر الما ولم يحس جوعا ، ودنا من اطار اسود معلق على الجدار فيه رسالة عتيقة لا يعلوها زجاج ، خطها جان نيكولا (باش عمدة باريس) واحد الوزراء ، رصد فيها اسماء النواب والوزراء

الذين اقتضبوا من دورهم اقتضابا وسيقوا الى السجن ، ولو أن امرءا تفرس فيه لادرك للوهلة الاولى أن الرسالة قد اخذت من نفسه محلا ، على انه قد قرأها ثلاثا ولم يملك الفهم، ولا عجب فقد كان يفكر فى فانتين وكوزيت

وانفتل وهو فى تلك الغمرة فأخذ بصره قبضة الباب الذى يفصله عن قاعة الجلسة . فأدمن اليه نظرا هادئا ثم بان فيه الخوف ، ثم اطل من محاجره الفزع ثم تلاه الجزع فندى بالعرق جبينه ، واتى على اثر ذلك بحركة يخطئها الوصف . حركة يمازجها السلطان كأنها تناديه : « ما الذى يحملك على كل هذا ؟ » ثم انفتل ثانيا فوقع نظره على الباب الذى دخل منه فاندفع اليه ففتحه ، ونجا من تلك القاعة الى ممشى طويل جم المنعطفات كثير الليات به طائفة من النوافذ تقطعه درج للهبوط ، تضيئه سرج ضئيلة النور كأنها السواهر

فتنفس الصعداء واصغى ، فاذا هو فى سكون الرموس . فانطلق يعدو كمن يطارده مطارد ، حتى اذا غاب فى احشاء تلك المنعرجات وقف يتسمع للمرة الثانية فلم يرعه مروع ، فجعل ينفس عن نفسه كرب العدو ، فأسند ظهره الى الحائط فوجد مس البرد من حجارته ، فاعتدل مقفقفا

ولما وجد نفسه قائما وحيدا فى جوف هذا الظلام نهبا للبرد والهواجس جعل يفكر . على انه قد فكر فحمة (۱) الليل وسراة النهار ، فلم يسمع غير صوت واحد يناديه : « وا أسفاه ! » . ومرت به فترة وهو على تلك الحال ، ثم امال راسه وارسل ذراعيه وتأوه آهة الرجل الحزين ، ورجع ادراجه . وجعل يمشى مشية المتثاقل كأن لاحقا لحق به فى فراره فصده عن قصده ورده الى حيث كان ، فدخل القاعة التى برحها واخذ نظره قبضة الباب الذى يفصله عن

---

(۱) أى طول الليل والنهار

قاعة الجلسة ، وكانت من النحاس المصقول ، فبدت له كأنها كوكب من كواكب النحس فجعل ينظر اليها نظرة الشاة الى عين النمر ، واخذ يدانيها ثم اندفع وهو لا يدرى الى الباب واهوى بيده الى القبضة فأدار زرها فاذا بالباب وقد انفلق عنه ، واذا به فى قاعة الجلسة فخطا خطوة واقفل خلفه الباب ووقف ينعم النظر فيما يرى

وكانت قاعة فسيحة تربو ظلمتها على نورها ، يملأ جوانبها الضجيج وتارة يغمرها السكون قد طرحت فيها قضية جان تحوطها خطورة تشوبها المسكنة ، ويتمشى فى اثنائها انقباض فى الصدور

وفى الجانب الذى وقف فيه جلس قضاة لا تنم معارف وجوههم على شيء من الاكتراث ، عليهم اردية بالية ، وهم بين قارض لظفره ومغمض لعينيه

وفى الجانب الآخر لفيف من الناس فى اخلاق (١) الثياب وقد نثر بينهم محامون فى شتى الازياء ومختلف الاوضاع وعلى ضواحيهم (٢) احراس تهب من اردانهم ريح القسوة ويعبق ارج الشرف . وكانوا تحت سقف قد كسته الاقذار وفوق اخشاب قد بلغ منها القدم ، امامهم مناضد تكسوها اجواخ صفراء كانت فى ميعة صباها خضراء ، وحولهم ابواب قد طلاها تداول الايدى بطلاء من القار ، تضيء لهم سرج من سرج الحانات قد علقت فى مسامير مرشوقة فى الحائط تبعث من الدخان فوق ما ترسل من الاضواء

وقد نصب على كل منضدة شمعدان من النحاس اقيمت فيه شمعة

وقد كان الظلام المخيم فوق ذلك المشهد المهيب يولد فى

---

(١) الثياب البالية
(٢) أى بالقرب من أكتافهم ومناكبهم ، أحراس جمع حرس

نفس الناظر شعورين من وقار واكبار ، شعورا بعظمة المخلوق، ومظهره القانون ، وشعورا بعظمة الخالق ، ومجلاه العدل

□

وقف مادلين ولم تأخذه عين فقد كانت العيون مصوبة الى هدف واحد ، مقعد من الخشب بجانب باب صغير فى طول الحائط على يسار الرئيس قد جلس فيه رجل بين حارسين وشموع تزهر

وكان هو الرجل ..!

رآه مادلين ولم يجشم عينيه مؤونة البحث كأنه كان معه على ميعاد . وقد خيل اليه انه يرى فيه نفسه ولكن فى سن عالية ، وما كان الشبه بينهما قاصرا على السحنة ، ولكنه كان فى الموقف والمنظر وذلك الشعر القاف وذلك النظر الشزر الذى لا يفارقه القلق ، وتلك الاهدام البالية التى كان يجول فى امثالها يوم دخل مدينة دينى يحمل فى نفسه ضبا من الضغن (١) ويخفى فيها ذلك الكنز الذى اقتناه فى اعوام سجنه

ذلك الكنز الذى جمعه على بلاط السجن من وحى الشر ، لا من يتيمات الدر . فارتعد وقال : « اللهم غفرا ، أكذا تكون العقبى ؟ » وكان ذلك الرجل قد بلغ الستين او جازها يلوح عليه ضرب من البله على حواشيه جفوة واستيحاش

ولما فتح مادلين الباب صر صريرا نبه القضاة ففسحوا له مكانا ، ولفت الرئيس فحياه ، وحياه على اثره المدعى العام فلم يكد يلمح تلك التحايا لانه وقع فى ذهول قد افترس طائر حلمه

قضاة وكتاب ، وشرط ، وجمع مشرئب الاعناق على ظماء الى الاستطلاع . انه شهد هذا المشهد قبل اليوم بسبع

---

(١) أى يحقد حقدا شديدا

وعشرين سنة ، وها هو ذا يشهده اليوم

وما كان يراه من عمل الذاكرة او صنع الخيال ، ولكنه من صنع الحقيقة . قضاة وشرط وجمع من الاحياء قد ركبوا من لحم وعظم فهم يتحركون . وضح ذلك لعينيه وبرزت له صور الماضى فى ابشع الوانها واروع مظاهرها ، واشكل عليه الامر فاغمض عينيه وصاح فى اغوار نفسه ان هذا لن يكون

ولعبت به الاقدار ، وارته من تهاويلها ما زاد فى خبال عقله حتى كاد يخالط فيه . فراى كأن هناك رجلا قد شق منه ، وقد تواطأ الناس على ان ذلك الرجل لم يكن غير (جان فالجان)

ثم راى ويا هول ما راى

راى شبه مسرح قد قام فيه شبحه بتمثيل ابشع اطوار حياته

وقد اخذت لذلك التمثيل عدته ، فكان يرى نفس المشهد فى نفس ساعة الليل التى حوكم فيها ، وكأن القضاة هم قضاته وكأن الاحراس هم الاحراس ، والحضور هم الحضور الا انهم رفعوا فوق راس الرئيس صورة المسيح ، ولم تكن تزين قاعات الجلسات فى عهد محاكمته ، فحوكم لشقوته فى يوم لم تشهده عين المسيح

وسقط على كرسى كان خلفه سقوط الحجر ، فزعا من ان تقع عليه العيون . واغيث بشبه عمود من الاوراق المكدسة فوق منضدة القضاء ، فاستتر به فبلغ امنيته وجلس يرى من حيث لا يرى ثم جعل يتمكن من نفسه شيئا فشيئا حتى وضحت له الامور على حقائقها ، وخرج من الذهول الى الرشد

وكان همه ان يرى جافير فرمى بصره بين الشهود فحالت منضدة الكاتب بينه وبين ما يريد ، واعانها ذلك الظلام الذى لم ترقق من حواشيه تلك السرج

وساعة دخل كان المحامى قد فرغ من دفعه وشحذ

الاسماع الى الاصغاء وقد مرت على مخاصمة المتهم ثلاث ساعات . والحضور يرون امامهم رجلا ينوء شيئا فشيئا بثقل ذلك الشبه الغريب الذى اوشك ان يحل فى لباسه . ولقد كان الرجل مجهولا ، كان احد اولئك البائسين الذين تنتشر على وجوههم طبقات من البله او من تصنع البله ، فهو اما ان يكون من اشد الناس بلها او من اوفاهم قسطا فى الذكاء

كان افقيا (١) قد اخذوه بفرع من التفاح الناضج اقتضبه من شجرة فى بستان « بيرون »

فيا ترى من هو هذا الرجل ؟

جرى التحقيق وشهدت الشهود وتألقت فجاءت من النور فى ظلمات ذلك الافق ، افق التحقيق

وقال الاتهام اننا لم نقع على سارق هين الامر ، يختلس الثمر ، او احد ابناء السبيل ، ولكننا قد ظفرنا بمجرم فار وقبضنا على شاطر عيار من قطاع السبيل وفاتك من شر الفتاك ، ذلك « جان فالجان » الذى جد الشرطة فى تعقبه منذ عهد طويل

ذلك الذى استوفى عمر العقاب فى سجن تولون ، وقطع يوم سرح منه السبيل على غلام من سكان سافواى اسمه « بيتى فيرجى » وقد دخلت جريمته تلك تحت طائلة المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، وانا لنرجىء اخذه بها حتى يثبت لنا شخصه ... وقد ركب هذا الفاتك جريمة جديدة فهو اذا ممن تعودوا الاجرام . فخذوه اليوم بجريمته الجديدة

وكانت عوامل الدهش تنتاب المتهم امام هذه التهمة وذلك الاجماع من الشهود

وتبدر منه بوادر من الحركات والاشارات تأويلها النكران . فهو وان خانه النطق ، او تعصى عليه الكلام فقد قام فى جسمه من فرعه الى عقبه خطيب ينادى : انى مأخوذ بجريمة

---

(١) يضرب فى الآفاق

غيرى ، وآفتى فى ذلك شبه غير ميمون

وقد وقف وقفة الابله بين صفوف من الذكاء كأنها جنود قد اصطفت للنزال ، وقد قبضت عليه يد لا تفلته وانشأ القضاة ينسجون له مستقبلا من خيوط الوعيد

وغبرت تمشى اليه التهمة على جسر من ذلك الشبه المشئوم ، وكان قلق الجمهور عليه اشد من قلقه على نفسه فلبثوا يتوقعون الحكم بالادانة ويطالعون له الموت من ثنايا ذلك الحكم

فيا ترى من كان ذلك الرجل ومن اية طينة قد ركبت تلك البلاهة ؟ اتنزل البلاهة بالناس الى هذا الحد ، ام كان ذلك من صنع المكر والخداع . اتراه قد جاز حدود الذكاء ام نزل الى احط مراتب البله ؟

تلك اسئلة قد شطرت الحضور شطرين ، وسرت عدوى ذلك الى المحكمين ، فقد كان من امره ما يزعج وما يشغل البال ، وما كان العجب من سوء حاله ، ولكنه كان من غموضه

جود المحامى فى الدفع وتأنق ما شاء فى تخير اللفظ وكان يخطب بلغة الاقاليم ، وهى لغة قد الفتها المحاماة زمنا طويلا تزعم انها اللغة البليغة ، وجرى المحامون عليها اجيالا فى باريس وفى ضواحيها من المدائن . وقد آلت اليوم الى لغة دراسية ولع بها الخطباء من ارباب المناصب كرجال النيابة واشباههم . راقهم منها لفظ يرن فى الاذن رنينا يمازجه الجد واسلوب يمشى الى السمع مشية تصحبها الجلالة

فكانوا اذا ذكروا الزوج قالوا : « البعل » ، والزوجة قالوا : « الحليلة » ، والملك قالوا : « رب التاج والصولجان» .. واذا ذكروا باريس قالوا : « ام الفنون ومهد المدنية » .. فالمدعى العام فى لغتهم « خطيب الاتهام المصقع » ، والمرافعة « الصيحات التى تسمعها المحكمة » ، وعصر لويس الرابع عشر « العصر الكبير » ، والاسرة المالكة « دماء ملوكنا الكريمة » ،

والقائد « الجندى العظيم » ، وخطأ الصحف السيارة « الكذب الذى تنفث سمه فى انهارها » . .

بدأ المحامى دفعه بتفسير سرقة التفاح وصعب عليه ان يمر فيه بذلك الاسلوب الرائع ، ولا عجب فقد وقع ذلك (لبوسيه) نفسه ، فقد ارتج عليه وهو يؤبن ميتا عظيما ففزع الى الاحتماء بوصف دجاجة سنحت له وخرج من مأزقه ذلك بين التهليل والاعجاب خروج الظافر

اثبت المحامي انه لم يقم دليل محسوس على سرقة التفاح لان المتهم لم تأخذه عين وهو يظهر (١) الحائط ويعالج كسر الفرع ، ولكنه فوجىء وهو يلتقط ذلك الغصين (وقال الغصين بتصغير غصن ، تهوينا للأمر) واعترف بأنه وجده مطروحا على الارض فالتقطه ، ولم تأتونا بما ينقض ذلك ، ولعل احد السابلة قد مر بذلك البستان ، فتسور الحائط واقتضب ذلك الفرع ثم احس خطرا فألقى به على الارض ، ونجا بحشاشة نفسه

لقد وقعت السرقة ولكن المتهم لم يكن بصاحبها . انكم قد اخذتموه بسابقة امره لانه ممن تعودوا الاجرام ، (وفاته ان ذلك الامر الذى سلم به فى عرض دفاعه لم يبلغ فى التحقيق مبلغ اليقين ، فجاء ذلك التسليم ويلا على المتهم) ثم مضى فى دفعه ، وقال : « انه كان مقيما فى (فافرول) يرتزق من تشذيب الشجر وحقيقة اسمه (شان ماتييه) واحسبهم قد حرفوه الى (جان ماتييه)

ثم مر بشهادة الشهود مرا ولم يدفعها ، وكان يتكىء فى اقواله على انكار المتهم حتى انتهى الى قوله : « فلو سلمنا انه هو « جان فالجان » ، فهل يقوم هذا دليلا على انه سارق التفاح ؟ ان هى الا قرينة من القرائن ، وما ابين ما بينها وبين

---

(١) يتسور

الدليل القاطع . . لقد اساء المتهم الى نفسه بذلك الانكار المطرد، فأنكر كل شيء ـ انكر جرائمه وشخصيته وكل ما صوب اليه في ماضيه وحاضره ، ولو انه اعترف بماضيه لاكتسب بذلك عطف القلوب

نصح اليه المحامي ان يقلع عن ذلك الانكار ، فأبى واصر وظن انه يخرج من تبعة كل شيء اذا هو انكر كل شيء ولا عجب فقد كان بليد الذهن ، ومر به من صنوف البلاء في السجن وبعد السجن ما يبلد الذهن السليم ، على ان طريقته التى جرى عليها في الدفع عن نفسه لم تكن مبررة الحكم عليه

وختم المحامي دفعه بالتضرع الى المحكمين ان ينزلوه منزلة الفار من السجن لا منزلة المجرم والعائد

ورد المدعي العام على المحامي ردا رق مبناه وخشن معناه . شأن امثاله من المدعين ، فأثنى على صدقه واطرى منهجه وعرف كيف ينتفع بذلك الصدق ، واخذ المتهم بنزول (١) محاميه عن التمسك بانكار شخصيته ، وسجل عليه ذلك النزول ، فأضاف الى الاتهام حجة قد دعمت من حججه ، وتدرج في قوله بلباقة حتى وقف على منبع الاجرام وانحى باللوم على تجرد المدرسة الروائية من روح الشرف . وكانت اذ ذاك في فجر ظهورها وقد دعاها النقاد في الصحف بالمدرسة الجهنميـة ، وعزى ـ وهو على شيء من الحق ـ جريمة (جان ماتييه) او (جان فالجان) الى تأثير ذلك الادب الخلاب الذي راع العقول

وانتقل بعد ان قضى لبانته ونضبت مواد القول الى « جان فالجان » نفسه ، فأفاض في وصفه افاضة كانت اشبه شيء بما جاء في قصة « تيرامين » ولم يكن لذلك القول مكان في تلك

---

(١) يقال نزل عن حقه ولا يقال تنازل عن حقه ، فان التنازل لا يكون الا في ميدان القتال أو بين اثنين

المأساة ، ولكنه اسلوب طالما لجأت اليه البلاغة القضائية

وما زال يقرع الاسماع بتلك القوارع حتى ادخل الرعب على نفوس القضاة والحضور ، ومر المدعى فى رده بتلك الكلمات الخلابة التى استثارت فى صباح المخاصمة حماس الصحيفة الوحيدة التى كانت تظهر فى سماء تلك المقاطعة

وكان مما قال فى « جان فالجان » : « رجل شأنه ذاك طريد جوال . لا مرتزق له . تعود الاجرام ، ولم تفلح السجون فى تقويم اعوجاجه وتنقية نفسه . فلقد جنى يوم خرج منها على الغلام « بيتى فرجى »

وقبض عليه بعد ذلك متلبسا بالسرقة على قيد خطوات من الحائط الذى ظهره ، وفى يده ما سرق ، فأنكر التلبس والتسور والسرقة ، وانكر حتى شخصيته وفى يدنا مائة دليل ودليل على ذلك ولا نريد سردها ـ دع اربعة من الشهود على رأسهم جافير كبير الشرطة ولا تسألوا عن نزاهته ، وثلاثة من اخدانه فى الاجرام ، فكيف يدفع اجماعهم على معرفة شخصه ، ان هو الا رجل جامد الشعور ، غليظ الكبد

وقد كان المدعى يخطب والمتهم ملق بسمعه وقد فغر الدهش فاه ونال منه العجب مما يسمع ـ وكان يحرك رأسه يمنة ويسرة كلما اشتدت لهجة الاتهام فى تلك المواطن التى تعجز فيها البلاغة عن امساك سيلها ، فيترامى بموجات من سب وتحقير ، كانت تلف المتهم لف العاصفة . وكان فى حركات رأسه تلك ، ضرب من احتجاج فصيح فى صمته بليغ فى حزنه

وقد لفت المدعى القضاة الى ذلك الموقف موقف البله الذى اخذ المتهم نفسه بتمثيله ليخدع القضاء ويستنزل الرحمة ، فلم تجز حيلته علينا وكشفت لنا عما كان يخبئه فى غور قلبه من خبث لا امد له ، وختم قوله بطلب الجزاء العادل . ثم وقف المحامى وهنأ المدعى ، واطرى خطبته التى جازت حد الاعجاب ثم القى بكليمات حضرته واخذ يتضعضع

حتى فقد كل تكأة له ، وحتى شعر كأن الارض تميد تحته ميدانا

وحانت ساعة انتهاء المخاصمة فأومأ الرئيس الى المتهم بالوقوف ، وسأله السؤال المألوف ، أعندك ما تقول ؟ فوقف وهو يلاعب قلنسوته بيديه وكأنه لم يسمع . فأعيد السؤال واظنه سمع فى هذه المرة ، فقد رؤى فهمه فى عينيه وكان كمن استيقظ من سبات

فجعل ينفض عنه الكسل ويدور بنظره يحدق فى الحضور حتى وقفت عينه على المدعى العام ، فانفجر بالكلام انفجار البركان ، وقد كان الكلام فى فيه يكاد يقتتل اقتتالا ، يستبق الخروج بعضه البعض :

ــ كنت عاملا فى صناعة النحاس فى باريس لدى السيد « بالو » وكان العمل شاقا . يعمل العامل طرفى النهار فى هواء طلق فى أفنية البيوت ، أو حجر مستطيلة سقوفها من الخشب ولا يتاح له أن يعمل مرة فى مصنع مقفل لا يأذن للهواء . فاذا كان الشتاء ووجد العامل منا مس البرد وتخوف على أعضائه اليبس ، نزع الى تحريكها فترة من الزمن التماسا للدفء ، فيحفظ (١) هذا أصحاب المصنع علينا ويقولون انه وقت ضائع .. وما ظنك بعامل يصهر الحديد وهو على أرض من الثلج ؟ ان هذا الا فناء عاجل . فترى العامل وقد اخلق كما يخلق الثوب ، ولبس فى صباه لباس الهرم

ولا يكاد يدرك الاربعين حتى تدركه السن فتنزف قواه ويرغب عنه ويمسى سخرية لشرار العمال ، فينزونه بأقبح الالقاب . فكانوا يدعوننى وقد طويت الثالثة والخمسين بالشيخ الابله والعجوز العاجز

وكانت وظيفتى فى يومى ثلاثين صلديا . وما حط من

---

(١) يغضب

أجرى فى دعواهم غير السن . وكانت لى ابنة تكدح هى الاخرى فى طلب العيش فتعالج غسل ثياب الناس . فكان جهدنا يفيء علينا بعصارة تمسك الحياة . تبذل يومها فى الكد ما تتقى المطر بسقف يحجبها او ثوب يسترها ، جاثمة فى مهاب الانواء . وكان عليها أن تغسل ولو جمدت الماء . . فانمن الناس من لا يجد لباسا غير جلده حين يخرج من ثوبه لغسله ، فلا يزال قائما على يديها يتنجزها فاذا أنس منها تريثا او وجد تعللا ، عدل بالثوب الى سواها . فما فتئت المسكينة تطوى ساعاتها مضطربة فى المغاسل بين الحار والبارد — دع ما كانت تعانى من مضارة زوجها لها ، حتى أتى على نفسها الشقاء

ثم امسك عن الكلام وقد كان يهدر بصوت جهير ابحاجش، وكنت تطالع فى جفوة لفظه وثورة قوله ، سلامة الضمير ونقاء الجنان

وقد انتابه فواق(١) كان يحبس انفاسه ، فجعل يستعين على تأدية مافى نفسه بحركات كنت تخاله معها حطابا يشق جذعا من الجذوع . وما كاد ينتهى حتى اغرق الجمهور فى الضحك ، فلبث ينظر اليهم وهويجهل مثار ذلك — ومانشب ان فعل شرواهم (٢) وشاركهم فى ضحكهم ، فكان مشهدا مؤثرا تعلوه الكآبة . فصاح الرئيس وكان يقظا رحيما ، فذكر المحكمين أن السيد (بالو) الذى فزع المتهم الى شهادته لا يعلم له مقر منذ أفلس واختفى . ثم التفت الى المتهم وقال له : « اعرنى سمعك واعلم انك فى موطن انت فيه أحوج ماتكون الى التفكير ، فقد انصبت عليك الشبهات ، وقامت حولك دلائل لا تلبث أن تجرك الى سوء المصير . فأجب اجابة صريحة عن امرين : هل ظهرت حائط البستان واقتضبت فرع التفاح ؟ هل انت جان فالجان ؟ »

---

(١) الزغطة (٢) اى مثلهم

فحرك راسه حركة تعرب عن فهم ما القى عليه ، واتجه الى الرئيس وقال :

« اما عن الامر الاول » ثم سكت والقى بنظرة على قلنسوته ، واخرى على السقف ، فحمى المدعى العام وقال له :

« ويل لك ! مالك لاتجيب على مايلقى عليك ؟ ان اضطرابك ليدينك فلست شان ماتييه كما تحاول أن تكون ، وانما انت ذلك المجرم الفار جان فالجان . فقد ذهبت الى (افرون) وولدت فى (فافرول) وكنت بها مشذبا للشجر ، وظهرت حائط بستان ، واقتضبت منه فرعا من التفاح ، وللمحكمة تقرير مصيرك »

وكان المتهم قد أهوى على مقعده تخاذلا ، والمدعى يخطب حتى اذا انتهى من خطابه استوى قائما وصاح به :

« ما اخبثك أيها الرجل ! وهذا كلّ ما أريد أن اقوله لك ، وقد كان يعوزنى القول

« لست من السرقة ولا أنا بذلك الرجل الذى يصيب مايتبلغ به فى كل يوم . . . اننى اتيت من (الى) فخرجت اضرب فى البلاد غب سماء (١) وقد كسا الغيث وجوه الارض ببساط من الرمل الاصفر ، هاجه الحاح السيل من بطون المناقع (٢) وطمر به الزرع حتى ما تقع العين على غير أعواد دقيقة من الحشائش على عطفى الطريق . وكنت التقطت من الارض فرعا مهشوما به تفاح ــ التقطته وما كنت أدرى أننى التقط الشقاء . وقد لبثت فى السجن ثلاثة اشهر ، وأنا انقل من مكان الى مكان ، وهذا مبلغ ما عندى من القول

« انهم يرموننى بالتهم ويطلبون منى دفعها ، ويدفعنى الحارس على طيبة فيه الى الكلام ، يغرينى بذلك همسا ، وأنا لا أدرى كيف أفصح عما فى نفسى . اننى لم اصب من العلم

---

(١) أي عقب مطر (٢) المستنقعات

ولم يثقفني مثقف ، فانا فقير الادراك ، ولكنهم قد اغمضوا العيون عن ذلك فأخطأوا حقيقة امرى

« أف لكم ! لقد ذهب بكم المكر الى حد القطع بمعرفة المكان الذى ولدت فيه . على انى لا ازال اجهل مولدى وليس لكل من يهبط الى هذه الدنيا بيت يولد فيه ، ولو تهيأ ذلك للان العيش وطابت الحياة ، واكبر ظنى ان والدى قد كانا من أولئك الذين يعيشون فى الطرقات والمسالك

« وجل ما أذكره اننى كنت أدعى وأنا حدث (بالصغير) واليوم ادعى (بالشيخ) ولا أعرف لى اسما غير هذين ، فأولوا قولى مابدا لكم أن تؤولوا

« ولا أكذب الله فقد كنت فى (الافرون) وكنت فى (قافرول) وليس من الختم أن من كان فيهما يكون من أهل السجون . لقد اعنتمونى بترهاتكم ، فعلام يتعقبنى الناس كما يتعقب الموتور واتره ؟ ! »

فاتجه المدعى العام الى الرئيس وقال :

« لقد احكم المتهم تمثيل ما أخذ نفسه به من التبله ،يحاول ايهامنا انه ابله ، ولكنه يعالج المحال بذلك الانكار ، واظن ان المحكمة لا ترى بأسا فى مواجهته بالشهود مرة أخرى ، وسؤالهم على مسمع منه »

فقال الرئيس : « انى اذكر المدعى العام أن جافير وهو كبير الشرطة قد دعاه عمل من اعماله فى المقاطعة المجاورة فأذنا له بعد الشهادة ، وكان ذلك بين سمع المدعى وبصره والمحامى عن المتهم شاهد غير غائب ، وما ارتفع منهما صوت بالاعتراض »

فقال المدعى : « لم يغب عنى ذلك ولكنىأذكر المحكمين ان جافير قد شهد قبل ذهابه شهادة لا يزال اثرها فى النفوس وجافير رجل قد تعالم الناس صدقه ونزاهته وانى لملق عليكم بما قال :

« لست فى حاجة الى اقامة البراهين المحسوسة أو الادلاء بالحجج الملموسة ، فانى أعرف هذا الرجل حق العرفان ، فما هو (بشان ماتييه) كما يزعم وانما هو (جان فالجان) ذلك الفتاك العيار ، والمجرم الاثيم ، سرج من السجن بعد ان انطوى اجل عقابه ، فخرج منه والعدل فى أسف على خروجه

« لقد قطع فى السجن تسعة عشر عاما عالج فى مداها الهروب مرارا . وسطا بعد ذلك على غلام صغير ثم ظهر حائط بستان، واكبر ظنى أنه سرق آنية ذلك العابد الكريم ليلة آواه فى مدينة « دينى » واذكر اننى رايته فى سجن تولون أيام كنت اقوم بعمل الشرطة هناك . فانا به اعرف من امه التى ولدته »

وفعلت تلك الشهادة فى نفوس الحضور فعلها ، والح المدعى على اثرها بطلب الشهود فألقى الرئيس كلمة على احد الحجاب فانطلق يعدو . وما هو الا ان غاب حتى فتح باب قاعة الشهود ورمى الحضور برجل بين رجلين . واذا الحاجب ومعه اثنان من الاحراس يقودان (بريفيه) أحد الشهود الثلاثة وكان من عتاة الاشرار وقد كره الحاجب أن يصحبه وحيدا فاستظهر(۱) عليه بأحد الاحراس . فدخلوا وقلوب الحضور تخفق خفقة قلب واحد

وكان (بريفيه) مجرما عريقا قد جاز الستين تلوح عليه سيما الانذال وترد عليك منه سحنة المتهالكين على ذات (۲) اليد . وهما خلتان قد تكون بينهما رحم ، وقد غير منه ما كابده فى السجن من الاذى حتى قال الموكلون به انه يريغ(۳) أن يكون رجلا نافعا ، واثنى المتصدقون على خلال تعبده ولكن يجب ان نذكر ان ما ظهر من الانقلاب فى طباع هذا المجرم انما وقع فى عهد العودة ، عودة البربون

فقال له الرئيس : « بريفيه ، انك رجل قد ركبت من

---

(۱) أى استعان (۲) المادة (۳) اى يحاول

المنديات ما سجله عليك القضاء ، فأصبحت غير أهل للحلف غير أنك وان جردتك من ذلك يد العدل ، فقد أبت رحمة الله أن تقفز نفسك من الشرف والانصاف ، فحبتها مزقة(۱)منهما ، فأنا استحلفك بما بقى فى نفسك من ذلك الحياء ان كان له عندك كما ارجو بقية ، واريدك على ان تتبصر قبل الجواب فى هذه الساعة الحاسمة . فكلمة منك تطيح بحياة هذا الرجل واخرى منك تنير لنا منهج العدل ولا يضيرك أن تخرج من موقفك هذا اذا بدا لك أنك لم تكن على الحق »

ثم صاح بالمتهم أن قف وقال لبريفيه : « انظر اليه واجمع اشتات ذكرياتك وانطق بوحي نفسك اذا كنت لا تزال مصرا على ان هذا الرجل لم يكن غير (جان فالجان) رفيقك فى سجن تولون »

فأجاب (بريفيه) وقد ألقى نظرة على الجمهور : « انى أول من عرفه فهو (جان فالجان) رفيقى فى سجن تولون

« دخل فيه سنة ۱۷۹٦ وخرج سنة ۱۸۱٥ . وقد سرحت بعده بعام واحد ، وانى اراه يتباله منذ اليوم . ولعل ذلك من فعل السن ، ولقد كان فى السجن ساهى الطرف كثير الاطراق »

فأومأ الرئيس اليه بالجلوس ولبث المتهم واقفا

وجىء بالشاهد الثانى (شنيل ديفيه) وكان لا يزال فى لباس المجرمين ، وقد أشخص من السجن للشهادة

وكان قصيرا خفيف الحركة ، ضئيلا ، كثير تجاعيد الجبهة ، أصفر اللون ، حاد الوجه اذا رأيته رأيت شبه محموم ، نحيل الاعضاء ، مضعوف الجسم قد ركبت فى رأسه عينان تقرأ فيهما آيات القوة ، وكان رفاقه فى السجن يلقبونه بـ (أنكر الله)

فألقى عليه الرئيس تلك الكلمات التى ألقاها على سابقه وحين ذكره بما كان من ماضيه الذى سلبه حتى حق الحلف رفع رأسه وحدق فى وجوه الحضور

(۱) مزقة اى بقية

فقال له الرئيس: « الا تزال مصرا على معرفة هذا الرجل؟ » فقهقه الشاهد وقال : كيف لا اعرف رجلا سلكت معه فى سلسلة واحدة بضع سنين ؟! »

وجىء بالشاهد الثالث « كوش باى » وكان مجرما قد حكم عليه بسجن الأبد وهو فلاح من (لورد) كان يرعى القطعان فى رؤوس الجبال ، ثم حال الى قاطع سبيل ، وكان فى معارف وجهه ما ينطق بأنه يفوق المتهم بلها ، وهو من اولئك الذين بنيت طبيعتهم بناءة الضوارى فنبذهم المجتمع وقذف بهم فى بحور السجون . فحرك منه الرئيس بكلمات قاسية ، والقى عليه قولا ثقيلا ، ثم سأله السؤال المعهود . فأجاب المتهم : « هذا هو جان فالجان وكنا ندعوه لفرط منته (١) بجان الجريك »

ففعلت تلك الشهادة فعلها فى الحضور وزاد فى أثرها ذلك الوضوح الذى ألبسها لباس اليقين

فضاقت القاعة بأهلها وسرت فيها همسات الأسف على المتهم ، ثم جعلت تشتد وتمتد كلما ألقيت شهادة من تلك الشهادات

وكل هذا والمتهم ملق بسمعه وهو ساهم الوجه سادر النظر ، وكان مبلغ احتجاجه على ما يسمع أن كان يحرك عند انتهاء الشهادة رأسه ، ويقول على مسمع الحرس : « شىء حسن » . فقال له الرئيس : « ما قولك ؟ » قال : « شىء حسن ! »

فعلا الضجيج فى القاعة وضج حتى المحكمون وقالوا : « هلك والله الرجل ! »

فصاح الرئيس بالحاجب أن ادع الناس الى السكينة . وعلى أثر ذلك سرت حركة بقرب الرئيس وارتفع صوت ينادى : « انظروا هنا أيها الشهود »

---

(١) المنة القوة

فملك السامعين الروع وهالهم ذلك الصوت الجهير الذى كان ينبعث من ذلك الحلق الحزين

فالتفتوا الى مصدره فاذا بهم يرون رجلا قد خرج من صفوف الخاصة الجالسين خلف القضاة ووثب الى وسط القاعة . وما هو الا تراءى حتى صاح الرئيس والمدعى العام وصاح لصياحهما عشرون صوتا : « السيد مادلين ! »

وما كان الا هو وقد أضاء وجهه المصباح المنصوب على منضدة الكاتب ، فوقف وقلنسوته فى يده . وهو فى لباس لم يتطرق اليه العبث

وكان أصفر اللون قد سرت به هزة وحال لون شعره فقد دخل مدينة آراس وشعر رأسه أرمد (١) فلم يكد يطوى بها ساعة حتى صاح به المشيب ، فشاب الرجل فى مدى ساعة واحدة

فاشرأبت الأعناق وتطلعت النفوس وشحذ الشعور ومرت بأهل القاعة فترة من الحيرة ، وحق لهم أن يحاروا ، فقد سمعوا صرخة نفس ثائرة ، ورأوا أمامهم رجلا هادىء الطبع ساكن الجأش ، فلم يقع فى نفوسهم أن هذا الواقف المتمكن من نفسه هو صاحب تلك الصرخة المروعة

ولم يكن أجل حيرتهم طويلا فقد اتجه الرجل الى الشهود وناداهم بأسمائهم وصاح بهم : « اتنكرون هذا الوجه ؟ »

فعل ذلك قبل أن ينبس الرئيس بكلمة ، او يتمكن الحرس من الحركة

فبهت الذين شهدوا وأنكروه بايماءه من الرؤوس . ثم التفت الرجل الى المحكمين ، وقال : « سرحوا هذا المتهم وخذونى فأنا جان فالجان »

فعلقت الانفاس وأخذت القوم رجفات الدهش ثم علاهم

---

(١) أى بلون الرماد

خشوع البلى ، وكأنهم عوجلوا بقارعة سماوية فملكهم الفزع الاكبر ، وكذلك تفعل جلائل الخطوب وعظائم الامور

وانتشرت على وجه الرئيس طبقـــة من العطف والحزن معا ، فرمى المدعى بنظرة عجلى وهمس فى آذان الجالسين معه للقضاء ، ثم رفع رأسه يخاطب الجمهور : « ابغونى طبيبا » وقال المدعى : « هذا السيد مادلين قـد نزل به ما نزل وانا لنجد(١) له وجدا شديدا ، ونعلم أنه نبيل القدر زكى المشاعر ، فاذا رأى الرئيس أن يأمر بحمله الى داره »

فابتدر مادلين الـكلام وقاطع المـــدعى بصوت يمازجـه السلطان ، ونطق بكلمات نثبتها هنا ولا نخرم منها حرفا ، فقد وعاها أحد من شهدوا الحادث ودونها على أثر انطوائه ، وقد مر بها اربعون عاما وهى لا تزال فى آذان من بقى حيـا من أولئك الشاهدين :

« اشكر لك أيها المدعى ، فما أنا بمجنون كما تزعمون . انـكم على وشك أن تضلوا ، فسرحوا هذا المتهم وخذونى فانا المجرم الذى تنشدون

« وليس هنا سواى من ينظر بغير غطاء ، فهـاكم الحقيقة خالصة غير مشوبة

« انى وقفت هذا الموقف لذات الله العـلى ، وهو حسبى فخذونى . فقد طبت بذلك نفسا

« انى اردت الحسنى فتنكرت حتى أثريت ، واصـبحت شيخا لمنتراى سيرمير ، وألقيت بنفسى بين الاخيـــار ، فلم يفسـح لى الحظ بينهم مكانا ، فجئت وفى النفس أشـياء لا يسعنى سردها ، فلا أثقل عليكم ببسط ما صنعت فى أيام توبتى فان الغد ببسطه كفيل

« انى سرقت مولاى العابد وسـطوت على ذلك الغـلام

---

(١) أى نحزن

الصغير ، فحق لهم أن يصموا جان فالجان بأنه فاتك اثيم ، وماكان له الخطء (١) كله وان كان من الخاطئين — وليس لحقير مثلى أن يعترض على العناية أو ينصب نفسه لمناصحة النــاس ، ولا أكذب الله ، فان العــار الذى عالجت نضحه عن نفسى كان أمرا ادا

« ولا يفوتنكم فى هذا الموطن ان السجن قــد كان لى شر استاذ ، فهو يخبث النفس ، ويمزق شمل الفضيلة ، ولقد صدق من قال : « ان السجون تخلق الاشرار »

« فلقد كنت قبله فلاحا فدما (٢) فاطلع منى السجن شريرا ، وكنت عودا من الحطب ، فصيرنى شعلة ، ثم ردت الى الرحمة ما سلبتنيه القسوة ، فنجوت بنفسى ، ولكن بعد الفوت . فاذا دق عن أفهامكم ما القيه الساعة عليكم ، فهناك فى رماد المدفأة تجدون القطعة الفضية التى سلبتها من ذلك الغلام

« واليك أيها المدعى أسوق الكلام ، انى ليعرض لى انك غير مصدقى ، واقرأ ذلك فى حركات رأسك ، فاناشدك الله الا تأخذ هذا المتهم . الويل لى ! أليس هنا من يعرفنى ؟ انى ليحزننى غياب جافير ولو كان حاضرا لوضح الحق »

□

ليس فى طوق كاتب ان يصور ما كان فى كلمات هذا الرجل من نبرات الكآبة ورنات الاسى التى كانت تصحبها عبقة من الحسنى . ثم انفتل الى الشهود الثلاثة ، وقال : « بريفيه الا تزال تنكرنى ؟ »

فاعترت بريفيه الرعدة وجعل يصعد فيه بصره ، ويصوبه ومر الرجل فى كلامه فقــال : « ياشانيلديفيه ، ألست كنت

---

(١) الذنب (٢) الفدم الساذج

تدعى فى السجن بـ (انكرالله) ؟ ولى فيك آية .. حرق بكتفك اليمنى ، حاولت أن تمحو به الاحرف الثلاثة التي وسمت بها ، فلم يغن ذلك عنك شيئا ، وثبتت الاحرف فى مكانها . أرأيتك ؟ ألم أقل حقا ؟ » ... قال : « بلى ! »

ثم تحول ذلك المسكين الى القضاة والحضور وعلى فمه بسمة ما ذكرها رائيها الا وجد لها غمزا على قلبه ، بسمة قد جمعت بين حلاوة الظفر ومرارة القنوط

فذهب بأهل القاعة وحالوا الى عيون تنظر ، وأفئدة تخفق . فلم تعد ترى فيها قضاة ولا مدعين ، ولا تلمح اشراطا ولا مدافعين ، وقد نسى كل غرضه : نسى الرئيس انه جاء للرياسة ، والمدعى انه قام للاتهام ، والمحامى انه مثل للدفع ، والحرس انهم أقيموا للحراسة ، فلم ينبس خلق بكلمة ، ولم يفزع ذو سلطان الى سلطانه

ولا عجب فان للمشاهد السامية خواصا تملك على رائيها المشاعر وتحيل شهودها الى نظارة (١) يخرج بهم فرط ماهم فيه عن حد الشعور ، فلا يكادون يتساءلون حتى فى انفسهم عن مأتى ذلك اللالاء الذى يذهب سناه بأبصارهم ، فهم فى داخلهم مأخوذون برائع ما يشاهدون فى خارجهم

وضح الصبح وتكشف ظلمة الشك عن جان فالجان فانار ظهوره السبيل ، وكشف عن ذلك الحادث ، وأدرك ذلك الحفل الحاشد ما كان من حقيقة الامر ـ أدركه بأسرع من خطفة البارق أو نبضة الكهرباء

رجل يفتدى بنفسه رجلا آخر ـ لله ما انبل هذه النفس

ثم قال الرجل : « اننى لا أريد أن أطيل عليكم أمد ما انتم فيه فقد عزمت على الذهاب لانهم يأبون ان يأخذونى ، وعندى ما يدعونى الى الرجوع ، والمدعى العام يعرف من

---

(١) المتفرجون

أنا ، ويعرف أين يجدنى متى حلا له ذلك »

قال ذلك وغبر يمشى الى الباب بقدم مطمئنة ، فما رفع صوت ولا امتدت ذراع لسد سبيله ـ مشى وقد حل فيه خفى من العناية ما حل فى انسان ألا تراجعت أمامه الصفوف واصطف الوقوف

فلما بلغ الباب وجده مفتوحا ، فالتفت الى المدعى وقال : « أنا رهن أمرك » . وعطف قائلا :

« أيها الحضور ألا ترون أنى جدير بالرحمة ، ولعلى كلما فكرت فى انى كنت على وشك القيام بهذا الصنيع وجدتنى حقيقا بالغبطة »

ثم خرج فصفق (١) الباب كما فتح ـ ولا يعدم صاحب العمل الجليل أن يجد له فى المجتمع نصيرا

وعاد القوم بعد فترة الى انفسهم ، فأمر المحكمون بتسريح « شان ماتييه » فخرج وهو يقول فى نفسه : « ما أشد جنون هذا الناس ! فأنا لا أكاد افقه شيئا من جميع ما مر بى فى هذا الحادث . . »

« عود الى فانتين »

تنفس الصبح فقامت فانتين ، وكانت قد سهرت الليل كله ، ولزمتها الحمى فحمة ذلك الليل ، وكانت تلمح من خلال آلامها صورا من وجوه السعادة بقرب طفلتها ـ فانتهزت الراهبة نهزة نومها وكانت قد ساهرتها وخرجت تهيىء لها جرعة من الكينا . وبينما هى عاكفة على عقاقيرها وقواريرها وقد القى الشفق على الارض ضبابا يقصر فيه قاب العين ، واذا بها قد التفتت التفاتة أوشكت معها أن تصيح

رأت مادلين وهو منها أدنى شىء ، فصاحت : « اسيدى الشيخ أرى ؟ »

---

(١) صفق الباب أى رده

فقال : « نعم ، وكيف حال المريضة » قالت : « ليس بها الساعة من بأس وقد كنا نتوقع لها بالامس شرا » ، ثم أعلمته علمها وقالت : « ولولا أن فكرة رفهت عنها لما طلع عليها هذا الصباح ، فقد حملت غيابك على الذهاب لتفقد طفلتها »

ولم تجرأ الراهبة على سؤاله أين كان ؟ ولكنها لم يغب عنها أن ملامحه لم تكن تنطق بأنه قادم من ذلك الوجه

فقال لها : « احسنت فى تركها على زعمها » ، فقالت : « وما عسى أن تقول لها اذا رأتك وحيدا ؟ » قال : « ان الله يلهمنا الجواب »

وكان الصبح قد وضح نوره ، فرأت الراهبة فى مادلين ما راعها ـ رأت شعره الارمد ، قد حال كله الى شعر ابيض . فصاحت به : « أى خطب نزل بك فشيبك !؟ »

ثم وافته بمرآة صغيرة كان الاطباء يستخدمونها فى التحقق من الموت ، يضعونها على فم المريض فتكدرها انفاسه ان كان لا يزال حيا . فأخذها مادلين ونظر فيها نظرة ، وقال : « حسن ..! »

فجمدت الراهبة فى مكانها وعطف مادلين قائلا : « أليس من الميسور أن أراها الساعة ؟ » فقالت : « انك لم تأت بطفلتها فخير لها الا تعلم بقدومك ، ومتى جئت بها علمت من نفسها بأن غيابك انما كان لذلك ، فتنجو المريضة من آلامها وننجو نحن من نسج الكذب »

فلبث غير بعيد ثم قال بلهجة الجاد الساكن : « أريد أن أراها الساعة فربما كنت عجلا » ، فلم تفطن الراهبة لما كان فى كلمة « ربما » من المعنى الغامض الغريب فغضت من بصرها وقالت محتشمة : « ليدخل سيدى وليعلم انها نائمة »

فتقدم الى (١) الخادم باصلاح باب لم يكن مطمئنا فى مكانه ،

---

(١) تقدم الى أى أمر

كراهة أن تتأذى المريضة بصريره . ثم دخل مخدعها وهو يخـــافت من مشيته ودنا من سريرها وفرج عنها الستائر فاذا هي نائمة . وكان نفسها يشخص من صدرها شخوصا يبعث الاسى . وتلك آية ذلك المرض العضـــال التى طالما فجعت نفوس الامهات الســـواهر على أولادهن الذين ابرم فيهم حكم الموت

وكان هذا التنفس الشـــاق يكدر ذلك الصـــفاء العجيب المنبسط على وجهها ـ ذلك الصفاء الذى كان يبدل فى نومها من مرأى ذلك الوجه ـ وكان اصفرارها قد بلغ حد البياض وامست خدودها قرمزية ، وكانت أهدابها الطويلة (وهى البقية التى بقيت من جمال البكارة والشباب) لاتزال تختلج فوق ذلك الطرف الســـاجي . وقد اهتز جسمها من فرعها الى قدمها ، كأن اجنحة خفية قد ركبت فيه وأوشكت أن تنشر للطيران . حتى ليخيل للناظر اليها أنه يحس ترويحها وان لم تقع عليها عينه

فلا يقوم بنفسه انه يرى مريضة قد يئس منها ـ فهى الى من يصوع (١) للطيران أقرب منهـــا الى من يتهيأ للنزول الى القبر ..

الم تر الى الغصن كيف يضطرب كلما امتـــدت يد لقطف زهرة ، الا يلوح لك أن ذلك الغصن كأنه يجود بنفسه وكأنه يختلسها فى آن ، فهو يعطى ويمنع فى وقت معا ؟

كذلك الجسم البشرى فقد تنتابه تلك الهزات حتى تحين الساعة التى تمتد فيها يد الموت الخفية لاقتطاف (٢) الروح

وقف مادلين بجانب سريرها وهو كأنه بعض الانصـــاب

---

(١) صوع أى تهيأ للطيران

(٢) اقتطف مثل قطف وقد أنكرها بعضهم حتى وجدناها فى شعر الاعشى فى الجاهلية وفى شعر جرير فى الاسلام فهى عربية بدوية ، قال الاعشى :

لما امالوا الى النشاب أيديهم ملنا ببيض فظل الهمام يقتطف

وجعل يتنقل ببصره بين المريضة والصليب كما كان يفعل منذ شهرين ، ليلة زارها للمرة الاولى . وكان المنظر واحدا فى جميع وجوهه الا أن شعره فى هذه المرة كان قد عمه الشيب ..

دخل وحده ولم تصحبه الراهبة ووقف بجانب سريرها كما ذكرنا واصبعه على فمه كأنه يأمر أحدا بالسكوت . ففتحت المريضة عينيها وسألته سؤال العطيف وهى تبتسم : « أين كوزيت ؟ »

قالت ذلك وما اخذها دهش ولا استخفها فرح ، فقد كانت هى الفرح بعينه ، وعجيب أن يفرح الفرح

القت هذا السؤال : « أين كوزيت ؟ » وليس فى نفسها ظل للشك ولا فى خاطرها جولة للقلق ، فألجم اليقين المتجلى فى ذلك السؤال ، لسان مادلين فلم يحر جوابا

ثم مرت فى حديثها : « لقد كنت عالمة بوجودك رغم سلطان النوم ، وكانت عيناى تتعقبانك انى سرت .. رأيت كأنك كنت محلقا فى سماء من المجد يطيف بك نور سماوى . على انى اعاودك السؤال : « أين كوزيت ؟ لم لمَ تنمها بجانبى حتى اذا ما فتحت عينى فتحتها على تلك الطلعة البهية ؟ »

فأجابها بكلام لا يرتاح له العقل ثم لم يلبث ان نسيه على اثر القائه . واغاثه حضور الطبيب الذى ابتدرها عند دخوله بقوله : « اهدئى فان ابنتك هنا » . فبرقت عيناها بريقا أضاء وجهها وضمت يديها ضمة تمثل فيها أجلى معانى التضرع الى الله واحلاها . ثم صاحت : « الى بها » وكانت تظن انها لا تزال طفلة تحمل ، وهم من أوهام الامهات مبعثه العطف والحنان

قال الطبيب : « لم يحن الوقت فانك لا تزالين فى بقايا علتك ، ولا آمن عليك صدمة اللقاء . فمتى ابللت جئناك بها » . فقاطعته بحماسة : « لقد شفيت وأعيد عليك القول

انى شفيت ، فيا لله ما أحمق هذا الطبيب فانه يريد ان يحول بينى وبين ابنتى ! »

قال الطبيب : « أرأيت كيف غلب عليك الغضب ؟ وما دام هذا شانك ، فلا سبيل الى رؤيتها أو تملكى صوابك »

فطأطأت رأسها وقالت وفى صوتها رنة من الاسف : « انها حمقة ارجو أن تغتفرها لى ، ولاتنزل أمرى على الجراة عليك فتاخذنى بما سبق به لسانى . فلقد خرج بى ما انا فيه عن حد الرشد . فان كنت تخشي على مغبة اللقاء فانا صادعة بأمرك ، صابرة مع الرضى ، مرتقبة ذلك الوقت الذى يؤذن لى فيه برؤيتها .. على أن رؤية ابنتى لن تحدث فى نفسى ما تتوقع أنت حدوثه ، وغايتى أن أحدثها الساعة بعض الحديث . لقد رأيت الليلة صورا بيضاء ولمحت أناسايبتسمون لى . وها أنا ذا أستشعر العافية وأحمد الله فقد مسح مابى من الالم . ولكنى سألبث مكانى كأنى مريضة امضاء لامرك وارضاء لهؤلياء الأخوات المقيمات هنا ، حتى اذا انسوا منى السكينة وتيقنوا من ابلالى جاءونى بابنتى »

جلس مادلين على كرسى بجانب السرير فحولت وجهها اليه وهى تغالب كيد الالم ويغالبها لتظهر بمظهر السكينة وتدعو القوم الى تذليل المصاعب التى يقيمونها فى طريقها لرؤية طفلتها . ولكنها على تجلدها لم تقو على الامساك عن سؤال مادلين ، فألقت اليه الف سؤال وسؤال

« لعلها سفرة ميمونة

« لله ما أنبل نفسك فقد انقذت طفلتى

« خبرنى بربك اكانت جلدة على المسير ؟

« اتراها تنكرنى عند اللقاء ، فقد طال عهدها بى

« ان الاطفال كالاطيار لا يكادون يذكرون فى يومهم ما رأوه بالامس

« ترى كيف كان لباسها وغذاؤها فى ذلك النزل ؟

» لقد كانت تؤلمنى ذكرى ذلك فى أيام بؤسى ، أما اليوم فقد أصبحت بفضل حدبك (١) عليها قريرة العين رخية البال

« الا يتسنى لى أن اراها الساعة ؟

« الا ترى انها جميلة

« الا تأذن لى برؤيتها ؟ وان لم تفعل فمن ذا الذى يأذن لى سواك »

فأخذ مادلين يدها بين يديه وقال لها : « ان كوزيت مثال للصحة والجمال وسترينها بعد قليل فاهدئى واسترى ذراعيك بغطائك عسى أن تخف وطأة السعال »

وكان سعالها يزحم دفاعه فى حلقها كل كلمة من كلماتها

فلم تبد فانتين شيئا من التململ خشية أن تزلزل كل آهة من آهاتها تلك الثقة التى تحاول بثهـا فى نفوسهم ، فجعلت تفوه بأقوال لا تنم على الالم

كل ذلك ومادلين ممسك بيدها ، ونفسه تكاد تسيل جزعا

خرج الطبيب وبقيت الراهبة فى مكانها وقد خيم عليهم السكوت ، فمزقته فانتين بصيحة : « انى أسمعها .. انى اسمعها » . ثم بسطت ذراعها تأمرهم بالاصغاء ، وعلقت أنفاسها وجعلت تتسمع

كان فى الفناء ولد يلعب ... ولد البوابة أو ولد من شئت من العاملات

تلك احدى المصادفات التى ما زال الانسان يجدها فى ثنايا الحوادث المحزنة ، كأنما هى جزء مما تهيئه يد الغيب من عدد التمثيل على مسارح تلك الحوادث

---

(١) الحدب الحنان

وكان هذا الولد صبية تذهب وتجيء وتجرى دفعا لغائلة البرد وتلمسا للدفء ، وهى تضحك وتارة تغنى ، وكذلك كان وأى شيء من الاشياء قد خلا من أن تشـوبه شائبة من لعب الاطفال

تلك هي الصبية التى سمعتها فانتين وظنتها « كوزيت » وصاحت : « تلك هى بنيتى وذلك هو صوتها » !

وانقلبت الصبية من حيث اتت وغاب صـوتها ، فلبثت فانتين فترة وهى ملقية بسمعها ، ثم فارق وجهها الاشراق ، وقالت بصوت سمعه مادلين : « قاتل الله الطبيب فقد حال بينى وبينك »

وبعد قليل عاودها أملها البسام ، فأنشأت تحدث نفسها ورأسها مطروح على الوسادة :

« سنصبح من السـعداء ، ويكون لنا بسـتـان جميل ، تمرح فيه كوزيت وتجرى على الاعشاب تطارد الفراش فاذا شبت وبلغت سن التناول . (١) ولكن متى تبلغ هذه السن ؟» ثم جعلت تعد على أصابعها ، وتقول : « انها اليوم فى السابعة من عمرها ، وبعد خمس سنين يكون لها قناع أبيض ، وتبدو فى هندام الفتاة !

« لله ما أحمقنى فانى أفكر فى الشيء قبل أوانه »

ثم اخذت تضحك . . وكان مادلين يصغى الى تلك الكلمات وكأنه يصغى الى هبات النسيم ، وقد غض بصره وغاص فكره فى تأملات لا قرار لها

وانقطعت فانتين بغتة عن الكلام فنبه ذلك مادلين فرفـع رأسه فاذا بها فى صورة مروعة . وكانت لا تتكلم ولا تتنفس، وقد قامت فى سريرها نصف قومة وبرزت كتفها النحيلة من قميصها واصفر وجهها ، ووقفت بنظرها على مشهد مروع

---

(١) التناول المقدس أول حفل دينى تشهده الفتاة المسيحية لتنصيرها

فى الجانب الآخر من المخدع ، واتسعت من الرعب حدقتاها

فصاح مادلين : « ويلك ، ما بك ؟ » فلم تجب ولم تحـول بصرها ، ولكنهـــا مست ذراعه باحدى يديها وأشارت اليه بالثانية ان ينظر وراءه فالتفت ، فاذا به يرى جافير

▭

واليك ما مر من الحوادث قبل ذلك :

خرج مادلين من قاعة الجلسة وقد انطوى النصف الاول من الليل ، وانقلب الى النزل فى الساعة التى تهيأ فيها البريد للسفر ، فأخذ مقعده فيه وبلغ منتراى سيرمير قبل الصباح . وما هى الا أن احتوته حتى أودع صندوق البريد كتابا الى لافيد الصراف ثم انطلق يعود فانتين

ولما غادر قاعة الجلسة فى أراس وعاد الحضور الى أنفسهم ، وقف المدعى العام وجعل يتوجع لمادلين على ما أصابه من ذلك المس ، وأصر على طلبه ، وقال ان هذا الحادث الغريب الذى ستكشف الايام عن سره لم يزلزل من عقيدته ولم يغير وجه التهمة المصوبة الى « شان ماتييه » . ولـكن أقواله لم تنزل من نفوس السامعين منزلتها . وسقطت الحجة من يده فتلقفها المحامى وأطرد له القول فقال :

ــ لقد انقلب الامر رأسا على عقب ، وأصبـــح المحكمون لا يرون أمامهم الا رجلا بريئا

وأخذ الرئيس جانب المحامى ، وانحاز له المحكمون فسرحوا « شان ماتييه »

ولم يكن للمحامى بد من أحد الرجلين : فطلب القبض على مادلين حين أفلته « شان ماتييه » ثم كتب على المـكان (١) أمر القبض ، وخلا بالرئيس لتوقيعه ، فتردد الرئيس بعض

---

(١) أى فى الحال

الشيء ، وكان على طيبة نفسه وحدة ذهنه يتعصب الملكية وقد كان مادلين ذكر أمامه يوما كلمة « الامبراطـــور » ولم يذكر بجانبها كلمة « بونابرت » فغاظه ذلك وحقدها عليه . وذكر له لشقوته تلك السالفة ، فهان عليه توقيع الامر

وابرد المدعى به بريدا خصيصا الى جافير بمنتراى سيرمير وتقدم اليه بالاسراع ، وكان البريد فارسا فذهب يعدو مرسل العنان

وكان جافير قد غادر قاعة الجلسة حين فرغ من شــهادته كما قدمنا ، وعاد الى منتراى سيرمير واتفق أن هب من نومه ساعة وصل البريد . وكان البريد شرطيا من حذاق الشرطة فأنهى اليه الامر ، ووقفه بكلمتـــين على جملة ما مر من الحوادث . فقام جافير الى امضاء هذا الامر ساعة استولى عليه . ولو أن أحدا رآه وهو يلج باب الدار التى فيها فانتين ومادلين وكان ممن يجهلون نبأ هذا الرجل ، لما قام بنفسه أن أمرا خطيرا قد حركه ، ولما تبين من وجهه غير لمحتـــه المألوفة (١) فلقد كان هادىء السمى ساكن النفس بادى الجد وهو يرقى الدرج

ولكن لو رآه فى هذه الساعة أحد ملابسيه الواقفين على غريب طباعه ، لذعر من رؤيته . فقد كان زر بنيقتـــه (٢) منحرفا الى جهة الاذن اليسرى بدلا من أن يكون محررا الى القفا

وكانت تلك آية على هياج غريب فى نفسه . فقد كان الرجل نظاميا فى واجبه ولباسه الرسمى ، فهو لا يترخص مع المجرم كائنا من كان . ولا فى أحكام لباسه الرسمى وتفقد أزراره من جميع ضواحيه . فانزعاج الزر من مكانه حادث لا تأذن له

---

(١) لمحة الوجه وجمعها ملامح ولا يقال ملمح الوجه ولكن ملمح النظر اى محل سقوطه

(٢) ياقة القميص

بالوقوع الا فورة فى النفس ، كانت أشبه الاشياء بالزلزال فى الارض

وكان قد اصطحب أربعة من الجند وكبيرا لهم . وأمر سائرهم بالتربص فى الفناء

ولما سأل البوابة عن مادلين لم تتردد فى أن تدل عليه ، فقد ألفت أن يسألها عنه الجنود وهم شاكو السلاح . ولما بلغ مخدع فانتين أدار المفتاح ودفع الباب دفعا لينا كأنه ممرضة تحرص على راحة مريضها أو مسترق للسمع . ثم دخل ولو احسنا القول لقلنا لم يدخل .. فقد وقف فى حزم الباب ، وقلنسوته على رأسه وأزرار لباسه الرسمى مطمئنة فى عراها، وقد علق فى أثنائها يده اليسرى ، وكان رأس عصاه مطلا من خلف مرفقه . فلبث كذلك دقيقة أو بعض دقيقة ولم يشعر به أحد ، واتفق أن رفعت فانتين عينيها فلمحته وأنذرت به مادلين

وفى اللحظة التى التقى فيها النظران ، حال جافير وهو جامد فى مكانه الى صورة مفزعة !

وما من شعور بشرى فى نفس هذا الرجل هو أقدر على التمثل فى صورة الفزع من شعور الفرح ، وقد طغى عليه فقلب سحنته الى سحناء مارد يريد أن ينقض على طريدته. وكان يقينه من القبض على جان فالجان بعد لأى . قد فضح ما كان كامنا فى نفسه وبسط على ظاهره ما كان يضطرب فى زوايا باطنه . وأصبحت الغضاضة التى كان يجدها فى نفسه حين أخطأ ترسم الاثر ، ولم يصب الشاكلة فى أمر « شأن ما تيبه » وقد محاها زهو دخل فى نفسه حين علم أن فراسته لم تخطىء وأن شعوره لم يخنه فى تعقب جان فالجان . وتجلت فى جبهته الكزة (١) دمامة منظره عند ظفره ، فكان ذلك أبين ما يقرأ من آيات الشناعة فى سحنة بلغت مناها

---

(١) الكزة بتشديد الزاى الضيقة

وفى هذه الآونة كان جافير ، وقد رفعه الفلك وناجاه الملك، لا يشعر بحقيقة موقفه كل الشعور ، لكنه لم يخل من شعور مبهم بنجحه وضرورة الحاجة اليه

فقد كان يمثل فى ذات نفسه تلك القوات العلوية من العدل والحقيقة والنور ، وهى تعمل متساندة على سحق قوة الشر

فكان كأنه يحس أن حواليه مدى لا حد له من السلطان والعقل ونفاذ الرأى والايمان باكبار حرمة القانون والقضاء المبرم والقصاص الاجتماعى ، وكل ما فى ذلك الفلك من قوة

ولا عجب فقد كان يحمى النظام ويستنزل صواعق القانون، وينتقم للمجتمع وينفذ المشيئة ، ويمضى القدر وينهض فى المجد نهوضا . ولم يخل نصره وان كان مبينا من بقية للتحدى والكفاح

وقف فى أوج السماء مشرق الوجه مزهوا وقفة جبار من طواويس الملائكة تجلت فيه بهيمية (١) دونها بهيمية البشر

وكان يشعر بسعادة فى استنكار ما يرى ، وقد وطىء باخمصيه هام الجرائم ، وقيد بعقبيه العصيان والفساد والشرور ، وكان يتفجع نورا وهو يستأصل من الفساد والشر .. وقد تجلت فى تلك النفس الطاهرة العنصر ، البشعة المنظر ، عظمة لا يختلف فيها اثنان . ولم يعلق بهذا الرجل المخيف دنس ، ولا طارت حوله دنية

ان الاستقامة والاخلاص وسلامة الفطرة ومحض اليقين وتمثل الواجب ، كل أولئك الفضائل اذا جاد بها صاحبها عن قصد السبيل تراءت لك فى صور منكرة ، ولكنها على نكرها ودمامتها لا تزال كاسية بالعظمة

---

(١) لم نقل بهمية وقلنا بهيمية اتباعا لأئمة الكتاب فى الفلسفة والاخلاق والادب كابن جنى وابن مسكويه والجاحظ فقد نفرت أذواقهم منها كما نفرت من طبعية فقالوا بهيمية حتى أن سيبويه رأس النحاة قد قال : ان فيهما لغية وأرجو أن تصبح لغة باذن الله

فاجلال تلك الصفات طبيعة من طبائع النفس البشرية ان لكل شيء آفة ، وآفة الفضيلة العدول بها عن القصد المتعصب فى دينه وهو فى عنفوان فورته فرح شريف النزعة وان لم يعرف الرحمة ، يلازمه ما أدرى أى لألاء ، لالاء فيه جلال ولكن تمازجه الفجيعة

وكان جافير وقد بلغ مناه ، على حال يرثى لها — وكذلك الجاهل اذا فاز — فما كان لعين أن تستريح الى ذلك الوجه الذى تجلى فيه كل ما يمكن أن يكون فى طيب من خبيث

▭

لم تكن فانتين قد لمحت جافير منذ اليوم الذى انتزعهـا فيه مادلين من يديه انتزاعا ، ولم يقو عقلها الضعوف على ادراك شيء . غير أنها لم تخل من الشك فى أمره لغشـيانه مخدعها . وكان أكبر ظنها أنه انمـا يريدها . فخانهـا العزم ولم يستطع نظرها القرار على ذلك الوجه المنكر،وأحست الحين، فسترت وجهها بيديها وصاحت بمادلين صيحةاليأس : «نجنى منه» . فأجابها بصوت يقطر سكينة ورقة : « أهدئى انت فانه انما جاء يريدنى»

ثم التفت الى جافير : وقال له : « انى لاعلم ما تريد » !

وصاح به جافير : «أذن فهيا»

نطقها بوحشية زحمت فى حلقه مخارج الاحرف وطمست على معالمها ، فخرجت وهى بالزئير أشبه منها بالكلام . ولم يجر جافير على الطريقة المألوفة فلم يفض معه فى حديث ، ولم يعمد الى ابراز أمر الاستدعاء . فقد كان يعد جان فالجـان محاربا خفيا يفلت كل من يطارده !

قامت بينهما حرب تحت أروقة الظلام ، فلبث خمـس سنين يجالده ويصارعه ، فلم يقو على صرعه ، ولم يكن أمر

القبض بدء ذلك العراك ، ولكنه كان الختام ـ فما زاد على ان قال له : «اذن فهيا» !

قالها ولم يخط خطوة ولكنه القى على جان فالجان نظرة كالمحجن (١) ، تلك النظرة التى اعتاد أن يجـذب بهـا اليه جذب العنف أولئك المنكودين من البائسين ، تلك النظرة التى نفذت الى نخاع فانتين قبل اليوم بشهرين كاملين

وعند تلك الصيحة فتحت فانتين عينيها ، فرأت مادلين بحيث كان ، فشد ذلك منهـا بعض الشىء ، ثم أجالت تلك المسكينة نظرا حائرا ، فلم تر فى المخـدع غير مادلين وغير الراهبة ، فقام بنفسها أنه لايريد بتلك الصيحة سواها

رأت فى تلك اللحظة شـيئا غريبا لم تكن لتراه حتى فى عنفوان هذيانها ، رأت عينا (٢) من الشرطة يلبب (٣) شريفا من سروات الناس ، والعين شامخ الانف والشريف منكس الرأس . فخيل اليها أن الدنيا قد شمرت للزوال

وكان جافير قد أخذ فى الحقيقة بتلابيب جان فالجـان فصرخت فانتين : «سيدى الشيخ» . فضحك جافير حتى بدت نواجذه ، وقال : «ليس هنا من ينادى بسيدى الشيخ» . فلم يعالج جان فالجان أو يزحزح عن خناقه يد جافير ، ولكنه قال له : «جافير» ، فقاطعه جافير قائلا : « قل سيدى المفتش» ، فقال له : « سيدى ان لى معك كلاما»

فقال له : «ارفع به صوتك ، فكذلك أكلم» . قال : «انه رجاء» . قال له : « أجهر بصوتك كما أمرتك»

قال : «انه رجاء يحسن أن لايسمعه سواك»

ثم داناه والقى فى أذنه : « أرجئنى ثلاثا أبحث فيها عن بنية

---

(١) المحجن آلة تجذب الشىء كالخاطوف وغيره

(٢) جاسوس

(٣) يأخذ بتلابيبه أو بخناقه اى يجمع ثيابه عند صدره ونحره ويجره منها جرا

هذه المسكينة وادفع لاصحاب النزل نفقة ايوائهـــا ولك أن تصحبنى اذا شئت»

فقال جافير : «أراك تمزح وما عهدتك قبل اليوم محمقا»

وسقطت تلك الكلمات الى أذن فانتين،فاضطربت فى سريرها وصاحت : «ويلاه أليست بنيتى هنا كما يزعمون ؟» . ثم صاحت . « أيتها الاخت أين بنيتى ، وأنت أيها السيدمادلين» فضرب جافير برجله وصاح بها : «اياك أن تنبسى ايتهـــا الشقية . أرانى اليوم فى بلد ينادى فيه المجرم بألقـــاب التسويد وتكرم فيه البغى كأنها من فضليات الحرائر»

ثم نظر الى فانتين ، ويده تزيد فى تضييق الخناق على جان فالجان ، وقال لها : «ألم أقل أن ليس هنا شيخ ولا سيد ، وانما هنا لص مجرم وفاتك أثيم يدعى جان فالجان ؟»

فاستوت فانتين فى سريرها وتنقلت بنظرها من جان فالجان، الى الراهبة ، الى جافير ، ثم فتحت فاها تريغ الكلام فلم يرم حلقها بغير الشخير ، ثم اصطكت أسنانها وانبسط ذراعاها كأنها غريق يبحث عن شىء حوله ، ثم هوت على الوسادة ، فصدم رأسها سناد الوساد ، وأسلمت على أثر تلك الصدمة الروح

فوضع جان فالجان يده على يد جافير،وهى ممسكة بطوقه، وبسط قبضتها ، وكأنها يد طفل ثم قال له : «لك الويل ، لقد قتلتها»

فصاح به جافير : «دع عنك هذا فما جئنا لنسمع ذلك المنطق ، فان لم تنطلق معى فليس الا القيد ، والا دعوة الجند»

وكان فى احدى زوايا المخدع سرير عتيق من الحـــديد تستريح اليه الراهبات فى السهر ، فاندفع اليه جان فالجـــان وانتزع فى أقل من رجع البصر سناد الوساد رغم رسوخه فى مكانه ، وأى شىء يتعصى على تلك الساعد ؟ ثم اتخذ منــه

جنـــة وسلاحا ولوح به فى وجه جافير ، فتراجع مذعورا الى البــاب . ثم مشى به مشيـــة المطمئن الى سرير فانتين ولمـــا بلغـــه التفت الى جافير ، وقال له : « أنصح لك الا تدانينى » !

فأوجس جافير خيفة ، وبدا له أن يذهب لدعوة الجنـــد لكنه خشى أن يجد جان فالجان نهزة للفرار فأسند ظهـــره الى عضادة الباب ، ونظره مصوب الى غريمه . فارتفق جان فالجان على قمة السناد ، وجعل يتأمل فانتين وهى هامدة ولبث غارقا فى تأملاته . وما كان ليفكر فى شىء من أشـــياء هذه الحياة ، غير انك كنت تقرأ فى معارف وجهه أبلغ آيات الرحمة . ثم انحنى فوقها وجعل يسارها ـ ترى أى كلام كان يلقيه عليها ؟ وما عسى أن يقول ذلك الرجل المتحن لتلك المرأة الميتة

لم يقع ما قال فى أذن الحى فهل وقع فى أذن الميت . وما يدريك لعل فى الاوهام المؤثرة شيئا من الحقائق السامية

روت الراهبة سمبليس ، تلك التى شهدت وحدها ذلك المشهد ولا مغمز فيمـــا تروى ، انها قد رأت رأى العين أثناء تلك المسارة بسمة قد خطفت على فم الميتة وبريقا قد لمع فى تلك الاحداق ، التى غمرتها دهشة أهل القبور . ثم أخذ فى يديه رأس فانتين ووضعه برفق على الوسادة كما تضع الام رأس طفلها وأغمض بعد ذلك عينيها ، وقد علا وجهها اشراق سماوى ، والموت انتقال من عالم الظلمة الى عالم النور

ولما فرغ من شأنها ركع أمام سريرها وتناول يدها فقبلها ثم التفت الى جافير وقال له : «دونك ماتريد» !..

□

سيق مادلين الى سجن المدينة وفشا نبأ اعتقاله فى انحائها، فأقام الناس وأقعدهم ومشى بعضهم الى بعض يتساءلون .

وانحازوا عنه حين علموا انه مجرم عتيق ولم ينشبوا أن نسوا حتى عوارفه ، وقطعوا باجرامه قبل أن يقع اليهم تفصيل ذلك الحادث بآراس . فمضى النهار وما تكاد تسمع فى منـــاحى المدينة الا هذا اللغط :

الا تدرى ؟ ، انه مجرم سرح بعد العقـــاب ، من هو ؟ ، شيخ البلد ، ويحك ما تقول ؟ السيد مادلين ؟ ـ نعم ـ لا تقل هذا ، انه لم يكن يدعى مادلين ، ان له اسما آخر لله ما أشنعه ، لقد كان يدعى ما أدرى (بيجان) ! (جووان) !

ـ وهل أعتقل ؟

ـ نعم

ـ أفى السجن ؟

ـ فى سجن المدينة ويتوقع نقله وأشخاصه الى دار المحكمة ليسأل عن سرقة قد ركبها على الطريق المعبد فى عهده الاول

ـ انى لا أسكن الى هذا النبأ ، فقد كان الرجل طيبـــا كاملا ، وكان من الزاهدين ، ألم تر كيف تأبى على وســـام الشرف يوم أنعم به عليه ؟ ألم تقع عليه عينيك وهو يوالى اسداء الحسنات ؟. فما سأله سائل الا أعطاه ، ولا مر بمعدم الا نفحه ولا بمحزون الا واساه

ـ لقد كنت ألمح من وراء تلك الاعمال ماضيا غير محمود

وقالت عجوز من المشتركين (١) فى « علم السلام (٢) » :

« لم يثر هذا النبأفى نفسى حزنا على ذلك الرجل ـ ان فىهذا لبلاغا لاولئك «البونابارتيين» (٣) »

وهكذا قد انمحى بين عشية وضحاها شبح مادلين من

---

(١) قلنا من المشتركين ولم تقل المشتركات اتباعا للافصح قال الله تعالى : « وكانت من القانتين »

(٢) « علم السلام » جريدة يومية كانت تظهر فى ذلك العهد

(٣) نسبة الى نابليون بونابرت

الاذهان ولم يبق على عهده فى المدينة كلها الا ثلاثة أو أربعة منهم بوابته القديمة

وكانت قد دخلت عند دخول الليل غرفتها وقبعت فيها كاسفة البال تفكر فيما نزل بذلك الرجل الكريم

وقد أقفل المصنع على أثر ذلك الحادث واقفر طريقه ولم يبق فى الدار غير الراهبة (بربيتى) وأختها (سامبليس) كانتا تتناوبان السهر على تلك الميتة

وعند الساعة التى اعتاد فيها مادلين العودة الى داره قامت البوابة وأخرجت من درج لها مفتاح باب مخدعه وعلقته فى مسمار مرشوق بالحائط ، ونصبت الشمعدان فى مكانه المعهود ، كما كانت تفعل فى كل مساء ، ثم أخذت فى التفكير

فعلت كل ذلك بدافع العادة لا بدافع الارادة . ومر بها ساعتان وهى على تلك الحال ، ثم عادت الى نفسها ولم تنشب أن صاحت :

«الهى من ذا الذى علق هنا هذا المفتاح ؟»

ووقع فى نفس هذه اللحظة أن فتح زجاج النافذة . وامتدت يد من فرجته ، فالتقطت المفتاح وأنارت الشمعدان . فرفعت عينيها وهى مفتوحة الفم وقد وقفت فى حلقها صيحة .. انها تعرف تلك اليد ، ولا تنكر تلك الذراع ، ولم يكن كم ذلك الرداء عنها بالغريب

انه السيد مادلين . فمر بها بضع ثوان وهى معقودة اللسان، كما حكت عن نفسها وهى تروى ذلك الحادث ، ثم انحلت عقدته فصاحت : «سيدى الشيخ ! لقد ظننتك ..» ثم أمسكت عن الكلام كراهة أن يبدر منها ما يكون فيه تحقير لذلك الرجل الذى كان لايزال عظيما فى نفسها

فأسرع مادلين واتم لها جملتها فقال : « فى السجن ..

نعم كنت فيه فكسرت احدى عوارض النافذة وهبطت من على سطح هنـاك ، وها أنذا كما ترين أعود الى مخدعى ، فاذهبى انت الى الراهبة «سامبليس» وقولى لها أنى فى حاجة اليها !»
فانطلقت العجوز تعدو ، ولم يوصها بشىء ، فقد كان يعلم أنها عليه أحرص منه على نفسه

ولا يعلم خلق كيف خلص هذا الرجل الى ذلك الفناء ، وهو لم يعمل فى الباب الكبير مفتاحا

لقد كان يكون معه المفتاح (القلابة (١) الذى يستخـــدم لفتح أبواب الجـوانب . لكن من الحتم أن يفتش السجين عند دخوله فى السجن وينزع منه مايحمل من اداة . فهل عمى الموكلون بسجنه عن ذلك المفتاح ، لقد لبث هذا الامر غامضا

صعد فى الدرج الى مخدعه ثم ترك الشمعدان على الدرجة العليا ، وفتح المخدع بلا تحرج فصر الباب صريرا ، ولـكنه لم يباله ، وولج فى الظلام

وجعل يتقرى بيديه ويتلمس النافذة حتى أصابها فأغلقها وأحكم اغلاقها . ثم عاد فحمل الشمعدان وأنار المخدع

وكان من الحزم أن يأخذ بتلك الحيطة فقد كانت النافذة مطلة على الطريق . ثم القى نظرة عجلى على ما فى ذلك المخدع من متاع فكان على غاية من النظام ، ولم يبق فيه ما يدل على أثر تلك الليلة غير قطعة الفلام وقد اسودت من النار وغير بقايا عصاه

فأخذ وريقة بيضاء خط فيها هذه الكلمات :

ـ هاكم بقية عصاى وقطعة الفلام الفضية التى ذكرتهـا أمام المحكمة

---

(١) القلابة كلمة عامية يعبرون بها عن المفتاح الصغير الذى يفتح جميع الابواب واخترت هذه الكلمة لانطباقها على المعنى المراد ، فكلمة قلابة تفيد أنها تقلب جميع الاقفال

ثم لفها فى تلك الوريقة ووضعها بحيث تأخذها عين الداخل ولف بقايا الشمعدانين فى خرقة وجعل يحزمها وهو أهدأ مايكون نفســـا . وكان يمضغ كسرة من الخبز الاسود ولعله حملها معه حين فر من السجن . وقد وجد منها فتاة على بلاط المخدع ، وجده المحققون حين حضروا لمعاينة داره بعد اختفائه

طرق عليه البـــاب فأذن للطـــارق ، فدخلت الراهبة «سامبليس» وهى صفراء اللون محمرة الحدق

ولا يسلم المرء وان كان جلدا صبورا من أن يتسرب اليه الوهن أمام بأس الاقضية والمقادير

وكانت حوادث ذلك اليوم المشهود قد ردت الراهبة الى طبعها من الضعف والخور فجزعت وبكت ، وكذلك تبكى النساء

فمد لها جان فالجان يده بورقة ، وقال لها : « أيتهـــا الاخت أرجو أن تحملى هذه الورقة الى القس» وكانت الورقة مطوية ، فألقت عليها الراهبة نظرة ، فقال لها : «لك أن تقرئى مافيها»

فقرأت : «أرجو سيدى القس أن يقوم على ماخلفته هنـــا من المال ، وأن ينفق على دفن المرأة التى قضت فى هذا اليوم ، وأن يرصد ماتبقى للفقراء والمساكين

حاولت الراهبة أن تنطق فخانها النطق ثم تمكنت بعد الجهد من أن تقول :

«ألا يريد سيدى الشيخ أن يتزود من تلك البائسة بنظرة الوداع ؟»

فأجاب مادلين : «انهم على أثرى وربما أدركونى هناك فعكروا عليها صفو نومها الابدى ! »

وما هو الا أن قالها حتى سمعوا ضجة ووقع اقدام على الدرج . وسرى اليهم صوت البوابة وهى تقول :

«أقسم بالله أن أحدا لم يدخل ، واننى لم أرم مكانى من

الباب بياض النهـــار وسواد الليل» وسمعوا صوت رجل يقول : «وما هذا النور بالمخدع ؟» ، فعرفوا منه صـــوت جافير

وكان باب المخدع يوارى عند فتحه الزاوية اليمنى من ذلك المكان فأطفأ جان فالجان شمعته واختبأ فى تلك الزاوية

وسقطت الراهبة على ركبتها بجوار المنضدة ، وفتح الباب وظهر جافير على العتبة ، وجعلت الراهبة تصلى وكانت قد نصبت شمعتها على المدفأة ، فلمح جافير على ضوئها الضئيل تلك المصلية ، فسمر فى مكانه

وجافير كما تعهد ، بما بنى عليه طبعه وبما كسبه من البيئة التى يعيش فيها والمضطرب الذى يتقلب فيه ، كان على جانب عظيم من أكبار السلطة فى شتى مظاهرها . فهو يعظم سلطان الدين كما يعظم سلطان القوانين ، وينزل الراهب منزلة المعصوم من الخطأ ، والراهبة منزلة المعصومة من الخطيئة

تلك أرواح مسورة فى هذه الدنيا بسور له باب واحد ، لايفتح الا لتخرج منه كلمة حق

ولما لمح جافير الراهبة ، هم عند الوهلة الاولى بالانصراف ، ثم ذكر واجب مهنته فوقف وتجاسر على سؤالها وهو يعلم أنها امرأة صدق ، ومكانها من نفسه مكانها : «أيتها الاخت ، هل أنت وحدك فى هذا المخدع ؟»

فرفعت عينيها ، وقالت : «نعم» . فقال جافير : «اعذرينى على هـــذا الالحـــاح .. ألم ترى رجلا فى هذه الليـــلة ، فانى أتعقب مجرما يدعى جان فالجان قد فر من السجن » . قالت : «لا !»

فانحنى جافير وسلم ، وعاد من حيث أتى وهو بها أوثق مايكون

كذبت الراهبة ثم كذبت : كذبت مرتين على التعاقب

ايه أيتها العذراء الطاهرة . انك لم تكونى من أبناء دنيانا .، وقد مر بك سنون وانت تلابسين الطواهر من اخواتك العذارى، والاطهار من اخوتك الملائك ، ولسوف تسألين عما جرى على لسانك من الكذب ، ولكن فى دار النعيم

وبعد هذا الحادث بساعة أو شيعها (١) رؤى رجل يهرول بين الشجر ، وقد ركب طريق باريس ولم يكن غير جان فالجان وقد ارتدى رداء عامل ولم ندر من أين أتى به ، ولعله رداء العامل الذى مات فى المصنع منذ أيام

وقد آن لنا أن نشيع فانتين بكلمة :

«ان لنا أما واحدة

«هى الارض

« وقد أرجعوا فانتين الى أمها ٠٠ »

وقال القس :

«ليس من البر أن أنفق من مال هذا المجرم على دفن تلك البغى ، ولكن البر أن أرصده للنفقة على الفقراء والمساكين»

ثم تجوز (٢) فى دفن تلك البائسة والقى بها فى مقابر الصدقة، فاختلطت عظامها بذلك الرفات : رفات من سبقها ومن يلحقها من الاموات

وغابت فى غياهب تلك الحفرة التى لم تكن لاحـــد وهى لكل أحد

وذهبت روحها الى مقرها ومستودعها . وسبحان من يعلم وحده أين ذلك المستقر

وهكذا أنيمت فانتين فى ظلمة تلك الحفرة ، وانطوت فى رماد تلك الامشاج ، فكان لحدها أشبه شىء بسريرها

---

(١) قريبا منها

(٢) تساهل

فهرس

صفحة

اهداء الكتاب الى الاستاذ الامام ٧

كلمة فى التعريب ... بقلم محمد حافظ ابراهيم ٨

كلمة فى المؤلف ... بقلم محمد حافظ ابراهيم ١٤

كلمة فى البؤس ... بقلم فيكتور هيجو ١٩

الجزء الاول من البؤساء ٢١

الفصل الاول ٢٢

الفصل الثانى ٥٦

كلمة فى سريرة الانسان ١٢١

الجزء الثانى من البؤساء ١٢٣

الفصل الثالث ١٢٤

الفصل الرابع ١٤٦

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢ (الاعداد ترسل بالطائرة)

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص.ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio N° 3,
3° Andar — Sala 9
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

اختصت سلسلة كتاب الهلال بطبع ونشر هذا الكتاب بتصريح خاص من ورثة حافظ ابراهيم

أما التأليف ، فهو لأديب فرنسا الأشهر فيكتورهيجو ، الذى أودع فيه من أدب براعته ، وفن براعته ، وجمال روايته ، وسمو بلاغته ، وقوة نقده ، ودقة تصويره ما يسحر ويمتع ، ويأخذ بالنفوس والالباب ، ويدفع القارىء الى الاسى والاشفاق على هؤلاء البؤساء الذين يعيش معهم فى هذا الكتاب

وأما الترجمة ، فهى لشاعرالنيل محمد حافظ ابراهيم • وحسبنا به أديبا نابغا ، وشاعرا عبقريا ، تزهو به مصر فى تاريخها الحديث،فقد أودع ترجمته نفسه وروحه ونبوغه ، فكانت ذخيرة أدبية ، تذكر له الى جانب ديوانه البليغ، وقد تسمو فى تقديرها الى أن تقف مع ديوانه فى كفتى ميزان ••• أحدهما يدل على عبقرية حافظ الشعرية ، وثانيهما يدل على عبقريته النثرية ومقدرته فى علم اللغة وصناعة الكلام